أسرار البلاغة

للإمام عبد القاهر الجرجاني

٤٠٠ — ٤٧١ هـ — ١٠١٠ — ١٠٧٨ م

« الكتاب الخالد » الذى توفر
على شرحه : الإمام محمد عبده ،
والشيخ رشيد رضا ، والشيخ
محمد محمود الشنقيطى ، والشيخ
أحمد المراغى ، وآخرون
من علماء النقد والبيان ...

شرح وتعليق الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

الطبعة الثالثة

١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

الناشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها : علي يوسف سليمان
بشارع الصنادقية بميدان الأزهر بمصر
صندوق البريد ٩٤٦ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله
فاتحة كل خير
وتمام كل نعمة

مدخل إلى كتاب « أسرار البلاغة »

تصـــدير

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله ، وصلاة وسلاماً على رســوله الأمين ، محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين .

وبعـــد :

فهذا شرح جديد على كتاب « أسرار البلاغة » للإمام عبد القاهر الجرجانى ، قصدت منه إضاءة الكتاب وتقديمه للقراء فى ثوب جديد ، حتى يتسنى لهم الإفادة منه ، وفهم نظرياته فى النقد والبيان ، ومن عجب أن تكون أفكار عبد القاهر فى النقد والبيان جديدة دائماً ، وأن تكون مصدراً لكل النقاد والبلاغيين ، وأن تكون أفكار النقاد الغربيين صورة منها ومطابقة لها كل المطابقة .

وهنا نقول : هل اطلع النقاد الغربيون على آراء عبد القاهر فى كتابيه « الأسرار » و « الدلائل » مترجمة إلى لغة من اللغات الغربية ؟ .

أغلب ظنى أن الجواب على هذا السؤال هو : نعم ، وإن لم نستطع حتى الآن تحديد ذلك ، ولا الاستناد فيه إلى مصدر مقطوع بصحته ، فإن تلاقى أفكار النقاد الغربيين مع أفكار عبد القاهر فى كثير من النظريات النقدية والبلاغية لأوضح دليل على ذلك .. وقد تكشف لنا الأيام بعض ما خفى علينا فى هذا الموضوع .

ومن عجب كذلك أن عبد القاهر قد مضى على ميلاده أكثر من ألف عام (ولد عام ٤٠٠ هـ) ، وهى ذكرى نادرة لهذا العبقرى الكبير ، ما كان أجدر أن يحتفل بها فى كل مكان ، وأن تكتب دراسات عن عبد القاهر ونظرياته فى البلاغة والنقد ، ومكانته فى الفكر الأدبى العربى القديم والحديث ، وفى الفكر العالمى النقدى كذلك ، ويا ليت أدباءنا ونقادنا وجامعاتنا تولى عبد القاهر عناية خاصة فى أروقتها العلمية .

وأحمد الله على توفيقه ، وأسأله السداد والتوفيق ، وما توفيقى إلا بالله !

محمد عبد المنعم خفاجى

تمهيد

آراء العلماء فى عبد القاهر

— ١ —

(ا) ترجمة صاحب فوات الوفيات له[1] :

عبد القاهر بن عبد الرحمن ، أبو بكر الجرجانى النحوى المشهور ، أخذ النحو عن أبى الحسين محمد الفارسى ... وكان من كبار أئمة العربية ، صنف : المغنى فى شرح الإيضاح فى نحو ثلاثين مجلداً ، وإعجاز القرآن ، وكتاب عروض ، والعوامل المائة ، والمفتاح ، وشرح الفاتحة فى مجلد ، وله : العمدة فى التصريف . والجمل والتخليص بشرحه .

وكان شافعى المذهب ، أشعرى الأصول ، مع دين وسكون ، وتوفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، ومن شعره :

لا تأمن النفثة من شاعر ... ما دام حياً سالماً ناطقاً
فإن من يمدحكم كاذباً ... يحسن أن يهجوكم صادقاً

وقال أيضاً :

كبر على العقل يا خليلى ... ومل إلى الجهل ميل هائم
وكن حماراً تعش بخير ... فالسعد فى طالع البهائم

(١) ٣٧٨ و ١/٣٧٩ المرجع طبعة ١٢٨٣ هـ .

وقال :

أرخ بإثنـــين وخمسينا فليت شعرى ما قضى فينا
نسر بالحول إذا ما انقضى وفى تقضيه تقضينـــا

(ب) ترجمة السيوطى فى بغية الوعاة(١) له :

عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى النحوى الإمام المشهور ، أبو بكر ، أخذ النحو عن ابن أخت الفارسى(٢) ولم يأخذ من غيره ، لأنه لم يخرج عن بلده وكان من كبار أئمة العربية والبيان شافعيا أشعريا .

صنف المغنى فى شرح الإيضاح ، وإعجاز القرآن الكبير ، والصغير ، والجمل ، والعوامل المائة العاملة فى التصريف ، وغير ذلك .

مات سنة إحدى وقيل أربع وسبعين وأربعمائة :

(ج) ترجمة الذهبى :

ترجم له الحافظ الذهبى فى تاريخه دول الإســـلام ، بما لا يخرج عما ذكرناه ... وكذلك القفطى فى « إنباه الرواة » .

---

(١) ٣١٠ و ٣١١ بغية الوعاة للسيوطى ط ١٣١٥ هـ .

(٢) هو محمد أبو الحسين الفارسى النحوى أخذ عن خاله علم العربية وطوف الآفاق ، وكان خاله وفد « على الصاحب بالرى فارتضاه وأكرم مثواه ، ووزر للأمير شاذ غرسيستان ، ثم اختص بالأمير إسماعيـــل ابن سبكتكين بغزنة ، ووزر له ، إلى أن استوطن جرجان وقرأ عليه أهلها ، ومنهم عبد القاهر الجرجانى ، وليس له أستاذ سواه ، ومات سنة ٤٢١ هـ . (ص ٣٨ بغية الوعاة ، ١٧٧ ج ١٨ معجم الأدباء نشر فريد رفاعى) .

(د) ترجمة السبكى له(١) :

قال السبكى فى طبقات الشافعية :

عبد القاهر بن عبد الرحمن الشيخ أبو بكر الجرجانى النحوى المتكلم على مذهب الأشعرى ، الفقية على مذهب الشافعى ، أخذ النحو بجرجان عن أبى الحسين محمد الفارسى ابن أخت الشيخ أبى على الفارسى ، وصار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات ، مع الدين المتين ، والورع والسكون .

---

(١) طبقات الشافعية ٢/٢٤٢ .

النقد الأدبى وأثر عبد القاهر فيه

— ١ —

بلغ النقد الأدبى حتى نهاية القرن الرابع حداً كبيراً من النضوج والقوة شأنه فى ذلك شأن الأدب والبيان وسائر ألوان العلوم والثقافات ، وذلك برغم ما كان يغشى الحياة الإسلامية إبان ذلك من ضعف سياسى بعيد الأثر فى مستقبل العالم الإسلامى ، وحين كانت رقعة الدول الإسلامية تمزق أديمها الحوادث العاصفة وتتداولها أيدى الملوك الغاصبين ، والدول الصغيرة الناشئة كالأخشيدية والفاطمية والحمدانية والبويهية وغيرها من مختلف الدويلات والعروش ، وكان رجال العلم والأدب جادين فى إقامة الحياة الإسلامية على أسس وطيدة من التفكير المثمر والإنتاج الصحيح والتجديد المستمر فى شتى ألوان الثقافة ومناحى الحياة ، وكانت رعاية الملوك لهم ، وتعضيد الأمراء وقادة العالم الإسلامى إياهم ، سبباً من أسباب استمرار هذه النهضة الفكرية والعلمية والأدبية ، كما كانت حركة البعث العقلى التى غذاها الرشيد والمأمون قد آتت أكلها ، وهضمتها عقول المسلمين ، وأحالتها غذاء عقليا أنتج نتائجه العظيمة فى القرن الرابع الهجرى ، فكان أحفل عهد برجال الفكر والعلم والأدب والنقد والبيان ، وأمجد عصر شهدته العربية وآدابها الرفيعة ، وذاعت فى آفاقه شهرة كثير من الأدباء والكتاب والشعراء وأئمة النقد وفحول البيان ، وظهرت فى خلاله مؤلفات كثيرة ناضجة فى علوم الدين والدنيا ، وفى علوم التفكير والفلسفة ، وفى علوم العربية وآدابها ، سواء فى اللغة أم فى الأدب أم فى النقد أم فى البيان وما زالت هذه المؤلفات أعظم المصادر وأجلها فى الثقافة الإسلامية ، وما زلنا ننشد السير على آثارها فى الابتداع والتجديد والإنتاج ولعل من أظهر خصائص الثقافة الإسلامية فى هذه الحقبة الرائعة بلوغ النقد الأدبى أبعد الغايات ، وكثرة ما ظهر فيه من مؤلفات ، تجمع بين

سلامة الذوق ودقة الحكم وتحرى الإنصاف وعمق التفكير ، وتحاول جاهدة أن تضع أسس النقد وأصول الموازنة على دعائم ثابتة ، تقوم مقام الحكومة العادلة والحكم المنصف ، كلما تشعبت الآراء واختلفت الأذواق ، فى شعر شاعر ، أو منزلة أديب .

والنقد الأدبى بدأ بحوثه علماء اللغة والأدب ، واتجه أولا — فى عهود كانت فيها الملكات العربية ما تزال على سلامتها وصحتها — إلى البحث عن الأسلوب وسلامته من الخطأ فى اللغة أو الإعراب أو التصريف ، للحفاظ على العربية وكتابها الحكيم ودفع عادية الفساد الذى نجم على يد المستعربين من الموالى ، ثم على يد من اختلط بهم من العرب ، ولما فرغ النقد من هذه البحوث عاد إلى بحث الأسلوب نفسه وما يتصل به مما يمس صميم البيان والأداء ، تلافيا لأخطاء الملكات التى بدأ يدب إليها العى والقصور ، والعجز بسبب المستعربين والاختلاط بهم ، وأخذ علماء الأدب والنقد . كابن سلام المتوفى ٢٣١ ﻫ ، والجاحظ المتوفى ٢٥٥ ﻫ ، وابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ ﻫ ، وأضرابهم : كأبى عبيدة المتوفى ٢٠٦ ﻫ ، وسواه ، فى عرض المشكلات الأدبية والتعليق عليها وإبداء آرائهم فيها .

ثم كان القرن الرابع فاتجه علماء الأدب فى مشرقه إلى الكتابة فى الأدب والنقد ، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان ، ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلى انتقلت بهم إلى البحث فى مظاهر البيان ومشكلات البلاغة ، فاتجه تأليفهم فى آخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه .

ونقاد الأدب والشعر فى القرن الرابع فريقان : فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثراً بذوقه الأدبى وطبعه العربى وثقافته الخالصة من شوائب الثقافات الأخرى التى جرت جداول إلى يم الثقافة الإسلامية الصميمة المتدفقة ، ومن هؤلاء : الحاتمى ٣٨٨ﻫ صاحب « الرسالة الحاتمية » فى نقد شعر المتنبى وبيان سرقاته من حكمة أرسطو الفيلسوف ، والحسن بن بشر الآمدى

٣٧١ هـ صاحب الموزنة بين الطائيين ، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى ٣٩٢ هـ صاحب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وابن وكيع ٣٩٣ هـ صاحب « المنصف » فى سرقات المتنبى ، وأبو بكر الباقلانى ٤٠٣ هـ مؤلف « إعجاز القرآن » ، وقبلهم أبو بكر الصولى ٣٣٦ هـ صاحب « أخبار أبى تمام » وأبو الفرج الأصبهانى ٣٥٦هـ مؤلف كتاب « الأغانى » وفريق آخر كتب بروح أدبى هذبت فكرته ووسعت أفقه الثقافات الأخرى التى هضمها القرن الرابع ، وأحالها غذاء عقليا لكل من توسع فى الدراسة والبحث العميق . ومن هذا الفريق : جعفر بن قدامة ٣١٩ هـ ، وقدامة بن جعفر ٣٣٧ هـ صاحب « نقد الشعر » وابن العميد ٣٦٠ هـ ، والصاحب بن عباد ٣٨٥ هـ صاحب رسالة « الكشف عن مساوىء شعر المتنبى » وأبو هلال العسكرى ٣٩٥ هـ صاحب « الصناعتين » و « ديوان المعانى » . وهذا الفريق الأخير يختلف نقده قوة وضعفا بحسب تمكن الطبع العربى من نفوس رجاله وأعلامه ، وتتفاوت منازلهم فى الإجادة والإحسان بتفاوتهم فى الذوق الأدبى الذى يعتد به فى الحكومات الأدبية العادلة . ودعنا ممن نقدوا الأدب والشعر بدون تمكن الطبع الأدبى فى نفوسهم ، من النحويين علماء اللغة ، والمعنويين رجال العقل والفلسفة ، الذين جاء حكمهم بعيداً عن الذوق المطبوع والفطرة السليمة ، والذين نقدهم الجرجانى فى « وساطته » نقداً لاذعاً ، وطرح آراءهم فى النقد والبيان فلم يعتد بها ولم يعرها نصيباً من البحث والمناقشة ، اللهم إلا حين ذكر بعض أخطائهم فى النقد لتكون حجة له فى هذا الإهمال .

ويجىء الباقلانى وكتابه « إعجاز القرآن » أثراً جليلا من آثار النقد والبلاغة ، وقد ألفه فى نهايات القرن الرابع الهجرى .

ثم جاء عبد القاهر الجرجانى فى مطلع القرن الخامس (ولد عام ٤٠٠ هـ) فأحدث بكتابيه : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، أضخم ثورة بيانية ونقدية ظهرت فى اللغة العربية .

وقد ظهر مع عبد القاهر وفى عصره فحول من النقاد من أمثال : ابن سنان الخفاجى صاحب كتاب « سر الفصاحة » ، وابن رشيق القيروانى صاحب كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » وكان لهم جميعاً أثر كبير فى تطور النقد والبيان .

— ٢ —

وعبد القاهر الجرجانى (- ٤٧١ هـ) من أعظم النقاد العرب فى تاريخ الثقافة الأدبية العربية ، وهو الذروة التى وصل إليها النقد العربى ، وقد سبقه نقاد كبار وضعوا أصول النقد الأدبى على مناهج مفصلة ، مثل الآمدى (٣٧١ هـ) والقاضى الجرجانى (٣٩٢ هـ) ، ويقول بعض النقاد : إن لدينا كتب نقد منهجى مفصل لا نظن أن الأوربيين قد وضعوا فى آدابهم خيراً منها ، وخير مثل لتلك الكتب هو : « الموازنة للآمدى » « الوساطة للجرجانى »[1] .

ومع ذلك فالفرق كبير بين عبد القاهر وبين الامدى والجرجانى ، فإذا كانت أحكام هذين الناقدين تعد الأساس لمنشأة النقد العربى ، فإن دراسات عبد القاهر قد بنت للنقد صرحاً شامخاً لم يصل إليه أحد قبله

---

(١) ١٤٢ فى الميزان الجديد لمندور .

ولا بعده ، وكتاباه الأسرار والدلائل جد مبتكرين فى تاريخنا الأدبى والنقدى والبيانى .

ويقول مندور(١) : إنى لا أعدل بكتاب « دلائل الإعجاز » كتاباً آخر ، وأما « أسرار البلاغة » فرتبته فى نظرى دون الدلائل بكثير . فالدلائل يشتمل على نظرية فى اللغة وتطبيق على تلك النظرية ، وأما « الأسرار » فأقرب إلى الفلسفة النظرية منه إلى النقد الأدبى ، فالأدب فن لغوى ، ومنهجه هو المنهج الفقهى ، كما فهمه عبد القاهر وطبقه فى « دلائل الإعجاز » . . منهج(٢) عبد القاهر يستند إلى نظرية فى اللغة تماشى ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء ، فقد قرر فيه عبد القاهر ما قرره علماء اليوم من رمزية اللغة ، ومن أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ ، بل مجموعة من العلاقات ، وعلى هذا الأساس العام بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوى فى النقد ، فالألفاظ فى ارتباطها هى التى تكون فى القصيدة مثلا مجموعة الصور التى تنقل إلينا الشعور أو الفكرة(٣).

ففى(٤) آخر كتاب « الدلائل »(٥) يقرر عبد القاهر أمرين خطيرين هما :

الأول : الألفاظ لم توضع ولا تستعمل لتعيين الأشياء المتعينة بذواتها وهذه هى نظرية الرمزية فى اللغة التى أوضح المفكر الألمانى « فنت » حدودها ، وخلاصتها أن لدينا صورة ذهنية لكل شىء ولكل حدث .

---

(١) ١٤٣ المرجع .
(٢) ١٤٧ « السابق .
(٣) ١١٥ الأدب وفنونه — عز الدين إسماعيل .
(٤) ص ١٤٨ فى الميزان الجديد .
(٥) ص ٢٤١ دلائل الإعجاز ، تعليق أحمد المراغى .

وإنما نضع ألفاظ اللغة ونستعملها لنحرك هذه الصورة الذهنية الكامنة ، فلا يمكن أن يثير لفظ طفل مثلا فى نفوسنا شيئاً ما لم يكن فى ذهننا صورة للطفل ، اللفظ رمز لها ومحرك .

ورأى عبد القاهر فى هذه المسألة يتفق مع رأى كبار النقاد وعلماء اللغة فى كل العصور ، يقول عبد القاهر : إنك تطلب المعنى وإذا ظفرت به فاللفظ معك وإزاء ناظرك(١) فهو يربط الصلة بين اللفظ والمعنى أو الفكرة برباط وثيق ، فإذا قال أفلاطون : « إن الكلمة إنما تعنى الفكرة ذاتها وحقيقتها الخارجية المتمثلة فى صورة كلمة على السواء(٢) » ، فإن كلام عبد القاهر لا يفيد أكثر من هذا المضمون ، وقد تبع أرسطو أستاذه أفلاطون فى ذلك فقال : إن عملية النطق مستلزمة ضرورة للتفكير ، وذهب إلى أن الكلمات رموز للمعانى(٣) فالكلمة عند أفلاطون وأرسطو وعبد القاهر رمز للفكرة أو المعنى . . ويقول برجسون بعد هؤلاء بزمن طويل : إنما نفكر بالألفاظ ويقول صاحب كتاب قواعد النقد الأدبى(٤) : على الأديب أن يجعل ألفاظه محاكية لتجاربه ورمزاً لتلك التجارب ، وعليه أن يجمع بين مقدرته على التعبير عما فى نفسه بذلك الرمز وبين مقدرة ذلك الرمز نفسه على نقل تجاربه إلى القراء(٥) ، فما وظيفة الألفاظ فى الأدب إلا أن تكون رمزاً(٦) . وقد بحث فنت الألمانى بحوثاً مبتكرة فى نظرية الرمزية فى اللغة .

(١) ١٠٢ الدلائل تحقيق الخفاجى .

(٢) ٢٧ الأدب وفنونه . لعز الدين إسماعيل .

(٣) الخطابة لأرسطو ١٤٠ ب س ١٥ — ٢٤ .

(٤) لاسل آبركرومبى — ٢٤ قواعد النقد الأدبى — القاهرة ١٩٣٦ .

(٥) ٣٥ المرجع نفسه .

(٦) ويقول ميخائيل نعيمة فى كتابه النقدى « الغربال » : لا قيمة للغة فى ذاتها ونفسها ، بل قيمتها فيما ترمز إليه من فكر وعاطفة .

فهل استفاد عبد القاهر من أفلاطون وأرسطو قبله فى هذه النظرية؟ أعتقد أنه استفاد فى ذلك بابن جنى أستاذه الروحى ومؤلف كتاب «الخصائص» قبل أن يستفيد من أى إنسان آخر ، وقد يتاح لنا عرض هذه النظرية عند ابن جنى فى دراستنا لتفكيره اللغوى وأصوله الفلسفية فى موضع آخر ، وفى مناظرة السيرافى ومتى بن يونس : المعانى المدركة لا يتوصل إليها إلا باللغة(١) ويظلم بعض المعاصرين(٢) «الدلائل» حين يرجع أفكاره إلى الأفكار التى تضمنتها هذه المناظرة(٣) ، دون أن يقيد كلامه ذلك ويجعله بمنأى عن الإطلاق .

الثانى : أننا لا نستخدم ذلك اللفظ لنحرك الصورة الذهنية تحريكا نريده لذاته ، وإنما نفعل ذلك لأننا نعتزم أن نخبر عن «الطفل» بشىء ما . وهنا يلحق الجرجانى بأكبر مدرسة حديثة فى تحليل اللغة ، وهى مدرسة العالم السويسرى رائد علم اللسان الجديث «فرديناند دى سوسير» واللغوى «انتوان مييه» .

فعن هذا «العلم الشريف والأصل العظيم» فرع الجرجانى كل آرائه ، ويجملها أمران :

الأول : إنكاره لفصاحة الألفاظ باعتبار تلك الفصاحة صفة فى اللفظ ذاته ، وثورته على مذهب البديعيين فى المحسنات اللفظية .

والثانى : تعليقه جودة الكلام بخصائص فى النظم .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدى - ١٦٥ . البيان العربى للدكتور بدوى طبانة .

(٢) ٦٥ البيان العربى .

(٣) يقول : تلك هى حقيقة الأفكار التى تبناها عبد القاهر وصاغ منها كتابه «دلائل الإعجاز» ١٦٧ البيان العربى - والإشارة هنا إلى خلاصة الأفكار التى تضمنتها المناظرة .

— ٣ —

ويبحث عبد القاهر فى كتابه « أسرار البلاغة » عن المعانى الثانوية ذات العلاقة اللزومية ، ويقصر البحث فى « الدلائل » عن وجوه النظم وأسراره ويجعل البلاغة فيه .

ومن ثم فإن بحوث عبد القاهر فى الأسرار ترجع إلى الكلمة المفردة من حيث دلالتها على معانيها اللازمية ، وذلك فى التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية ، وفى كتاب « الدلائل » يبحث فى الأسلوب وخصائصه ووجوهه والفروق البلاغية التى تدور حول هذه الوجوه .

ويؤكد ذلك ما قاله عبد القاهر فى دلائل الإعجاز من أنه « ما رأينا فى الدنيا عاقلا اطرح النظم والمحاسن التى هو السبب فيها من الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز ، وصد بوجهه عن جميعها ، وجعل الفضل كله . والمزية أجمعها ، فى سلامة الحروف . . فدراسة النظم وجعلها قاصرة على الدلائل ، ودراسة المحاسن التى هو السبب فيها من الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز كما يقول ؛ هى موضوع أسرار البلاغة .

فالعلاقات الأسلوبية بين الألفاظ هى فى رأى عبد القاهر موطن البلاغة ، وهى ما عبر عنه بالنظم وما يعبر النقاد عنه بالشكل أو الصورة ، فمن مجموع العلاقات بين الألفاظ فى النص الأدبى تتكون الصورة ، وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية ، وهذه هى أساس نظرية التحليل اللغوى عند سوسير السويسرى ، وهى نظرية سبق إليها عبد القاهر ناقدنا الكبير

وهذه العلاقات يتحدد فيها أهمية اللفظ بانضمامه إلى لفظ آخر بحيث يكون بينهما صلة معنوية ، كأن يكون الثانى خبراً عن الأول أو فاعلاله ، أو ما شاكل ذلك ، فاللفظ والمعنى لا يمكن فصلهما عن بعض ، إنهما وجه الصورة وعمادها . وهذه هى نظرية الكثير من النقاد العالميين ، وبخاصة النقاد الجماليون .

ولا يغفل عبد القاهر أهمية المعانى الثانوية ودلالتها الجمالية فى النص الادبى ، سوا كانت هذه المعانى الثانوية معانى لزوميه ، أن من متتبعات التراكيب،أو أثراً لرموز صوتية وإيحاءات نفسية، فهى التى تعطى الاسلوب دلالاته البلاغية ، وتمنحه قيمة جمالية ، وكثير من المهارة الأدبية إنما هو فى إطلاق تلك المعانى الثانوية لتؤثر تأثيرها فى الخيال ، . وفى هذا يتلاقى عبد القاهر مع كل النقاد الكبار فى الشرق والغرب على السواء .

ومن هذه القيم صاغ عبد القاهر فلسفته البلاغية التى جعل محورها نظريته فى النظم التى ربط فيها بين اللفظ والمعنى وبين دلالات الالفاظ الأسلوبية ، ودلالتها الثانوية ، وجعل النظم وحدة هو مظهر البلاغة ، ومثار القيمة الجمالية فى النص الأدبى .

وقد أعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبى الخالص أعتماداً كلياً فى كل مايقرره من أحكام ، مقرراً أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعاً من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون من تحدثه نفسه بأن لما يومىء إليه من الحسن واللطف أصلا.وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ويعرى منهاأخرى وحتى إذا عجبته عجب ، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه (١) .

---

(١) ٢٨٤ الدلائل تحقيق الخفاجى .

وقد أثرى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربي والنقد الأدبي إثراء جليلا ، يظهر فى نقده الأساليب وتحليلها ، وفى استنباطه الفروق والخصائص فيما بينها ، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة على أساليب كثيرة من ضروب الشعر والنثر .

عبد القاهر بين النقد والبلاغة

— ١ —

يمثل عبد القاهر الجرجانى (٤٠٠ — ٤٧١ ﻫ) مؤلف كتابى : أسرار البلاغة . ودلائل الإعجاز ، وأعظم النقاد العرب ، القمة العالية ، التى وصل إليها النقد العربى القديم ، التى لم يبلغها عند العرب من قبل ولا من بعد .

ولقد سبقه نقاد كبار ، وضعوا أصول النقد الأدبى ، وفق مناهج مفصلة مثل قدامة (٣٢٧ﻫ) ، والآمدى (٣٧١ﻫ) ، والقاضى الجرجانى (٣٩٢ ﻫ) ، وأبى هلال العسكرى (نحو ٣٩٥ﻫ) ، ومع ذلك فالفرق الكبير بينهم وبين عبد القاهر . فإذا كانت الأحكام التى فصلوها فى : « الموازنة بين الطائيين » و « الوساطة بين المتنبى وخصومه » وكتاب « الصناعتين » تعد الأساس لنشأة النقد العربى ، فإن دراسات عبد القاهر الجرجانى قد بنت للنقد صرحاً شامخاً لم يصل إليه أحد قبله ولا بعده ، وكتاباه : « الأسرار » و « والدلائل » جد مبتكرين فى تاريخنا الأدبى والنقدى والبيانى .

وفى كتاب « أسرار البلاغة » يتحدث عن الأصول الكبرى فى البيان العربى ، مثل التشبيه والتمثيل ، والاستعارة ، والمجاز والكناية ، والسرقات الشعرية ، وحسن التعليل ... وروائع الاهتداء إلى دقائق المعانى فيها واختلاف الأدباء والشعراء فى الوصول إلى أدق بلاغاتها ، وطرق اختلاف أساليبها من حيث النظم والصياغة والتصوير .

وفى « دلائل الإعجاز » يتحدث عبد القاهر عن نظرية النظم وتطبيقاتها الواسعة فى مختلف أساليب البيان ، ويتهدى بذوقه وإحساسه بين روائع الأدب والشعر ، دارساً لها مبيناً الفروق الأدبية والبيانية بين أساليبها من حيث وجهة رأيه فى النظم ، ويهتدى بفطنته وذكائه إلى مناهج مفصلة بنى عليها

أحكامه النقدية والبيانية ، فى دقة وعمق وروعة فهم للأدب وخصائصه :

وأكاد أمثل ذوق عبد القاهر النقدى فى الكتابى بالترمومتر الزئبق الذى يتأثر بمختلف درجات الحرارة تأثراً واضحاً ، فإن ذوق عبد القاهر يقف عند دقائق الأساليب ، ومختلف صور الأداء والبيان متأثراً مهتزاً معبراً عن انفعالاته الأدبية والنقدية بأجلى بيان وأوضح تعبير ، وعندما يقف أمام روعة تعبير أو أدنى تغيير فى الأسلوب ، يعبر عن انفعالاته الفنية تعبيراً يدل على أصالة فهم ، وعمق إحساس ، ودقة فطنة ، وعلى ذوق مرهف عجيب .

وهنا سوف أتحدث عن الأصول النقدية الكبيرة ، التى اهتدى إليها عبد القاهر ودرسها فى كتابه « دلائل الإعجاز » لنتبين مدى أثره فى حركة النقد العربى .

— ٢ —

يرى عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز » أن اللفظة رمز لمعناها ، رمز للفكرة أو التجربة أو العاطفة أو المعنى وقيمتها فيما ترمز إليه ، وليست البلاغة فيها وحدها ، فالألفاظ لم توضع ولا تستعمل لتعيين الأشياء المعينة بذواتها ، وإنما لدينا صورة ذهنية لكل شىء ولكل حدث ، ونحن نضع ألفاظ اللغة ، ونستعملها ، لنحرك هذه الصور الذهنية الكامنة ، فلا يمكن أن يثير لفظ طفل مثلا فى نفوسنا شيئاً ما لم يكن فى ذهننا صورة للطفل ، يرمز لها ويحرط (١).

وعبد القاهر فى ذلك يتلاقى مع كل النقاد العالميين القدامى والمحدثين ،

---

(١) راجع ٤٣١ دلائل الإعجاز ، ١٤٨ فى الميزان الجديد لمندور .

فإذا قال أفلاطون من قبل : إن الكلمة إنما تعنى الفكرة ذاتها وحقيقتها الخارجية المتمثة فى صورة من كلمة على السواء (١) وإذا قال أرسطو : إن عملية النطق مستلزمة ضرورة للتفكير وإن الكلمات رموز المعانى(٢)، فإن عبد القاهر يقول : إنك تطلب المعنى وإذا ظفرت به فاللفظ معك وإزاء ناظرك(٣)، ويقول برجسون بعده بزمن طويل : إنما تفكر بالألفاظ، ويقول لاسل آبركرومبى أستاذ النقد الإنجليزى بجامعة لندن : «على الأديب أن يجعل ألفاظه محاكية لتجاربه ورمزاً لتلك التجارب، وعليه أن يجمع بين مقدرته على التعبير عما فى نفسه بذلك الرمز، وبين مقدرة ذلك الرمز نفسه على نقل تجاربه إلى القراء(٤)، فما وظيفة الألفاظ فى الأدب إلا أن تكون رمزاً(٥)، ويقول ميخائيل نعيمة فى كتابه النقدى المشهور «الغربال» : لا قيمة للغة فى ذاتها ونفسها، بل قيمتها فيما ترمز إليه من فكر عاطفة .

النظرية واضحة، وقد بحثت مدرسة لغوية كبيرة، هى مدرسة «فنت الألمانى» نظرية «الرمز فى اللغة» وكشف عنها، ودراسة تفاصيلها فى اتفاق كلى مع كل ما كتبه عبد القاهر الجرجانى وفصله فى دلائل الإعجاز(٦) .

وفى مناظرة السيرافى لمتى بن يونس التى رواها أبو حيان التوحيدى فى

(١) ٢٧ الأدب وفنونه ـ عز الدين اسماعيل .
(٢) الخطابة لأرسطو ٢٤٠ ب س ١٥ — ٢٤ .
(٣) ١٠٢ الدلائل لعبد القاهر تحقيق الخفاجى .
(٤) قواعد النقد الأدبى — القاهرة ١٩٣٦ — ترجمة محمد عوض .
(٥) ٣٥ المرجع نفسه .
(٦) عقد محمد مندور الصلة بين عبد القاهر وفنت الألمانى فى رمزية اللغة فى كتابه «فى الميزان الجديد» ص ١٤٣ .

كتابه « الإمتاع والمؤانسة » يقول متى بن يونس : المعانى المدركة لا يتوصل إليها إلا باللغة(١) .

ويجعل بعض المعاصرين عبد القاهر متأثراً فى دلائل الإعجاز بكل الأفكار التى تضمنتها هذه المناظرة(٢) ، وهذا ظلم لعبد القاهر وكتابه ، خاصة أن الكاتب الدكتور طبانة لم يقيد كلامه حتى يجعله بمنأى عن الإطلاق ، وكأن أصول دلائل الإعجاز صياغة مباشرة لكل الأفكار التى تضمنتها هذه المناظرة ، ولو قلنا إن عبد القاهر إذا كان قد تأثر بأحد فإنما تأثر بآراء ابن جنى (٣٩٢هـ) فى كتابه « الخصائص » لكننا أقرب إلى الصواب مع الاختلاف المطلق بين عبد القاهر وغيره من علماء اللغة والنقد من العرب ، لأن لعبد القاهر مذهبه المستقل المتميز فى كل ما يعرض له من نظريات وفلسفات نقدية وبيانية .

— ٣ —

والعلاقات الأسلوبية بين الألفاظ هى فى رأى عبد القاهر — فى كتابه « دلائل الإعجاز » — موطن البلاغة ، وهى ما عبر عنه بالنظم ، وما يعبر عنه النقاد بالشكل والصورة ، مع خلاف كبير بينهم فى تحديد معنى الشكل تبعاً لاختلافهم فى تحديد معنى المضمون ، فمن مجموع العلاقات بين الألفاظ فى النص الأدبى تتكون الصورة ، وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية ، وهذا هو أساس نظرية التحليل اللغوى عند سوسير السويسرى(٣) الذى يذهب إلى أن اللغه ليست مجموعة من الألفاظ ، بل هى مجموعة من العلاقات .

---

(١) راجع الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان .

(٢) ١٦٧ البيان العربى — د. بدوى طبانة

(٣) ومن مدرسة فردينانادى سوسير رائد علم اللسان الحديث : العالم اللغوى الفرنسى انتوان مييه — راجع ١٤٨ الميزان الجديد لمندور

يقول عبد القاهر الجرجانى فى ذلك : إن نظم الكلام يقتفى فيه آثار المعانى(١)، وليس الغرض بنظم الكلام أن توالت ألفاظها فى النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها « على الوجه الذى اقتضاه العقل (٢).

وهذا هو ما يذهب إليه النقاد المحدثون ، فاللغة عندهم حين يستعملها الشاعر تصبح لغة شعرية لا لأنها فى ذاتها لها هذه الخاصية، ولكن لأنها خضعت للتجربة الشعرية فى نفس ومقتضيات التعبير عن هذه التجربة ، فالشاعر يريد إنتاج تركيب معين من خلال اللغة ذات الطبيعة التحليلية ، وإحداث الأثر التركيبى من خلال أداة تحليلية يمثل أعظم نجاح للشاعر (٣).

— ٤ —

ويكاد يكون الناقد الإيطالى بندتو كروتشيه (— ١٩٥٢) متأثراً بمذهب عبد القاهر تأثراً كبيراً. فقد اعتد بالشكل الأدبى، ورأى الحقيقة الجمالية فيه لا فى المضمون (٤) . كما ذهب إليه عبد القاهر فالشكل عنده هو النظم عند عبد القاهر ، والمضمون عندة صورة قريبة من المعنى عند عبد القاهر .

---

(١) ٩٣ دلائل الإعجاز ـ تحقيق خفاجى .   (٢) ص ٩١ المراجع .

(٣) راجع فى ذلك : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتى، وقضايا الفكر فى الأدب المعاصر لوديع فلسطين ١١١و١١٢ الأدب وفنونه.

(٤) يحدد كروتشيه المضمون بأنه الأحاسيس أو الناحية الإنفعالية قبل صقلها صقلا جمالياً، أما الشكل فهو صقلها وإبرازها فى تعبير عن طريق النشاط الفكرى ، ولا قيمة عنده فى الشكل للكلمات المفردة من حيث هى مادة للتعبير ، ولا من حيث الجرس والصوت منفصلين عن الفن والصورة . . وهذا كله هو رأى عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز .

وإذا كان بعض النقاد العرب قد فصلوا بين اللفظ والمعنى، أو بين الشكل والمضمون ، أو بين الصورة والمحتوى، ورأوا أنهما عنصران مستقلان تمام الاستقلال، من حيث ذهب ابن رشيق (-٤٥٦ هـ) فى كتابه «العمدة» إلى أن اللفظ جسم وروحه المعنى فلا يمكن الفصل بينهما، إذا هما متلازمان ، وكان رأيه ذلك قريباً من مذهب أرسطو فى العلاقة بين اللفظ والمعنى، فإن عبدالقاهر الجرجانى كان من أعظم النقاد العرب الذين اهتدوا إلى هذه العلاقات بين الألفاظ والمعانى فى النص الأدبى ، وسماها النظم ، وعرفه بأنه تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض(١)، ورد على من يجعل مدار البلاغة ، أو الجمالية ، على اللفظ أو على المعنى ، ورأى أنها إنما هى فى العلاقة بين الألفاظ في العبارات وبين المعانى وأكد أن ليس الغرض بنظم الكلام أن توالت ألفاظها فى النطق بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل . . وهذا هو ما اهتدى إليه فيما بعد النقاد الجماليون، الذين يرون أن الصورة والمضمون فى النص الأدبى هما وجها النموذج الأدبى ، والفصل بينهما غير ممكن ، فليس هناك مضمون وصورة ، بل هما شيء واحد، فالمعانى التى يحتويها النموذج الأدبى لا توجد قبل وجوده إلا وجوداً غامضاً ، إنما يتم وجودها حين تصاغ ، وحين تأخذ شكل قالبها المعين، وتبرز واضحة فيه بكل خصائصها الفكرية واللفظية، فمادة النموذج الأدبى وصورته لا تفترقان، فهما كل واحد ..وبينما نجد الكلاسيكيين يرفعون من شأن اللفظ، والرومانسيين يهتمون بالمعنى ويقدمونه على اللفظ ودعاة مذهب الفن للفن يحررون النص الأدبى من كل قيود المضمون والمحتوى، مادام النص يغذى حاسة الجمال فينا، ودعاة الرمزية يهتمون اهتماماً خاصاً بما توحيه الصور والألفاظ ، من رموز ومجازات عن طريق موسيقاها وأصواتها ، ودعاة الواقعية يهتمون بالمضمون فى النص الأدبى ومحتواه الواقعى أو الاجتماعى ، فإن

(١) راجع الدلائل فى أماكن كثيرة مثل ٤٣ و ٤٤ .

الفلسفة الجمالية - وهى مطابقة - تمام المطابقة لفلسفة عبد القاهر النقدية ، أو على أصح تعبير ، هى مأخوذة منها تؤكد وحدة العمل الأدبى ، وتربط بين مضامينه وأشكاله برباط وثيق من الوحدة والالتحام ، وهكذا نجد فلسفة عبد القاهر اللغوية ذات قيم جمالية مبتكرة ، فاللفظ يستمد عنده ابلاغته من أنه ظل للمعنى ، والمعنى يستمد مزيته من حيث إنه المادة الغفل التى يصوغها اللفظ (١) .

ومن أجل ذلك رفض عبدالقاهر الاعتداد بالمعنى وحده مردداً ماردده الجاحظ (٢) من قبل ، من أن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والقروى والبدوى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وصحة الطبع وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير (٣) ، وهذا هو ماقاله مالارميه الفرنسى فيما بعد من أن الشعر لا يصنع من الأفكار ولكنه يصنع من الألفاظ (٤) . ويقول بعض الباحثين إن الشاعر لايكفيه أن يحصل قدراً من الأفكار حتى يستطيع أن يقول الشعر ، فنحن لا نحكم على الشاعر إلا بعد أن نقرأ الألفاظ التى كتبها (٥) .

كما رفض عبد القاهر كذلك الاعتداد باللفظ وحده ، فنفى أن تكون الفصاحة صفة اللفظ من حيث هو لفظ . وذلك فى مواضيع كثيرة من دلائل الإعجاز (٦) . والألفاظ فى ارتباطها الفنى انما تكون فى القصيدة

---

(١) راجع ١٦٢ ومابعدها من كتاب . فى النقد الأدبى » د. شوقى ضيف

(٢) راجع الحيوان للجاحظ (٣: ٤٠) ، ودلائل الإعجاز ص ٢٥٧ .

(٣) ٢٥٧ دلائل الإعجاز . تحقيق الخفاجى

(٤) ١٠٩ الأدب وفنونه . (٥) ١١٠ المرجع نفسه

(٦) راجع مثلا ص ١٠٢ و ٢٧١ و ٤٩٥ الدلائل

ـ مثلا ـ مجموعة الصور التى تنقل إلينا الفكرة أو التجربة أو المشاعر النفسية.

— ٥ —

ولا يغفل عبد القاهر أهمية المعانى الثانوية ودلالتها الجمالية فى النص الأدبى ، سواء كانت هذه المعانى الثانوية معانى لزومية ، أو من مستتبعات التراكيب ، أو أثراً لرموز صوتية أو إيحاءات نفسية ، فهى التى تعطى للأسلوب دلالته البلاغية ، وتمنحه قيمة جمالية ، وكثير من المهارة الأدبية إنما هو فى إطلاق تلك المعانى الثانوية لتؤثر تأثيرها فى الخيال ، ومن أجل ذلك قرر عبد القاهر ـ فى كتابه « دلائل الإعجاز » أن الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وضرب آخر أنت لا تصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض . ومدار هذا الأمر على الاستعارة والكناية والتمثيل(١)، وقرر أن المعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ ، أما معنى المعنى فهو أن تعقل من اللفظ معنى . ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر(٢) ، وشرح وجوها أخرى كثيرة لمعنى المعنى (أو المعـــانى الثانوية) فى مختلف فصول الكتاب ، وعبد القاهر فى ذلك يتلاقى مع كل النقاد الكبار فى مختلف العصور ، بل إنهم هم الذين يتلاقون معه ، ويدورون حوله ، يقول كرومبي الناقد الإنجليزى المشهور : إن المعنى الذى نجده فى معاجم اللغة للكلمة ما هو إلا النواة التى يتجمع حولها طائفة من المعانى الثانوية وكثير من المهارة الأدبية عبارة من

---

(١) ٢٦٢ دلائل الإعجاز تحقيق الخاجى .

(٢) ٢٦٣ المرجع .

إطلاق تلك المعانى الثانوية لتؤثر تأثيرها فى الخيال (١)، فإن أسمى ما يصل إليه فن الأدب أن يجعل (٢) الإيحاء اللفظى من القوة والسيطرة وبعد المدى والحيوية والقوة بمكان عظيم فالشاعر (٣) يستخدم المعانى العقلية للألفاظ ويستخدم كذلك علاقاتها وإيحاءاتها وصورها وإيقاعها والصور الموسيقية وغيرها مما تكونه الألفاظ حين يربط بعضها ببعض، فإن عناصر الصورة تتكون من الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، ويضاف إلى ذلك مؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفنى. وهذه المؤثرات هى: الإيقاع للكلمات والعبارات، والصورة والظلال التى يشعها التعبير (٤). وأصبحت هذه المعانى الثانوية ذات أصالة كبيرة فى الصورة الأدبية (٥).

— ٦ —

من كل هذه القيم صاغ عبد القاهر فلسفته البلاغية أو الجمالية. التى جعلها محور نظريته فى النظم التى ربط فيها بين اللفظ والمعنى. وبين دلالات الألفاظ الأسلوبية ودلالتها الثانوية، وجعل النظم وحده هو مظهر البلاغة ومثار القيمة الجمالية فى النص الأدبى.

وهذه الفلسفة البلاغية هى أساس فكرة عبد القاهر فى كتابه «دلائل الإعجاز» الذى شرح فيه نظرية النظم، وجلاها فى أوضح صورة، وأجلى بيان. وطبق عليها تطبيقات أدبية واسعة. شملت كل ألوان النظم وصور الأسلوب أو الشكل الأدبى. وجعل عبد القاهر كل هذه القيم الجمالية دلائل الإعجاز، أو مقدمات لدراسة وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم على أصح تعبير

(١) ص ٤ قواعد النقد الأدبى - لاسل آبروكرومبى - ترجمة محمد عوض.
(٢) ص ٣٨ المرجع.
(٣) ١٠٢ الأدب وفنونه، وكذلك الشعر المعاصر للسحرتى ص ٦٩، ودراسات فى النقد الأدبى للمؤلف. (٤) ٩٦ دراسات فى النقد الأدبى للمؤلف. (٥) راجع ٤٥ الشعر المعاصر للسحرتى.

منهج عبد القاهر فى «أسرار البلاغة»

— ١ —

أسرار البلاغة كتاب مشهور رائع ، ألفه الإمام عبد القاهر الجرجانى (٤٠٠ - ٤٧١ هـ) ، ويعد من أهم الأصول والمصادر - فى النقد والبلاغة العربية .

ويشرح لنا عبد القاهر غرضه من الكتاب فيقول :

أعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته ، والأساس الذى وضعته ، أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى ، كيف تتفق وتختلف ، ومن أين تجتمع وتفترق ، وأفصل أجناسها وأنواعها ، وأتتبع خاصيها ومشاعها ، وأبين أحوالها ، فى كرم منصبها من العقل ، وتمكنها فى نصابه ، وقرب رحمها منه ، أو بعدها حين تنسب عنه ، وكونها كالحليف الجارى مجرى النسب ، أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه ولا يمتعضون له ولا يذبون دونه (١). ثم يردف ذلك بقوله : وإن من الكلام ماهو شريف فى جوهره كالذهب الإبريز ، الذى تختلف عليه الصور ، وتتعاقب عليه الصناعات ، وجل المعول فى شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير قد يزيد فى قيمته ، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها مادامت الصورة محفوظة عليها ، قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو (٢) » ، ثم يقول : وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه ، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة فإن هذه أصول كثيرة ، جل محاسن الكلام إن لم نقل كلها ، متفرقة عنها ،

---

(١) ١٧ و ١٨ أسرار البلاغة تعليق محمد رشيد رضا ، ط ١٩٥٩ — مكتبة محمد صبيح . يذب يدافع .

(٢) ١٨٠ المرجع .

وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعانى فى متصرفاتها (١) .

وفى هذه النصوص يوضح لنا فيها عبد القاهر أموراً كثيرة :

١ — فهو يذكر أولا أن جل اهتمامه فى الأسرار موجه إلى التشبيه والتمثيل والاستعارة وقد عنى بها حقاً عبد القاهر فى الكتاب عناية فائقة ، وأشرك معها فى البحث فى هذا الكتاب الكناية والمجاز وبعض ألوان المحسنات البديعية كالتجنيس والسجع والمبالغة والطباق والأخذ والسرقة ، وغير ذلك .

٢ — ويذكر ثانياً أنه يعنى بذلك لبيان أمر المعانى فى اتفاقها واختلافها وصلتها بالعقل وقربها منه أو بعدها عنه ، ويريد عبد القاهر بالمعانى هنا ما يريده بها فى قوله : إن المطابقة والاستعارة وسائر أقسام البديع لا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بها إلا من جهة المعانى خاصة (٢) ، ويفسر لنا ذلك رأيه فى أن الاختصاص - أى البلاغة - فى ترتيب الكلم يقع فى الألفاظ مرتبة على المعانى المرتبه فى النفس (٣) ، مريداً بالمعانى هنا معانى النحو التى يذكرها فى تعريف النظم وأنه توخى معانى النحو فيما بين الكلم ، فليس المراد من كل ذلك إلا تقرير أن بلاغة التشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها راجعة إلى النظم أو هى بسبب منه ، فحديثه عنها فى هذا الكتاب إنما هو تطبيق على نظريته فى النظم التى يجعل بلاغة الكلام راجعة إليه ، ويؤكد ذلك قوله فى آخر كتابه « دلائل الإعجاز » : وجملة الأمر أنا ما رأينا فى الدنيا عاقلا اطرح النظم والمحاسن التى هو السبب فيها من الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز ، وصد بوجهه عن جميعها ، وجعل الفضل كله والمزية أجمعها فى سلامة الحروف (٤) حيث يقرر أن البلاغة إنما هى فى النظم

(١) ١٨٠ أسرار البلاغة . (٢) ١٤ سطر ١ و ٢ أسرار البلاغة .

(٣) ص ٢ و ١٣ المرجع نفسه .

(٤) ص ٤٠٢ دلائل الإعجاز (طبع المنار ١٣٣١ هـ) ، ٣٣٢ الدلائل =

وفى المحاسن التى هو السبب فيها فى الاستعارة والتمثيل والكناية الخ ، ونظريته فى النظم هى موضوع كتابه « دلائل الإعجاز » ، ورأيه فى المحاسن — التى يرجع السبب فيها إلى النظم ـ فى الاستعارة والتمثيل الخ هو موضوع كتابه « أسرار البلاغة » .

٣ — فعبد القاهر إذا تدور أفكاره التى كتبها فى كتابيه حول فكرة واحدة لا فكرتين ، وهذه الفكرة هى أن البلاغة ترجع إلى النظم والصياغة سواء فيما يتصل بالأسلوب أو بأهم عناصره من التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية والمجاز الخ ، وقد بحث بلاغة النظم فى الدلائل وبلاغة التشبيه وأخواته فى الأسرار الذى يقرر فيه أن بلاغة هذه الألوان راجعة فى الحقيقة إلى النظم ، فبلاغة الاستعارة عنده راجعة إلى نظم عبارتها وما بين المعانى من الارتباط (١) ، وليست المزية التى يثبتها للكناية على الإفصاح راجعة إلى نفس المعنى الذى يقصد المتكلم إليه ، ولكن المزية فى طريق إثبات هذا المعنى (٢) ، وكذلك الأمر فى التشبيه ، فبلاغة كل هذه الألوان تعود إلى النظم الذى هو ارتباط معانى الكلم بعضها ببعض وترتب بعضها على بعض على وفق ترتبها فى الذهن ، وانظر إلى قول عبد القاهر فى دلائله فى شرح الاستعارة فى بيت ابن المعتز المشهور :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا   أنصاره بوجـــوه كالدنانير

قال : فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن ، وانتهى إلى حيث انتهى ، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ،

= طبع المكتبة المحمودية .

(١) الأسرار ط ١٩٣٩ ـ عيسى الحلبى ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) الدلائل ط ١٣٣١ ص ٥٦ (ط ١٣٣٧) .

وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته(١).

فمن الخطأ ما ذهب إليه خلف الله فى كتابه « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » من أن دراسة الفن الأدبى تعتمد على ناحيتين : ناحية البناء والنظم والتركيب ، وهذا ما درسة عبد القاهر فى دلائل الإعجاز ، ناحية الصياغة والتصوير والجمال وهى — ما درسه عبد القاهر فى أسرار البلاغة (٢) . ذلك أنه ليس هناك فاصل فكرى بين الكتابين ، فضلا عن أن هاتين الناحيتين اللتين ذكرهما خلف الله إنما هما ناحية واحدة وفكرة واحدة . ويتابع خلف الله شرح رأيه فيقول : إن مقياس الجودة الأدبية عند عبد القاهر هو تأثير الصورة البيانية فى نفس متذوقها ، وهذا هو الفكرة الرئيسية التى تبرز فى أسرار البلاغة(٣) وهو يريد ربط (الأسرار) بالمذهب النفسى فى دراسه الأدب ونقده ، وقد يكون ذلك صحيحاً لو أننا جعلنا هذا الربط هو أحد ما اتجه إليه عبد القاهر فى كتابه أسرار البلاغه من أهداف ، لا أن نجعله هو كل ما اتجه إليه ، أو الغاية والهدف له من الكتاب.

فإذا كان عبد القاهر قد دارت فكرته فى الدلائل حول البلاغة وأنها تكون فى النظم وأن النظم هو تعليق معانى الكلم بعضها ببعض . فإن فكرته فى الأسرار تدور حول ذلك أيضاً لإظهار أسرار هذه المعانى فى التشبيه وأخواته ، فدلائل الإعجاز موضوع نظرية عامة فى الأدب لاتصالها بالإعجاز أما « أسرار البلاغة » فشرح وتطبيق لهذه النظرية على التشبيه وأشباهه ، لأن ذلك وثيق الصلة بالخلق الأدبى ، ففى الدلائل يتناول الجرجانى شرح المقياس الذى يقاس به الإعجاز وهو النظم ، وفى الأسرار درس أبواب التشبيه

---

(١) الدلائل ص ٦٨ ط المكتبه المحموديه وتحقيق المراغى .

(٢) ٧٤ ، ٧٥ من الوجهه النفسيه ط ١٩٤٧ .

(٣) ٩٣ ، ٩٦ المرجع .

ونظائره دراسه يتضح منها اعتماد هذه الأبواب على فكرة النظم . فلا تنكشف بلاغتها إلا على أساسها ، ففكرة النظم التى بسطها عبد القاهر فى الدلائل هى الفكرة نفسها فى الأسرار(١)وهذه الفكرة تقوم على الربط بين ألفاظ الأسلوب ومعانيه ، فالمعانى التى يؤديها الأسلوب ، وهى معانى النحو وأحكامه ، ينظر إليها عبد القاهر فى كتابه نظرة أساسية ويجعلها أساس كل خلق فى العمل الأدبى وهذه نظرة سائدة فى الكتابين معاً (٢) .

٤ — فليس هناك على الإطلاق أى اختلاف فى كلام عبد القاهر فى كتابيه ، وليس هناك اضطراب فى موقف عبد القاهر من البلاغة — ومن قضية اللفظ والمعنى .

— ٢ —

إن البلاغة عند عبد القاهر :

١ — لا ترجع إلى اللفظ وحده ، وفى ذلك يقول عبد القاهر فى أول كتابه « أسرار البلاغة » : أما رجوع الاستحسان إلى اللفظ ، من غير شرك من المعنى فيه ، فلا يكاد يعدو نمطاً واحداً ، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ، ولا يكون وحشياً غريباً ، أو عاميا سخيفاً(٣) . ويؤكد أن البلاغة ليست فى اللفظ بل فى النظم بما يقرره من أن الاختلاف فى فضيلة الكلام وبلاغته ليس بمجرد اللفظ بل بالنظم .

(١) راجع ١٨٥ البيان العربى للدكتور طبانة - طبعة ثالثة .
(٢) ص ٣ سطر ٦ — ٩ أسرار البلاغة ط ١٩٥٩ — تعليق محمد رشيد رضا .
(٣) ص ٢ سطر ٢ - ١٠ المرجع .

ويرد على من يحاول الاعتراض على عبد القاهر بالتجنيس ، فيقرر أن بلاغة التجنيس ليست باللفظ وحده ، بل لا تتم إلا بنصرة المعنى أى النظم .. وهذا هو مايقرره عبد القاهر من أن البلاغة إنما هى فى النظم لا فى اللفظة المفردة .

٢ — وكذلك لا ترجع البلاغة عند عبد القاهر إلى المعنى وحده فإن من الداء الدوى غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل من الاحتفال باللفظ . وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا مافضل عن المعنى، يقول : ما فى اللفظ لولا المعنى ، وهل الكلام إلا بمعناه ، فأنت تراه لا يقدم شعراً حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر ، فإن مال إلى اللفظ شيئاً لم يعرف غير الاستعارة ، وأن الأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق لأنا لا نرى متقدما فى علم البلاغة إلا وهو ينكر هذا الرأى ويعيبه (١) وليس ذلك فى رأى عبد القاهر ناشئاً عن الجهل بأن المعنى إذا كان أدباً أو حكمة أو كان غريباً نادراً ، كان أشرف من غيره ، ولكن لأن التقديم إذا كان على أساس المعنى ـ هذا ـ لم يكن للكلام من حيث هو شعر وكلام (٢) . وهذا نفس ما يقرره عبد القاهر فى الدلائل وفى أسرار البلاغة ، وما قرره الجاحظ من قبل من أن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى(٣).

٣ — وإنما ترجع البلاغة عند عبد القاهر إلى النظم باعتباره توخيا المعانى النحو فيما بين الكلم ، فالبلاغة تعود إلى معانى الأسلوب ، والنظم هو مظهر هذه البلاغة ، وهذه المعانى التى يفيض عبد القاهر فى شرحها وبيان أسرارها

---

(١) راجع ١٦٤ دلائل الإعجاز ـ المكتبة المحمودية .

(٢) ١٦٦ المرجع نفسه .

(٣) ٣ : ٤٠ و ٤١ الحيوان طبعة الساسى ـ القاهرة ١٣٢٣ ه .

في كل أسلوب وكل تصوير : وهو ما أشار إليه الجاحظ من قبل من أن الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ ، وجلس من التصوير .

— ٣ —

وهكذا نجد عبد القاهر فى الأسرار يؤكد نظريته التى ذهب إليها ، وهى أن البلاغة لاتعود إلى اللفظ بل إلى النظم من حيث هو مراعاة لمعانى النحو فيما بين الكلم ، ويؤكد هذه القضية فى كل مجال حتى فى باب الجناس والسجع «لا تجد تجنيساً مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه(١)، وكذلك لاشبهة فى أن المطابقة والاستعارة وسائر أقسام البديع لايعترضها الحسن والقبيح إلا من جهة المعانى خاصة(٢) ثم يفسر لنا عبد القاهر غرضه من كتابه (الأسرار) ، ويؤكد نظريته فى النظم ومعانى النحو .

وينتقل بعد ذلك إلى الكلام على على الاستعارة(٣)، ثم التشبيه والتمثيل(٤) ثم الفرق بين الاستعارة والتمثيل(٥) ويشرح الاستعارة التمثيلية (٦) ، ويتحدث عن الأخذ والسرقة (٧) ، ويبدأ بتقسيم المعانى إلى عقلية وتخييلية

---

(١) ص ٧ سطر ١ و ٢ أسرار البلاغة ط ١٩٥٩ .
(٢) ص ١٤ سطر ١ و ٢ « « « «
(٣) ٢٠ - ٦٤ المرجع .
(٤) ٦٤ - ١٩٢
(٥) ١٩٢ - ٢٠٧ «
(٦) ٢٠٧ - ٢١٠ «
(٧) ٢١١ المرجع وما بعدها .

ويتكلم عن كل قسم منها وصوره وألوانه (١) . . كما يتكلم على الأخذ والسرقة ، وعلى أقسام المعانى من عقلية وتخييلية ،وعن المجاز العقلى واللغوى والمجاز بالحذف . . وبذلك ينتهى الكتاب .

ويشرح لنا عبد القاهر سر ترتيب فصول الكتاب فيقول : اعلم أن الذى يوجبه ظاهر الأمر أن نبدأ بجملة من القول فى الحقيقة والمجاز ، ونتبع ذلك القول فى التشبيه والتمثيل ، ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما ، ونأتى بها فى أثرهما ، وذلك أن المجاز أعم من الاستعارة ، والواجب أن نبدأ بالعام قبل الخاص ، والتشبيه كالأصل فى الاستعارة ، وهى شبيهة بالفرع له . أو صورة تقتضيه من صوره ، إلا أن ههنا أموراً اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة وبيان صور منها ، والتنبيه على طريق الانقسام فيها ، حتى إذا عرف بعض ما يكشف عن حالها ، عطف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين ، فوفى حقوقهما ، وبين فروقهما ، ثم ننصرف إلى استقصاء القول فى الاستعارة(٢).

— ٤ —

وإذا كان عبد القاهر قد عرض للتشبيه والاستعارة والكناية فى الدلائل ، فإنما عرض لها لبيان ارتباطها بالنظم والمعنى ، بينما عرض لها فى الأسرار لمعرفة أقسامها والفروق بين بعضها وبعض ، ومعرفة القوى والضعيف من هذه الأقسام والأمر فى السرقة كذلك ، فقد عرض لها فى الدلائل لبيان أن اللفظ تابع للمعنى وأن المعنى يتغير بتغير الصور ، وفى الأسرار لبيان أنها إنما تكون فى المعانى خاصة .

---

(١) فالمعانى العقلية يتحدث عنها فى ٢١١ — ٢١٣ الأسرار ، والمعانى التخييلية كذلك (ص ٢١٤ وما بعدها) .

(٢) ١٩و٢٠ الأسرار ط ١٩٥٩ .

إن المعنى وحده ـ الغرض والفكرة ـ مشترك عام بين الناس جميعاً ، ولكنه ملك لمن يصوره ويثبته فى الأذهان ، فللناس أفكار واحدة بوجه التقريب ، ولكن الأسلوب هو الذى يفرق بين كاتب وكاتب كما يقول فولتير .

وإلى هذا يذهب النقاد ويقرر عبد القاهر خاصية الأسلوب ، وملكية كل أديب لأسلوبه ، وأن الأسلوب هو الذى يميز بين موهبة وموهبة ، وبين شاعر وشاعر ، وهذا الأسلوب ليس سرداً لالفاظ ، بل ترتيبا لمعانيها وفق ترتبها فى النفس ، فهو المقصود من كلام عبد القاهر على المعنى ، وأنه الذى يستحق أن تكون فيه المزية والفضيلة والاختصاص .

ففكرة عبد القاهر فى البلاغة أنها راجعة إلى النظم والاسلوب والصياغة والتصوير ، وأن هذا الاسلوب هو مجال الإبداع الفنى ، وموطن الخلق الادبى ، ففيه تتميز المواهب وتختلف الاذواق ، وتتباين المراتب والاقدار ، ومن ثم فقد شرح فى « الدلائل » هذه النظرية ، وبنى عليها تطبيقا واسعاً فى « أسرار البلاغة » لفنون التشبيه والتمثيل والمجاز والكناية وألوان المحسنات البديعية .

ومن ثم فإن «دلائل الإعجاز ربما يكون أسبق التأليف على الأرجح من أسرار البلاغة ، فدلائل الإعجاز يتضمن قضية وشرحها ، والاسرار يتضمن تطبيقاً واسعاً على بعض دعائم هذه القضية ، ولذلك نراه فى صدر الكتاب يوجز فى بيان هذه النظرية التى بسط الكلام فى الدلائل ، وهى نظريته فى النظم ، ثم يبنى عليها أحكامه الواسعة الجيدة التطبيق على الاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية والمجاز والأخذ والسرقة ، وضروب المعانى التحقيقية والتخييلية .

— ٥ —

على أن عبقرية العمل الادبي تظهر في أمرين :

١ — الشكل الذي يختاره الاديب مظهرا للحقيقة الجمالية .

٢ — الكلمة من حيث علاقاتها اللزومية المرتبطة بمعناها .

أما الشكل (النظم أو الصورة أو الصياغة أو الأسلوب) فقد درس عبد القاهر وجوهه البلاغية في كتابه «دلائل الإعجاز» دراسة مفصلة .

أما ما يتصل بالشكل وهو الكلمة من حيث دلالتها على معانيها اللزومية في المجاز والاستعارة والكناية ، وصلة ذلك بالتشبيه والتمثيل ، ومن حيث دلالتها كذلك على المعاني التحقيقية والتخييلية والعامية والخاصية ، إن ذلك كله وثيق الصلة بالخلق الأدبي من ناحية ، وبالنظم والصياغة من ناحية أخرى ، وهو ما بحثه عبد القاهر في «أسرار البلاغة» بحثا مصلا ، وجعله من المحاسن التي يكون النظم السبب فيها .

— ٦ —

وفي كتاب «أسرار البلاغة» تظهر بوضوح ملكة عبد القاهر الجرجاني كناقد من أعظم النقاد العرب ، الذين يدركون بأذواقهم أسرار الكلام ، ودقائق بلاغاته ، ويفرقون بمشاعرهم الفنية بين أسلوب وأسلوب ، ولفظة ولفظة ، وحرف وحرف . . ومع أن عبد القاهر قد استفاد من جهود النقاد العرب قبله فإنه كان ذروة لم يصل إليها أحد من قبله ولا من بعده ، وكان قوة تجديدية كبيرة في الأدب ونقده وفهم موازينه وإدراك أسرار بلاغاته على السواء .

وفي الأسرار أروع الفصول التحليلية في النقد ، والجديد المبتكر

من الدراسات لخصائص التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية ، وأعمق الآراء وأطرفها في الكثير من مشكلات البيان حتى عصر الجرجاني، ويمتاز كتاب الأسرار بربطه بين النقد والتأثير النفسي للنص الأدبي ، وبمحاولاته الجيدة في سبيل الكشف عن مدى هذا التأثير ، وأثره في بلاغة النص ، وكل ذلك مما جعل للكتاب أهمية كبيرة ، ومنزلة ضخمة في النقد الأدبي .

— ٢ —

ولقد كان النقاد قبل عبد القاهر الجرجاني يفصلون بين اللفظ والمعنى أو بين الشكل والمضمون ، أو بين الصورة والمحتوى ، ويتحدثون عنهما كعنصرين مستقلين تمام الاستقلال ، وجاء ابن رشيق صاحب العمدة، فحاول إيجاد صلة بين هذين العنصرين . فقال : اللفظ جسم وروحه المعنى ، وإذا كان لا يمكن الفصل بين الجسم والروح فكذلك لا يمكن الفصل بين اللفظ والمعنى ، إذ هما متلازمان ، وهذه هي كانت نظرة النقد اليوناني ، فقد أشار أرسطو إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وإلى وحدة العمل الأدبي ، وأن بين المعنى واللفظ تلازماً دقيقاً ، وعند الفلاسفة الجماليين الغربيين المحدثين كذلك أن الفصل بين الصورة والمضمون غير ممكن في فهم الجمال الفني وتذوقه والحكم عليه ، فهما وجها النموذج الأدبي فليس هناك مضمون وصورة ، بل هما شيء واحد ، فلا فارق بين المعنى واللفظ في أي نموذج أدبي ، إلا إذا جعلنا المعنى هو الأحاسيس الأولى عند الأديب قبل أن تستوى في الصورة الأدبية ، وهذه لا شأن لنا بها ، إنما الشأن في المعاني التي يحتويها النموذج الأدبي ، وهي لا توجد قبل وجوده إلا وجوداً غامضاً ، إنما يتم وجودها حين تصاغ ، وحين تأخذ شكل قالبها المعين ، وتبرز واضحة فية بكل خصائصها الفكرية واللفظية، فمادة النموذج الأدبي وصورته لا تفترقان ، فهما كل واحد . . وكان عبد القاهر الجرجاني من أعظم النقاد العرب الذين اهتدوا إلى هذه العلاقات بين الألفاظ

والمعانى فى الأدب ، وسماها النظم ، وعرفه بأنه تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض ، وفند رأى من يجعل مدار البلاغة على اللفظ أو على المعنى ، ورأى أنها إنما هى فى العلاقة بين الألفاظ فى العبارات وبين المعانى ، وأكد أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها فى النطق . بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل ، وهو ما اهتدى إليه فيما بعد أعلام الفلسفة الجمالية مسترشدة بمثل بحوث عبد القاهر الرائدة فى الجمال الأدبى وسره وتحليله ، وبينما تجد أن الكلاسيكيين يرفعون من شأن الصورة أو الشكل ، والرومانسيين يهتمون بالمعنى ويقدمونه على اللفظ ، ودعاة مذهب الفن للفن يحررون النص الأدبى من كل قيود المضمون والمحتوى ، مادام النص يغذى حاسة الجمال فينا ، ودعاة الرمزية يهتمون اهتماما خاصاً بما توحيه الصورة والألفاظ من رموز ومجازات عن طريق موسيقاها وأصواتها ، ودعاة الواقعية يعودون للاهتمام بالمضمون فى النص الأدبى وإن كانوا لا يجردون الشكل من الجمال الفنى(١)، فإن فلسفة الجماليين تبرز دائماً هذه الصفات النقدية صورة للمشاعر الفنية التى تؤكد وحدة العمل الأدبى، وتربط بين مضامينه وأشكاله برباط وثيق من الوحدة والالتحام ، وفلسفة عبد القاهر اللغوية واضحة كل الوضوح فى أنها ذات قيم جمالية معبرة فلا فارق بين المعنى والصورة عنده فى النص الأدبى ، واللفظ يستمد بلاغته من أنه ظل للمعنى والمعنى يستمد مزيته من حيث إنه المادة التى يصوغها اللفظ .

وهكذا يصح لنا أن نقول : إن عبد القاهر كان مقدمة رائعة للفلسفة الجمالية كما صورها دعاتها فى أوربا بعد عبد القاهر بقرون كثيرة .

وإذا كان الناقد الإيطالى المشهور كروتشيه (-١٩٥٢) يعتد بالشكل الأدبى ويرى أن الحقيقة الجمالية إنما هى فيه ، لا فى المضمون، ولا قيمة عنده للفظ

---

(١) راجع فى هذا ١٦٢ - ٢٩٦ فى النقد الأدبى لشوقى ضيف .

المفرد ، فإن فلسفته الجمالية تكاد تكون مأخوذة من عبد القاهر الجرجانى ، ومقتبسة منه ، فالشكل(١) عنده هو النظم عند عبدالقاهر ، وهما معا يجمعان بين اللفظ والمعنى فى الأسلوب ، ويتفق الناقدان الكبيران فى الاعتداد بالشكل أو النظم وحده فى الحقيقة الجمالية ، وهكذا تتجلى لنا عظمة ناقدنا العربى الكبير ، الذى كانت فلسفته الجمالية قمة عالية وصل إليها النقد الأدبى .

— ٨ —

فالغاية الأولى التى يقصدها عبد القاهر من الأسرار هى تحقيق أمر المعانى(٢) ، وأن ضروب البيان ترجع إلى ائتلاف المعنى أكثر مما ترجع إلى سحر اللفظ ، وأن المعنى هو الذى يتطلب كل شىء ، وأن المعانى قسمان معان عقلية ومعانى تخييلية ، فالمعانى العقلية قد تكون حقيقة ، وقد تكون مجازاً واستعارة وتشبيهاً وتمثيلا ومجازاً عقلياً أو لغوياً ، وأما المعانى التخييلية فلها ضروب شتى وأنواع ساحرة .

ثم المعانى خاصية وعامية ، والعامية قد تصير بالتحوير والصياغة خاصية ، والمعانى الخاصية هى التى يحكم فيها بالسرقة دون العامية .

---

(١) يحدد كروتشيه المضمون بأنه الأحاسيس أو الناحية الانفعالية قبل صقلها صقلا جماليا ، أما الشكل عنده فهو صقلها وإبرازها فى تعبير عن طريق النشاط الفكرى ، ولا قيمة عنده فى الشكل للكلمات المفردة ، من حيث هى مادة للتعبير ، ولا من حيث الجرس والصوت منفصلين من المعنى والصورة . ومن الجماليين من يجعل المضمون هو التعبير أو الحقيقة النفسية المتجلية فى التعبير ، ويقصد بالشكل المادة الغفل للتصوير الفنى كالالوان للتصوير مثلا ، وهذا عكس ما ذهب إليه كروتشيه الذى ذهب إلى أن البلاغة فى الشكل والجمالية فيه ، كما هو رأى عبد القاهر ، فالشكل أو النظم لا فصل بينهما عند الناقدين العالميين ، أى بين اللفظ والمعنى على ما قررناه .

(٢) ١٩ أسرار البلاغة .

— ٩ —

وخلاصة بحوث « أسرار البلاغة » هى بيان ما يأتى :

(ا) يذكر فضيلة البيان وألوانه الساحرة ، وأن سحر الكلام فى حسن نظمه وتأليفه (١) :

وقد أوضح عبد القاهر إثر ذلك غايته وفكرته التى يريد إيضاحها فى كتابه ، وهى بيان أمر المعانى وأحوالها وتفصيل أجناسها وأنواعها(٢) .

(ب) وتكلم على الاستعارة وأقسامها وألوانها فى إفاضة(٣) .

(جـ) وذكر التشبيه والتمثيل ومظاهرهما وحقيقتهما وبلاغتها وأقسامهما فى إفاضة ودقة وتحليل(٤) .

وعقد موازنات جيدة بين التشبيه والتمثيل(٥) . وذكر أسلوب التجريد ومنع أن يكون استعارة أو تشبيهاً(٦) .

ثم فرق بين الاستعارة والتمثيل فى إفاضة(٧) . وفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ(٨) .

---

(١) ١٠ - ١٨ الأسرار .
(٢) ١٩ - ٢٠ المرجع .
(٣) ٢٢ - ٧٠ « .
(٤) ٧٠ - ١٧٦ « .
(٥) ١٧٧ - ٢٠٦ « .
(٦) ٢٩١ ، ٢٩٢ « .
(٧) ٢٠٧ - ٢٣٣ « .
(٨) ٢٧٧ - ٢٩٠ « .

(د) ثم تكلم عن المعانى العقلية والتخييلية وألوانها وبلاغة كل منهما ، وآثر جانب الحقيقة على جانب الخيال وذكر أنه أعز جانباً وأكثر اتساعاً مما يظنون ، وحلل معنى قولهم : أعذب الشعر أكذبه ، وأنهم إنما أرادوا به التدقيق فى المعانى والتعمق فيها ، لا وصف الوضيع بأوصاف العظيم وما شاكله .

كما تكلم على الأخذ والسرقة والاستعانة(١) .

(ه) وأفاض فى شرح حدى المجاز والحقيقة ، وفى الكلام على المجاز العقلى وحقيقته(٢) ، وتكلم على أنواع من المجاز اللغوى والمجاز بالحذف ، وعلى بعض جوانب الاستعارة . . . وبذلك ينتهى الكتاب .

ولقد أساء عبد القاهر عرض أفكاره فى كتابه الأسرار وكذلك فى الدلائل ، فخرج تأليفه مشوها مضطرباً معادا مكروراً .

ولذلك نجد البحث الواحد قد يكرره فى الكتاب ، وقد يذكر بعضه فى كتاب ويكمله فى كتاب آخر :

فالتجنيس والسجع مثلا بحثهما عبد القاهر فى الأسرار(٣) وفى الدلائل(٤) .

والتعقيد اللفظى تجده مفرقاً فى الأسرار(٥) .

---

(١) ٢٦٣ - ٣٠٢ المرجع .
(٢) ٣٠٢ - ٣٤٢ المرجع .
(٣) ٤ - ١٤ الأسرار .
(٤) ص ٤٠ الدلائل .
(٥) ١٥ و ١٢٠ الأسرار .

والاستعارة فى مواضع متعددة من الأسرار والدلائل . . . وكذلك التشبيه والتمثيل .

والاتفاق والأخذ والسرقة عرض لها عبد القاهر فى الأسرار(١) وفى الدلائل(٢) .

والمجاز العقلى واللغوى أفاض فى الحديث عنهما فى الأسرار والدلائل وذكر بلاغة المجاز الحكمى فى الدلائل(٣) .

وتكلم على الكناية فى الصفة وفى الإثبات(٤) فى مواضع عدة .

وذكر الشعر وأثره وسحره موزعا فى الكتابين . . إلى آخر هذه البحوث الموزعة المفرقة .

وعبد القاهر عالم لامؤلف ، وحسبك أن كتابه الدلائل صورة مشوهة للتأليف ، فهو لا يعرف أن يكتب الفكرة فى صفحات مستقلة وإنما هو يبدىء ويعيد ، ويأتى من هاهنا وهاهنا ، ويكرر ويكثر التكرير حتى يخرج إلى الهذر ، ويذكر جزءاً من الفكرة هنا وجزءها الآخر هناك ، وكذلك كان صنيعه فى « الأسرار » ، وحسبك أنه بدأ الكلام على الاستعارة وبنى الكلام على فرع لم يذكر أصله (وهو التشبيه) فأداه ذلك إلى التكرار والإحالة .

وقصارى القول أن عبد القاهر قد بحث فى أسرار البلاغة المعانى

---

(١) ٢٩٣ - ٣٠٢ الأسرار .

(٢) ٢٦٩ - ٢٧٢ ، ٣٧٤ - ٣٩١ الدلائل .

(٣) ٢٢٧ - ٢٣٦ الدلائل .

(٤) ١٣٥ - ٢٤٢ و ٣٤٣ الدلائل .

ووجوهها ، وكيف تتفق وتختلف ، ومن أين تجتمع وتفترق ، وتتبع خاصيها ومشاعها ، وفصل أجناسها وأنواعها[١] ، وخص كثيراً من كتابه ببحث المجاز والاستعارة والتمثيل والتشبيه والتخييل لأنها صور المعانى ولأنها القطب الذى تدور حوله البلاغة[٢] .

وألف كتابه « دلائل الإعجاز » وأثبت فيه أن المزية والوصف الذى كان به الإعجاز هو للفصاحة والبلاغة والبيان ، وأن هذه المزية والفصاحة ليست إلا حسن الدلالة وتمامها وتبرجها فى صورة رائعة من النظم . أوهى أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذى هو أخص به[٣] ، وأنه لا مزية للعبارة على الأخرى إلا بقوة دلالتها على الغرض المقصود ، وذلك راجع إلى النظم[٤] ، ولا مزية فى اللفظة المفردة إلا من جهة ضئيلة[٥] ، وأن الفصاحة والبلاغة راجعة إلى المعانى وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ نفسها[٦] ، فالألفاظ تبع للمعانى لا العكس[٧] ، والفصاحة صفة للفظ من حيث إنه دال على المعنى[٨] ، وليس النظم إلا توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم[٩] ، فالنظم فى معانى الكلم

---

(١) ص ١٩ الأسرار

(٢) ٤٩٩ الدلائل

(٣) ٣٥ «

(٤) ١٩٩ المرجع

(٥) ٣٥ و ٣٦ و ٤٦ و ٤٠١ و ٥٠ و ٣٥٣ المرجع

(٦) ١٩١ و ٣١٨ و ٣٩٨ المرجع

(٧) ٤٥ و ٢٨٥ و ٣٢٠ «

(٨) ٢٥٠ الدلائل

(٩) ٣٠٠ و ٤٠٣ الدلائل ، ص ١ من المدخل للدلائل ، ٦٤ و ٦٨ الدلائل

دون ألفاظها بتوخى معانى النحو فيها(١) ، ومداره على معانى النحو ووجوهه وفروقه(٢) ، وليس للمزية موضع تكون فيه إلا معانى النحو وأحكامه(٣) .

ورد على من جعل الألفاظ من حيث هى ألفاظ موضع الفصاحة والبيان وكشف شبههم(٤) ، كما نعى على من أغفل النظم ، وأخذ يبحث عن المعنى وحده بدون التفات إلى الصورة التى خرج فيها والنظم الذى ظهر به(٥) ، فهو يعيب على من يخص بالمزية الألفاظ من حيث هى ألفاظ ، ومن حيث هى كلم مفردة ، ويعيب على من ينظر الى المعنى من حيث هو معنى بدون التفات الى صورته .

ويجعل البلاغة والبيان والفصاحة راجعة الى النظم الذى هو ألفاظ منظومة اقتفى فى نظمها آثار المعانى وخرجت وفق أحكام النحو ومعانيه ووجوهه .

ولعبد القاهر آراء وأحكام أدبية متعددة على الأدباء والشعراء . فى الأسرار :

(أ) فقد ذكر أبا تمام واستكراهه للألفاظ فى سبيل طلب التجنيس(٦) وأشار الى تعسفه فى اللفظ والى أخطائه مما جناه عليه التهاون ، وعدم

---

(١) ٣١٧ الدلائل
(٢) ٦٩ «
(٣) ص ٣٠١ «
(٤) ٢٨٨ و ٣٠١ و ٢٤٨ المرجع
(٥) ١٩٤ و ١٩٨ «
(٦) ١١ الأسرار .

مبالاته فى كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين اللفظ(١) .

(ب) وذكر البحترى وتقريبه المعنى البعيد بالتسهيل فى الأسلوب(٢) .

(ج) وذكر ابن المعتز وأن طريقه طريق أبى تمام وأنه لم يكن من المطبوعين(٣) .

— ١٠ —

هذا هو جوهر كتاب أسرار البلاغة .. غير أن لى نقداً عليه فى جعله الاستعارة من المعانى التحقيقية دون التخييلية ، وإنى أرى أنها تخييل لا تحقيق :

قال عبد القاهر : إن الاستعارة ليست من باب التخييل .. إنما هى من باب التحقيق :

(ا) لأن المستعير لا يقصد إثبات معنى اللفظة المستعارة وإنما يقصد إثبات شبه هناك .

(ب) ووجودها فى القرآن والحديث يؤيد ذلك .

(ج) ثم هى تعتمد التشبيه والتشبيه قياس والقياس يجرى فى المنقول(٤) .

(د) وفرق بين التخييل الذى هو إثبات أمر غير ثابت أصلا وبين الاستعارة التى يثبت بها أمر عقلى صحيح(٥) .

---

(١) ١٢٠ و ١٢١ الأسرار .
(٢) ١٢٤ »
(٣) ٢٦٢ »
(٤) ٤١ و ٢٣٧ »
(٥) ٢٣٨ و ٢٣٩ المرجع .

(ﻫ) وآراء علماء النقد كالآمدى والجرجانى وسواهما تؤيد ذلك(١) .

وأقول إن : الاستعارة لا تعتمد التشبيه أبداً وإنما هى مبنية على جعل حقيقة حقيقة أخرى على سبيل المبالغة(٢) .

ودليلنا على ذلك ما يأتى :

(ا) أن نوعاً من الاستعارة وهو العنادية لا تشبيه فيه (٣) .

(ب) الاستعاره مبنية على التخييل لا على الحقيقة ، والتخييل لا يعتمد التشبيه .

(ج) قالوا : إن هناك استعارة شديدة التخييل يتناسى فيها المستعير التشبيه . ويصرف النفس عن مذهبه ، مثل :

ويصعد حتى يظن الجهول   بأن له حاجة فى السماء(٤)

(د) فى الاستعارة الصحيحة ما لا يحسن دخول أدوات التشبيه فيها(٥) وذلك كالنور إذا استعير للعلم والظلمة للجهل مثلا ، وكلما كان الشبه بين الشيئين أخفى وأدق وأغمض وأبعد من العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن .

(ﻫ) على أن الاستعارة فى الادعاء لا فى النقل(٦) .

---

(١) ٣٤٦ المرجع .

(٢) ٢٧٨ »

(٣) ٦٣ »

(٤) ٢٦٢ - ٢٧٧ الأسرار .

(٥) ٢٨٨ و ٢٨٩ المرجع .

(٦) ٣٥٤ الأسرار ، ٢٨ الدلائل .

وقد تكلم عبد القاهر فى الأسرار عن الاستعارة المكنية وحلل أساليبها . وهى عندى استعارة تمثيلية حذف بعض أجزائها بدليل ما يأتى :

(ا) أن المشبه فيها لا يمكن أن يكون ذاتاً أو شبه ذات ينص عليه ويشار إليه .

(ب) وأن المشبه به فى مثل يد الشمال ليس هو اليد التى ذكرها لبيد فى بيته بل هو ما أضيف إليه اليد(١).

(ج) ويظهر روح التمثيل فى بعض أمثلتها بوضوح وجلاء ، وفى البعض الآخر تدق فيها فكرة التمثيل .

— ١١ —

هذا وقد تأثر عبد القاهر فى كتابيه الأسرار والدلائل بكثير من علماء البلاغة والبيان قبله :

١ — فقد أفاد من المبرد ودراساته فى الكامل كثيراً ، واقتبس منه آراء فى البلاغة(٢) ، كما أخذ عنه شواهد كثيرة ، واستدل بآرائه فى الدلائل .

٢ — وفكرة قرب الشبه فى الاستعارة موجودة فى نقد الشعر لقدامة أخذها عن القدماء ، وسار عليها العسكرى والآمدى وصاحب الوساطة ، وتبعهم عبد القاهر فى الأسرار والدلائل .

وقد أورد عبد القاهر رأى قدامة فى أن « أعذب الشعر أكذبه » ثم حلله وشرحه (٣) .

وعرف عبد القاهر الكناية بنفس تعريف قدامة (٤) .

٣ —ويظهر فى الأسرار والدلائل أثر بلاغة أرسطو المترجمة فى كتابى الخطابة

(١) ٣٤ - ٣٦ الأسرار . (٢) ٤٥ و ٣١٠ الأسرار .

(٣) ٢٤٥و٢١٦ الأسرار،٣٧نقد الشعر . (٤) ص ٥٢، ٩٢، ٩٣ الدلائل

والشعر الذين ترجمها ابن سينا فى الشفاء وترجمها غيره ، وقد اقتبس عبد القاهر من هذه الترجمات وتأثر بها :

(ا) فقد أخذ منهـا ما كتب في بلاغة التجنيس ، من أنه وقد أعاد اللفظة يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها(١) .

(ب) وأخذ فكرة أن الاستعارة قد تكون استعارة من التشبيه وقد تكون من الضد(٢) .

(جـ) وبناء الشعر على التخييل الذى بسطه عبد القاهر نظرية لأرسطو فى كتابه الشعر(٣) .

(د) وقرب الشبه فى الاستعارة أول من تكلم عنه أرسطو فى كتاب الخطابة ، وقد بسط عبد القاهر الكلام فيه ، كما تكلم عليه قبله الكثيرون(٤) .

٤ — وللآمدى أثر فيما كتبه عبد القاهر :

فقد نقل عبد القاهر كلمة للآمدى فى بيتين للطائيين ، واستدل بهـا فى أسرار البلاغة(٥) على ما أراد ، ثم نقدها فى دلائل الإعجاز(٦) ، وكذلك نقل كلمة عن معنى الاستعارة عند الآمدى(٧) .

---

(١) ص ٥ ، ١٢ ، ١٤ الأسرار ، وراجع ذلك فى فن الخطابة فى كتاب الشفاء لابن سينا ـ مخطوط .

(٢) ص ٦٨ الأسرار . (٣) ص ٣٢٥ الأسرار ، وفن الشعر فى الشفاء .

(٤) فن الخطابة فى الشفاء ، ١٠٥ ، ١٠٦ نقد الشعر ، ١١٤ الموازنة ، ٤٣ ، ٢٢٤ الوساطة طبع بيروت ، ١/٢٤٠ العمدة ، ١١٣ وما بعـدها سر الفصاحة ، ٢١٢ أسرار البلاغة .

(٥) ص ٣٥٩ الأسرار (٦) ص ٤٢٥ (٧) ص ٣٤٩ الأسرار

ونهج عبد القاهر نهج الآمدى فى تعليقه على كثير من الأبيات فى الاستعارة كأبيات لبيد وزهير وأبى ذؤيب فى الاستعارة المكنية وسواهم .

ويخص عبد القاهر النظم بمزية البلاغة ، كما ذهب إليه الآمدى ومن قبله الجاحظ [1] .

٥ ـــ عبد القاهر والقاضى الجرجانى :

نشأ الرجلان فى جرجان ، وعاش أولهما فى القرن الرابع (توفى سنة ٣٩٢ هـ) ، والثانى فى القرن الخامس (توفى عام ٤٧١) وكانت نشأة عبد القاهر فى جرجان موطن القاضى الجرجانى ، وتأثره ببيئاتها ، وتثقفه على أساتذتها وقراءته فى مؤلفات علمائها ، واتجاهه إلى الثقافة الدينية والأدبية التى اتجه إليها القاضى ، وتأثره بها ، واستمداده من معينها ،

ويتجلى أثر الوساطة بوضوح فى كتابى عبد القاهر : الدلائل والأسرار ، فكثيراً مايقتبس من آرائها . أو يأخذها قضية مسلمة يبنى عليها ويستدل بها :

فكلام عبد القاهر فى المعانى ، وزيادة شاعر على آخر فيها [2] ، وكذلك حديثه عن السرقة ومظاهرها ومانقع فيه من المعانى ، إلى غير ذلك مما نراه فى الدلائل [3] وفى الأسرار [4] ، كل ذلك قد تأثر فيه عبد القاهر بالقاضى ... والاتفاق فى الغرض وعموم الدلالة لا يعد سرقة عند عبد القاهر [5] وقد أفاض فى ذلك من قبل القاضى الجرجانى ، وعاب ابن يموت فى رميه أبا نواس بالسرقة فيما اتفق فيه هو وغيره فى عموم الدلالة .

---

(١) ١/٧٦ البيان ، ١٨١ الموازنة ، ١٩ الأسرار ، ومواضع فى الدلائل .
(٢) ٢٧٤ الدلائل طبع المنار . (٣) ١٩٠ المرجع .
(٤) ٢٩٣ - ٣٠٢ الأسرار . (٥) ٢٩٤ الأسرار .

والاستعارة وتقريب الشبه فيها فكرة ذكرها عبد القاهر(١) كما ذكرها الجرجانى ، وفى الحق أن قدامة قد ألم بها فى نقد الشعر(٢) متأثراً بخطابة أرسطو فيها(٣)... ونقل عبد القاهر نفس تعريف القاضى للاستعارة(٤) مما تراه فى الوساطة(٥) .

ونقل عنه عبد القاهر نقده لبيت ابن المعتز :

بياض فى جوانبـــه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

وسلمه له .

وأثر التعقيد اللفظى فى النفس أفاض فى الحديث عنه القاضى ، وكتب فيه عبد القاهر متأثراً كل التأثر به(٦) . وقد سبقهما الجاحظ إلى الحديث عنه فى بيانه(٧) ، وألم به الآمدى إلماماً فى موازنته ... ورأى عبد القاهر فى أبى تمام والنعى عليه لإغرابه(٨) هو رأى القاضى ، وكذلك رأيه فى البحترى والإشادة بطبعه(٩) ، وعلى العموم فتأثر عبد القاهر فيما كتبه عن التعقيد(١٠) بما كتبه القاضى من قبل عنه فى وساطته واضح بين .

واستدل عبد القاهر على أن أسلوب زيد الأسد الأرجح فيه أن يكون تشبيها برأى القاضى(١١) .

---

(١) ١٢١ ، ٢١٦ ، ٢٨٩ الأسرار . (٢) ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣) المقالة الرابعة من الفن الثامن من الشفاء .

(٤) ص٣٣٣ دلائل ، ٣٤٦ الأسرار . (٥) ص٣٢ طبعة صبيح .

(٦) ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ الأسرار .

(٧) ص ١٠٤ ج ١ ، ٢٠ ج ٢ ومواضع أخرى من البيان والتبيين .

(٨) ص ١٢١ الأسرار . (٩) ص ١٢٤ الأسرار .

(١٠) ص ١١٨ - ١٣٥ الأسرار .

(١١) ٢٩٠ الدلائل ، ٦٤ الوساطة .

كما ينقل عنه فى مواضع كثيرة أخرى فى كتابيه الأسرار والدلائل :

نقل عنه أن بيت أبى نواس : « خليت والحسن تأخذه الخ » مأخوذ من بيت بشار :

خلقت على ما فى غير مخير هواى ولو خيرت كنت المهذبا(١)

وتكلم القاضى عن سر القطع فى بيت المتنبى : « جللا كما بى فليك التبريح الخ(٢) » ، ولعل عبد القاهر سار على طريقته فى بيان بعض أسرار الفصل . وباب الفصل والوصل أصل تسميته موجود فى كتاب الجاحظ حيث يقول : البلاغة عند الفارسى هى معرفة الفصل من الوصل(٣) ، وقد نقل عبد القاهر هذه الكلمة فى الدلائل(٤) .

٦ — وقد تأثر عبد القاهر بصاحب الصناعتين أبى هلال العسكرى :

فقد نقل عنه كلمته التى ذكر فيها مناقشة البحترى لابن الرومى فى بيت أبى نواس(٥) :

ولم أدر من هم غير ما شهدت لهم
بشرقى ساباط الديار البسابس

وأنه مأخوذ من بيت لأبى خراش الهذلى . . . ونقل عنه كثيراً غير ذلك .

---

(١) ٢٧٩ الأسرار ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ الوساطة .
(٢) ٣٣٤ الوساطة - طبع بيروت .
(٣) ١/٧٥ البيان .
(٤) ص ٥٠ .
(٥) ص ٣٦١ الدلائل .

ونقد رأى أبى أحمد العسكرى - وهو من أسرة صاحب الصناعتين - فى تسميته التمثيل بالمماثلة(١) .

بين عبد القاهر وعلماء النحو :

(ا) نقل عبد القاهر كثيراً عن سيبويه :

١ — فقد نقل عنه سر بلاغة التقديم (٢) .

٢ — وأن تقديم الإسم فى مثل محمد قام يفيد التنبيه(٣) .

٣ — ونقل بعض شواهد من الكتاب لسيبويه فى باب الحذف(٤) .

٤ — واستدل بكلام سيبويه على أن إنما تجىء لخبر لا يجهله المخاطب(٥) .

وسوى ذلك مما تأثر عبد القاهر فيه بآراء سيبويه فى النظم وروعته .

(ب) وقد نقل عبد القاهر عن أبى على الفارسى كثيراً مثل :

١ — أن إنما بمعنى ما وإلا(٦) .

٢ — وأن مثل « كراى كرا كا » يجعل الأول خبراً(٧) .

---

(١) ص ٩٠ الأسرار .

(٢) ص ٨٤ الدلائل .

(٣) ص ١٠١ « .

(٤) ص ١١٢ « .

(٥) ص ٢٢٧ « .

(٦) ص ٢٥٢ « .

(٧) ص ٢٨٥ « .

(ج) وتأثر عبد القاهر بالسيرافى فى دفاعه ضد الرأى القائل بأنه لا جدوى فى التوسع فى دراسة علوم العربية، ومناقشة السيرافى لمتى[١] فى ذلك مشهورة.

وعلى العموم فقد أفاد عبد القاهر من سيبويه فى دراسته لخصائص النظم، وهذا ما حدا بالشيخ أحمد المراغى إلى عد سيبويه أول واضع لعلوم البلاغة.

بين عبد القاهر ونقاد آخرين:

(أ) ونقل عبد القاهر عن المرزبانى صاحب الموشح[٢] أمثلة أخذ فيها الشاعر معنى من آخر وصاغه صياغة حسنة فاستبد به.

وروى عنه شعراً لطفيل تمثل به أبو بكر[٣].

ونقل عنه كلمة أبى نواس فى بيته «تتأيى الطير غدوته»، وسبق النابغة إلى هذا المعنى[٤].

ونقل عنه جملة فى تمثل ابن الخطاب بالشعر[٥].

(ب) ونقل عبد القاهر عن ابن قتيبة كلمة له بدون أن يشير إليه[٦].

---

(١) الامتاع والمؤانسة للتوحيدى، معجم الأدباء ج ٨ فى ترجمة السيرافى، ٢٢٥ - ٢٢٧ الأسرار.

(٢) ٢٧٠، ٢٧١ الدلائل

(٣) ١٢٢ «

(٤) ٣٨٤ «

(٥) ١٠، ١١ «

(٦) ٢٧٩ «

وهى أن « من الشعر ما حسن لفظه ومعناه ، ومنه ما حسن لفظه فقط ، أو معناه فقط » ، وهى فى مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

بين عبد القاهر والجاحظ :

تأثر عبد القاهر بالجاحظ كثيراً جداً فى كتابيه الأسرار والدلائل :

١ — فما كتبه عبد القاهر عن البيان يتجلى فيه روح الجاحظ(١) .

٢ — وذكر أخذاً من الجاحظ أنواع الدلالات على المعانى من الإشارة والخط والعقد واللفظ (٢) .

٣ — وفضيلة الكلام لنظمه لا للفظه(٣) هو روح كلام الجاحظ(٤) .

٤ — ولا يقبل من السجع إلا ما طلبه المعنى والطبع بدون تكلف واستكراه ، وهى فكرة استمدها عبد القاهر من الجاحظ(٥) .

٥ — وجمال اللفظ ومزيته فى أن يكون مألوفاً متداولا ليس وحشيا ولا سوقياً ، هذا الكلام هو روح كلام الجاحظ (٦) .

٦ — ويحمد « من الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى

---

(١) ٦٨ ، ٦٩ الأسرار ، ٤ الدلائل و ٦٨ ، ٦٩ ج ١ البيان والتبيين .

(٢) ٥ الدلائل ، ٦٩ / ١ .

(٣) ٢ الأسرار ومواضع كثيرة من الدلائل .

(٤) ٧٣ ، ٦٩ ج ٣ البيان .

(٥) ٧ - ١٠ الأسرار ، ١٩٣ - ١٩٥ ج ١ البيان والتبيين .

(٦) ١٢ ، ١١٠ / ١ البيان و ٢ ، ٣ الأسرار ، ٣٥٣ ، ٣٩٨ الدلائل .

سمعك[١] ، وهو كلام الجاحظ ، أخذه عبد القاهر عنه .

٧ — وتعريف عبد القاهر للبلاغة [٢] ، هو روح كلام الجاحظ[٣] .

٨ — ونقل مقدمة الجاحظ للحيوان « جنبك الله الشبهة الخ[٤] » .

ونقل عنه كلمة فى إعجاز القرآن[٥] ، وكلمة فى اختيار رواة الأخبار للبليغ من الكلام [٦] ، ونقل عنه كلمة فى أن التصريح أبلغ فى النفس[٧] ، ونقل عنه رأيه فى النعى على من يقدم الشعر لمعناه[٨] .

ونقل عنه كلمة « من أضر ما يقال : لم يدع الأول للآخر شيئاً[٩] » .

ونقل عنه كلامه عن المتقعرين[١٠] ، ورسالة الجاحظ إلى ابن الزيات [١١] .

بل إن كثيراً من مثل عبد القاهر وشواهده مأخوذة من البيان والتبيين ، وذلك ظاهر جلى لا داعى لذكره .

---

(١) ١٢٢ الأسرار ، ٩١ ، ٨٩ / ١ البيان .
(٢) ٢٥ الدلائل .
(٣) ٧١ و ١٠٥ / ١ البيان .
(٤) ٧٦ الدلائل ، ٧ الأسرار .
(٥) ١٩٤ ، ٣٩٨ الدلائل .
(٦) ١٩٤ الدلائل ، ٢٢٤ / ٣ البيان .
(٧) ١٢٨ ، ١٣٠ الدلائل ، ٩٢ / ١ البيان .
(٨) الحيوان ٧ : ٢ ، ٣٦٨ الدلائل .
(٩) ٢٢٦ الدلائل .
(١٠) ٣٠٥ الدلائل ، ٢٤٠ / ١ البيان .
(١١) ٣٩١ الدلائل .

بين عبد القاهر وابن سنان الخفاجى :

عاصر ابن سنان الخفاجى (- ٤٦٦ﻫ) شيخ البلاغة والبيان عبد القاهر الجرجانى (- ٤٧١ ﻫ) ، كما عاصر ابن رشيق صاحب العمدة (المتوفى سنة ٤٥٦ ﻫ) .

ويغلب على ظنى أن بعد مواطن هذه الشخصيات الفذة عن بعض كان سبباً فى عدم تأثر كل شخصية منها بالأخرى فى تفكيرها فى النقد وأحكام البلاغة .

فعبد القاهر عاش فى جرجان ، والخفاجى فى حلب ، وابن رشيق فى القيروان . وألف الأول أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، من حيث ألف الثانى كتابه « سر الفصاحة » ، وألف الثالث كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » .

٧ — فأما الصلة الباقية بين ابن رشيق وابن سنان فمصدرها اعتماد الرجلين فى تآليفهما على مصدر واحد له أهميته وهو نقد الشعر ، فكان كتاب العمدة وكان كتاب سر الفصاحة تجديداً يسير حول منهج قدامة فى النقد .

والآن لا تتجلى صلة واضحة بين الخفاجى والجرجانى ولا يظهر أى أثر للشبه او التأثر بين الرجلين ، اللهم إلا فى مواضع قليلة :

فقد ذكر ابن سنان — كما ذكر عبد القاهر — شبهة الذين زعموا أن الحكاية هى المحكى ، ودليلهم عليها أن الحكاية لو كانت غير المحكى بل مثله لكان من قرأ القرآن آتياً بمثله على الحقيقة ، وأجاب الخفاجى عن هذه الشبهة كما أجاب عبد القاهر فى دلائله بأن التحدى إنما وقع بفعل مثل القرآن على الابتداء دون الاحتذاء ، والتالى للقرآن قد أتى بمثله محتذياً . فلا يكون بذلك معارضاً ، وعلى هذا أيضاً كان يقع التحدى بين العرب بالشعر على سبيل الابتداء (١).

(١) سر الفصاحة ، والدلائل ص ٢٧٠ .

ورأى أن ذلك مصدره هو التشابه بين الثقافة العامة فى عصر الرجلين لا غير .

وعلى ذلك فلم يتأثر الخفاجى بالجرجانى ولم يتأثر الجرجانى بالخفاجى ، ولو أن الرجلين اطلع أحدهما على مجهود الآخر فى دراسة البلاغة لكان لذلك أثره الخطير فى تحويل مناهج البحث البلاغى .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن مؤلف الخفاجى أعمق تفكيراً وأشمل فكرة وأوسع مدى وأبلغ بياناً من كتابى الجرجانى : الأسرار والدلائل .

ويذهب باحث إلى خلاف هذا الرأى فيقول فى ذلك ما نصه(١) :

وبعد فإنه لم يكن التأليف فى البلاغة قبل عبدالقاهر قد استقل بالأبحاث البلاغية وتخلص مما يشوبه من مواضع أخرى أدبية أو نحوية أو غير ذلك ، فكنت تجد الكتاب يحوى مسائل ليست من صميم العلم فى شىء ، وتجده غير منظم التنظيم الذى استحدث فيما بعد ، وكتاب سر الفصاحة من هذا النوع ، يذكر مسائل من صميم المعانى فيما هو من مباحث البيان ، ويقحم المسائل البديعية فى غيرها مما هى من موضوع البيان والمعانى ، ويضيف إلى ذلك نقولا أدبية ، وبحوثاً هى إلى الأدب أقرب منها إلى غيره ، فتراه يتكلم عن المفاضلة بين شعر المتقدمين والمحدثين ، ويوازن بين المنظوم والمنثور ، ويذكر الكميت والطرماح بن حكيم وعدم احتجاجهم بشعرهما ، ويتحدث عن عيب النقاد على جرير والفرزدق طول مقامهما فى الحضر إلى غير ذلك وهذا هو الطابع العام لكتاب سر الفصاحة وهو وإن كان متأثراً بطريقة عصره ومذهب السابقين عليه إلا أنا حين نوازن بينه وبين عبد القاهر »

---

(١) من بحث نشره د. كامل الفقى فى مجلة الأزهر عن ابن سنان .

وكلاهما معاصر لصاحبه يعيش معه فى بيئة واحدة ، وتظلهما ثقافة واحدة أو متقاربة ، نجد الثانى سبق الأول بأشواط بعيدة فى هذا المضمار ، وذلك أن الجرجانى قد استوفى أبحاثاً بلاغية فى كتابه مما خلا سر الفصاحة منها كالمجاز المرسل والمجاز العقلى والفصل والوصل والخبر والإنشاء إلى غير ذلك مما لم يتحدث ابن سنان عنه ، وظهرت فى كتب عبد القاهر ميزات لم يتمتع بها سر الفصاحه ، من تخليص العلم من الأمور الأجنبية عنه ، ومن قربه إلى التحديد العلمى والتنسيق المنظم ، والاستيفاء الشامل ، ولكن لعل من الإنصاف أن نلتمس للخفاجى فى ذلك عذراً ، فقد كان والياً ، ونحن وإن كنا لم نعرف مدة ولايته إلا أنها على أى حال قد شغلت نفسه كثيراً . وقد كان الخفاجى شاعرا ، وللشاعر نزعة هى وحى الإلهام وسنوح الخاطر .

وبعد : فلسر الفصاحة منزلة كبيرة فى البلاغة ، فإذا كان ابن المعتز قد ألف كتابه البديع ، وقدامة ألف نقدالشعر ، وأبو هلال قد ألف الصناعتين وابن رشيق قد ألف « العمدة » ، فحسبنا أن نذكر ابن سنان ومؤلفه القيم « سر الفصاحة » ، فإنه حلقة بين هذه الكتب وبين كتب عبد القاهر والسكاكى ومدرسته ، فابن سنان كان كعبد القاهر : كلاهما بنى للبلاغة العربية صرحا شاهقاً تعتز به وتفتخر ، وكلاهما أقام بحوث البلاغة على نهج جديد كان أساساً لبحوث البلاغيين من بعد .

وإذا كانت الفكرة الأولى عند عبد القاهر حين ألف فى البلاغة هى الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقته ، فإنها كذلك هى الفكرة التى كانت تسيطر على عقل ابن سنان وتفكيره ، كلا الرجلين ابتدأ بقضية الإعجاز ، وخرج منها صفر اليدين ، لم يهتد إلى أمنيته المنشودة ،

ولكن ابن سنان يرى أن سر الإعجاز هو صرف الله الناس عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ، وعبد القاهر يرى أن سره هو دقائق ولطائف فى نظم القرآن الكريم أعجزت القائلين ، وأسكتت صوت الملحدين . أو قل إن سر الإعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحتوى عليه هذه الكلمات من معان .

أثر عبد القاهر فيمن بعده :

هذا وقد تأثر السكاكى ومدرسته بعبد القاهر وآرائه البيانية إلى حد بعيد ، ويتجلى ذلك فى مفتاح العلوم للسكاكى وفى الإيضاح للقزوينى وفى سائر كتبهم . وذلك واضح لا يحتاج إلى بيان .

ولم يشر ابن الأثير صاحب المثل السائر م ٦٣٧ هـ إلى عبد القاهر ولكن نقل عنه جملا فى الحذف (١) ، وسار على أن السجع لابد أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى كما فعل عبد القاهر .

---

(١) ٢٠٢ ، ٢٠٣ و ١٩٥ المثل السائر .

عبد القاهر وأثره في وضع البيان العربي

— —

نريد بالبيان هذه العلوم الثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، لا هذه الملكات العربية السليمة الناطقة بمأثور بلاغات العرب من شعر ونثر .

وليس من شك فى أن فساد الأذواق ، وانحراف الملكات ، وتضاؤل الطبع فى نفوس العرب ، بعد اتساع الفتوحات الإسلامية ، وامتزاج العرب بالشعوب المغلوبة ، وظهور أثر هذا الامتزاج فى الألسنة والطباع ، ليس من شك فى أن ذلك كله كان الباعث على تدوين أصول البيان لتكون ميزاناً سليما توزن به بلاغة الكلام ، ولتعصم هــذه الأصول الأدباء والمتأدبين من الخطأ فى الأسلوب والبيان ، ويضاف إلى ذلك عامل آخر بعيد الأثر فى تدوين البلاغة ، هو الرغبة فى فهم أسرار إعجاز القرآن الكريم ، وإقامة الأدلة العلمية على هذا الإعجاز .

وقد أخذ النقاد والأدباء والكتاب فى القرن الثانى يحاولون فهم أسرار البيان ووضع أصول موجزة تحدد آرائهم فى جمال الأسلوب واشترك فى النهوض بهذا العبء منذ العصر الأموى كثيرون ، فى مقدمتهم أئمة الشعر والخطابة وفحول الكتاب والرواة وعلماء الأدب من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ورجال النقد الذين جمع الكثير منهم مع الثقافة العربية ثقافات أخرى ، ونشأت من ذلك آراء كثيرة فى البيان وتحديده ، نجدها فى مصادر كتب الأدب والنقد والبلاغة .

ثم ألفت فى القرن الثالث كتب تجمع كثيراً من الآراء والدراسات الموجزة حول البيان وبحوثه ، ومن هذه الكتب :

إعجاز القرآن لأبى عبيدة م ٢٠٧ هـ . والفصاحة للدينورى م ٢٨٠ هـ .

وصناعة الكلام للجاحظ ، ونظم القرآن والتمثيل له أيضاً ، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد ، والبلاغة للحرانى ، وقواعد الشعر لثعلب ، والبلاغة والخطابة للمروزي ، والمطابق والمجانس لابن الحرون ، وتهذيب الفصاحة لأبى سعيد الأصفهانى ، وإعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه للواسطى المعتزلى (ـ ٣٠٦هـ). وصنعة البلاغة للباحث .

على أن أهم الكتب التى تناولت بعض مسائل البيان بالبحث ، أو التى ألفت فيها خاصة هى البيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألف فى هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثراً وشعراً ، وتتعرض لتجديد البلاغة والبيان وما حولها من آراء كانت ذائعة فى عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البيان وأصوله .

ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقـــول أبو هلال[1] ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان ، وهى التى أوحت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان . ومن الخطأ التهوين من أثر الجاحظ فى البيان ، كما ذهب إليه بعض الباحثين

وعلى نهج الجاحظ سار المبرد فى كتابه الكامل ، ففيه آراء كثيرة وروايات مدونة تتصل بالبيان وموضوعاته .. وكذلك ابن المدبر فى كتابه الرسالة العذراء ، ثم ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » والحصرى فى « زهر الآداب » ، وسواهم .

ويبدأ التدوين فى صميم البيان بتأليف ابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) كتابه « البديع » عام ٢٧٤ هـ ، وقد ذكر فيه مؤلفه ألوان البديع وهى :

---

(١) ٦ و ٧ الصناعتين .

الاستعارة ـ التشبيه ـ التجنيس ـ المطابقة ـ رد العجز على الصدر ـ المذهب الكلامى ـ الالتفات ـ الاعتراض ـ الرجوع ـ حسن الخروج ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ـ تجاهل العارف ـ حسن التضمين ـ التعريض والكناية ـ والإفراط فى الصفة ـ لزوم مالا يلزم ، وهذه الألوان كلها هى موضوع علم البيان والبديع .

وبعد ذلك ظهر كتاب نقد الشعر لقدامة ، وقد تكلم فيه على سر الجمال وأسباب القبح فى الشعر وعناصره : اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وعرض بسبب ذلك لكثير مما عرض له ابن المعتز ، وزاد عليه أنواعاً كثيرة .

ثم ظهر نقد النثر ، وهذا الكتاب صورة قويه لفهم مؤلفه للبيان وأقسام الكلام وألوان الأساليب ، بما تأثر فيه بذوقه العربى وثقافته اليونانية معاً .

أما كتاب الصناعتين لأبى هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ففيه تحديد البلاغة والبيان وأوصافهما وشرح الآراء فيهما ، وذكر لألوان البديع وللسرقات الشعرية وغيرها . وقد تأثر فيه أبو هلال بالجاحظ وابن المعتز وقدامة إلى حد بعيد .

ومن الكتب التى تتعرض لبحوث البيان : الموازنة للآمدى ، والوساطة للجرجانى ، وإعجاز القرآن للباقلانى ، والعمدة لابن رشيق وهو أكثرها اتصالا بالبلاغة ، وسر الفصاحة لابن سنان ، وهو كتاب جليل فى البيان والنقد والأدب ، مؤلفه هو الأمير ابن سنان الخفاجى الحلبى (٤٢٢ — ٤٦٦ هـ) .

— ٢ —

وجاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية والمتوفى عام ٤٧١ هـ فألف فى البلاغة كتابين جليلين هما :

١ — أسرار البلاغة ، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة ، وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .

٢ — دلائل الإعجاز ، وفيه بحوث كثيرة هى أصول علم المعانى ، كما أنه تحدث عن الكناية والتمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات . وهذه البحوث كلها هى عنده علم البيان .

ولا يزال هذان الكتابان عمدة الباحثين فى البيان العربى حتى الآن . وهما أهم مصدر للسكاكى المتوفى عام ٦٢٩ هـ و كتابه المفتاح ، وأكثر آراء السكاكى ومذهبه فى البيان مستمد منهما . . وعلى نهج السكاكى سار الخطيب عام ٧٣٩ هـ فى الإفادة من عبد القاهر والانتفاع بآرائه فى تقويم البيان العربى ورفع صرحه العلمى السامق ، مما ظهر أثره واضحاً جلياً فى كتابه « الإيضاح » . . وفى أول عصر النهضـــة بدأ الاهتمام بكتابى عبد القاهر ينمو ، والإقبال عليهما يزداد ، وذلك بفضل توجيه رائد النهضة الفكرية الحديثة الإمام محمد عبده ، وهو الذى أشرف على نشر الكتابين وقام بمراجعتهما .

— ٣ —

هذا ويذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويقرر أنه اطلع على ما كتبه

ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ، وأن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئاً (١) .

ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البيان العربى (٢) ، ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين فى علم البيان (٣) وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا فى القرن الثانى وأثروا فى البيان وتطوره جلهم أعاجم (٤) ، وأن متكلمى المعتزلة بتضلعهم فى الفلسفة اليونانية من مؤسسى البيان العربى ، وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجد إلا بيان عربى واحد كان لا يزال فى دور للطفولة وكان خصباً جامعاً للروح العربى والفارسى واليونانى ، ثم وجد منذلك الوقت بيانان : عربى بحت ويونانى يجهر بالأخذ عن أرسطو (٥) ، وحتى العربى البحت تأثر باليونان (٦) .

وترجم كتاب الخطابة لأرسطو فى النصف الثانى من القرن الثالث . وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربى ، وكان يجهل كتاب الشعر (٧) وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق . . . على أن تشريع الفلسفة للأدب فى رأى الدكتور طه حسين يظهر أول مرة فى « نقد الشعر » ثم فى « نقد

---

(١) ٢٠ المثل السائر .

(٢) ٢٧٧ ج ١ ضحى الإسلام .

(٣) ٣١ مقدمة نقد النثر .

(٤) ٦ المرجع .

(٥) مقدمة نقد النثر .

(٦) ص ١١ المرجع .

(٧) ص ٧ « .

الشر ، الذى هو مستمد من آراء أرسطو فى الجدل والقياس والخطابة ، ثم يظهر عند عبد القاهر واضحاً جلياً .

وأقول : إن المشتغلين بالفلسفة اليونانيه قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى فى خدمة البيان ، واستعانوا بطريق اليونانيين ومناهجهم فى دراسات البلاغة والتأليف فيها ، كما أن للفرس وما ترجم من قواعد بلاغتهم أثراً ما فى البلاغة العربية(١) .

وإذا فنى البيان العربى عناصر ثلاثة : عنصر عربى ، وعنصر فارسى وعنصر يونانى ، ولا شك أن واضعى البيان قد أفادوا من هذه العناصر الثلاثة إلى حد كبير .

ويقول باحث محدث : يستطيع الباحث أن يقرر مطمئنا أن نشأة البلاغة كانت عربية ، لكنه لا يستطيع أن ينكر أن العنصر الأجنبى قد اتصل بها فأخذ يؤثر فى تطورها ويبعدها عن الطريقة الأدبية العربية ويسيطر عليها ، حتى إذا اشتد سلطان هذا العنصر صارت فلسفة خالصة على أيدى السكاكى وأصحابه(٢) .

— ٤ —

وبعد ، فإن العلماء يختلفون فى وضع البيان العربى اختلافا كبيراً : فبعضهم يذهب إلى أن واضعه هو الجاحظ ، الذى كان أول من اهتم به

(١) يقول أبو هلال : وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى الخ » .

(٢) ص ٥٢ البلاغة العربية فى دور نشأتها — للدكتور سيد نوفل ط ١٩٤٨ — مكتبة النهضة .

وألف فى بحوثه ، وجمع آراء كثيرة فيه فى كتابه « البيان والتبيين » وهو الدكتور طه حسين (١) ومن ذهب مذهبه .

ويرى البعض أن نشأة البلاغة قديمة وأنها سبقت القرآن وتطورت بعده (٢) ولا شك أن صاحب هذا الرأى لا يفرق بين البلاغة كفن وبينها كعلم ، فلا شك أن الأدب وخواصه الفنية موجودان من قديم ، وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها على أنها علم وقواعد فلم توجد إلا بعد القرن الثانى ، « فعلم البلاغة إسلامى لا عهد للجاهليين به » (٣) ، « والبلاغه باعتبارها علماً مدروساً ليست من علوم العصر الجاهلى إنما هى دراســـة متأخرة فى نشأتهـا » (٤) .

ويذهب باحث محدث إلى أن سيبويه إمام النحو العربى المتوفى عام ٨٨ه هو الذى بدأ بوضع علم البيان والبلاغة (٥) .

ويذهب كثيرون إلى أن واضع البيان العربى هو عبد القاهر الجرجانى المتوفى عام ٤٧١ ه ومن هؤلاء صاحب الطراز : على بن حمزة العلوى . قال فى مقدمة كتابه ما نصه :

وأول من أسس من هذا الفن قواعده ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده

---

(١) راجع ٣ ، ٣٠ ، ٣١ مقدمة نقد النثر للدكتور طه — طبع لجنة التأليف ، ١٧٠ البلاغة العربية فى دور نشأتها .

(٢) ١/٤٨ النثر الفنى .

(٣) ٢٦ تاريخ البلاغة العربية للأستاذ أحمد شعراوى — مخطوط بمكتبة كلية اللغة .

(٤) ٤ ، ٥ مجلة الأدب والفن عدد نوفمبر ١٩٤٥ من مقال « خواطر فى الأدب العربى » للأستاذ رجب .

(٥) محاضرة ألقاها الأستاذ أحمد مصطفى المراغى عام ١٩٤٢ .

ورتب أفانينه ، الشيخ العالم التحرير ، علم المحققين ، عبد القاهر الجرجانى .

ويذهب آخرون إلى أنه السكاكى ، وأنه هو الذى استبد بشرف وضع علم البيان ، ويخطىء كثيرون حين ينسبون القول بذلك إلى ابن خلدون ، لأن ابن خلدون قال فى مقدمة : « وأطلق على الثلاثة ، عند المحدثين اسم البيان وهو اسم للصنف الثانى ، لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب فيها جعفر بن يحي والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية ، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً ، إلى أن محض السكاكى زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه ، على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المفتاح(١) ، فابن خلدون إنما يعنى أن للسكاكى هو الذى هذب مسائل البيان ورتب أبوابه ، مع اعترافه بأن البحث البيانى قديم ، والتأليف فى مسائله سابق على عصر السكاكى بقرون ، فهو يعترف للسكاكى بميزة الهذيب والترتيب لمسائل البيان العربى ، ولم يعترف بأنه هو واضع البيان ، وفرق كبير بين الرأيين عند النظر .

وفى رأيى أن عبد الله بن المعتز الشاعر العباسى المشهور المتوفى عام ٢٩٦ﻫ هو أول مؤلف فى البيان والبلاغة ، وذلك بتأليفه كتابه « البديع » ، الذى هو أول عرض لموضوعات علمى البيان والبديع ، بنظام سهل جميل مع الشواهد والأمثلة ، أما الجاحظ فلم يكن له هـذا الشرف ، لأن البيان والبلاغة عنده أقوال مفرقة وكلمات مروية ، وآراء عامه ، وأما عبد القاهر فقد أتى بعد كثير من العلماء الذين أفاد منهم ، وقبس من دراساتهم ، وأما السكاكى فقد نهج عبد القاهر مع شىء من التفلسف وعمق الإفادة من المنطق فى دراسة البيان ، ومع التحديد والتقسيم والتبويب والتمييز بين بحوث البيان والمعانى .

---

(١) ٥٥٢ المقدمه لابن خلدون — طبع التجارية .

أما أن ابن المعتز أول مؤلف فى علم البديع فبديهى لايحتاج إلى جدل، وأما أنه أول مؤلف فى علم البيان ، فلأنه بحث التشبيه والاستعارة والكناية فى كتابه ، وإن كان ذلك بوجه إجمالى بسيط ، وأما علم المعانى فليس لابن المعتز ولا لكتابه أثر فيه . . . ونحن كذلك لا نسند وضع علم المعانى إلى عبد القاهر لأن دراسته له قد سبقتها دراسات كثيرة من أهمها دراسة : مؤلف نقد النثر . والآمدى فى الموازنة ، وقدامة فى الشعر ، والباقلانى فى إعجاز القرآن . وابن سنان فى سر الفصاحة ، وابن رشيق فى العمدة ، وإذا كانت مباحث علم المعانى عند هؤلاء غير مميزة ، فنستطيع أن نقول إنها كذلك عند عبد القاهر ، وإن كان أكثر إحاطة وتفصيلا ونقداً وتحليلا : وهى — ومثلها دراسات البيان والبديع لم ترتب وتوضع فى الصيغة الأخيرة لها إلا بجهود السكاكى الذى فهم عبد القاهر فهماً بعيداً . ولقط منه كل شاردة وأخذ عنه كل أفكاره ، بل أخذ بعض الآراء التى أبطلها عبد القاهر فجعلها رأياً له ، مع الترتيب والتبويب والتنسيق .

والباحثون يعترفون بأثر ابن المعتز وكتابه فى دراسات البلاغة والبيان: يقول المستشرق كراتشكوفسكى الذى نشر البديع لأول مرة فى أوربا ، فى مقدمته التى كتبها بالإنجليزية للكتاب ، مصوراً أثره فى تاريخ علم البديع : إن لهذا الكتاب أثراً فعالا فى تطور هذا الفرع من المعرفة الذى ألف فيه، وقل من الكتب فى موضعه مايدانيه تأثيراً فى الأجيال التى تلته ، بل ندر أن يجد الإنسان فى كتاب مسألة أساسية ليس لها أصل فى كتاب ابن المعتز الذى نهج نهجاً جديداً .

ويقول باحث محدث : قد أثر الكتاب فى تاريخ علوم البلاغة كلها فقد كان البديع لذلك العصر يشمل المعروف من ألوان البلاغة كلها ، وقد تحدث ابن المعتز فيه عن الاستعارة والتشبيه والكناية ، ولا نستطيع

الحكم على مقدار ابتكاره فى هذه الفنون والمحاسن لكن التشبيه والاستعارة والتعريض والكناية ، قد سبق بها ، والمذهب الكلامى منقول عن الجاحظ ، ومهما يكن من شىء فلو لم يكن له من جهد سوى التنظيم والجمع لكفاه .

وعلى أى حال فذلك لا يغض من شرف عبد القاهر ومنزلته فى البيان العربى ، فإننا لا نشك فى أن عبد القاهر أسس مدرسة بيانية ، قوامها الذوق وعمق النقد والفهم والتحليل للأدب ، والموازنة بين شتى مأثوراته ، وهو الذى عرض لمسائل البيان بالتفصيل والإطناب والتحليل والتمثيل ، وأفاد منه جميع من أتى بعده من رجال البيان والبلاغة .

يقول كاتب (١) : أستقر بين العلماء والأدباء ، ولاسيما ابن خلدون ، أن الإمام عبد القاهر الجرجانى هو مؤسس البلاغة العربية ، وأول من أقام عمدها ، ووضع لها الصوى والأعلام ، وأخذ بضبعيها ، وأناف بها على البقاع وسن لها رسوما وقوانين تعرج عليها ، بأسلوب لا يقوم بفصاحته لسان ، قال السيد يحيى بن حمزة الحسينى صاحب الطراز فى علوم حقائق الإعجاز ، فى فاتحة كتابه هذا ، وهو من هو علما وفضلا : « وأول من أسس من هذا الفن قواعده . وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانينه الشيخ العالم علم المحققين عبد القاهر الجرجانى . فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزاهره من أكمامها ، وفتق أزاهره بعد استغلاقها واستبهامها ، وله من المصنفات فيه كتابان : أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة ، ولم أقف على شىء منها مع شغفى بحبهما ، وشدة إعجابى بهما ، إلا ما نقله العلماء فى تعاليقهم منها » ، وغير صاحب الطراز ممن يعتقدون أن عبد القاهر هو مؤسس فن البلاغة كثير ، وإن لهم

---

(١) هو الدكتور رياض هلال من كلمة نشرها بمجلة الأزهر .

من كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز لدليلا أى دليل،وحجة ليس بعدها من حجة ،تصحح ماذهبوا إليه، وتقنع كل جاحد مباهت ،، ولكننا نسائلهم : هل ابتكر عبدالقاهر كل هذه المباحث ابتكاراً وارتجلها ارتجالا فهو ابن بجدتها وأبو عذرها ؟وإنا لنعفيهم من الاجابة فنقول إن عبدالقاهر وجد لمن سبقه من العلماء والأدباء بحوثا وآراء فى البيان العربى متفرقات فى أثناء كتب النقد والأدب فعمد إليها ولم شملها وجمع شتاتها، وضم الإلف إلى ألفيه ، والنسيب إلى نسيبه ، فكان له من كل ذلك مجموعة ضمنها كتابيه: أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز ، وهو تارة يقر بالفضل لأربابه فيصرح بأسمائهم ، وتارة يغفلهم ويضرب عنهم صفحا فيظن بعض الناس أن المبحث من بنات أفكاره وكد ذهنه وعرق جبينه، ولو علموا لرجعوا كل شيء إلى أربابه ، وأقروا الأمر فى نصابه . ولسنا ننكر أن عبد القاهر قد ابتكر فى البيان العربى وارتجل فى أبحاثه ، كما لا نجحد أنه فصل بعض ما أجملة العلماء قبله ، وشرح بعض ما قالوا ، ونوع الأمثلة . وأتى بأمداد من الشعر والنثر متوافرة ، ولكننا ننكر أن يكون هو مؤسس فن البلاغة برغم ما يقوله صاحب الطراز ، وعبد القاهر نفسه يقر بانه أفاد ممن تقدمه ممن كتبوا فى البلاغة والفصاحة ، وينعى على الناس عدم تدبرهم الكلام العلماء وإنعامهم النظر فيه ، حتى أدخلوا الضيم على علم الفصاحة والبلاغة ، فيقول فى دلائل الإعجاز (١) أعلم أنك لاترى فى الدنيا علما قدجرى الأمر فيه بديئا وأخيراً على ما جرى عليه فى علم الفصاحة والبلاغة أما البدىء فهو أنك لاترى نوعا من أنواع العلوم إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس، وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة والتصريح أغلب من التلويح ، والأمر فى علم الفصاحة على الضد من ذلك، فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزاً ووحيا ، وكناية وتعريضا ،وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له

(١) ص ٢٤٩ .

إلا من غلغل الفكر وأدق النظر ومن يرجع من طبعه إلى ألمعية يقوى معها على الغامض ويصل بها إلى الخفى ، حتى كان بسلا حراما أن تنجلى معانيهم سافرة الأوجه لانقاب لها ، وبادية الصفحة لاحجاب دونها . وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم فى شىء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ، يتدارسونه ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم أن يسألوا عنه بيان له وتفسير ، إلا علم الفصاحة ، فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا ، أو يستطيعوا أن يسألوا عنها أو يذكروا لها تفسير يصح » وسنرى أن عبدالقاهر قد أسرف فى دعواه أن العلماء لم يتجاوزوا التلميح إلى التصريح والإشارة إلى العبارة فى مسائل البلاغة والفصاحة ، وأنه فى كثير من المباحث لم يزد على ما قالوا إلا فى الأمثلة والشواهد .

— ٥ —

وقد عرض الأستاذ أحمد المراغى فى كتابه « بحوث وآراء فى البلاغة » لعبد القاهر : فذكر رأى عبد القاهر فى الفصاحة والبلاغة وهل يرجعان إلى اللفظ أو إلى المعنى (١) ثم ذكر أثر عبد القاهر فى بناء البلاغة العربية وقال : « وفى الحق أن كتابيه يعد أن أول المؤلفات العلمية فى هذه الفنون ، وبما اشتملا عليه من التحقيق العلمى للمسائل التى تناولها فى عرض كلامه ، وبما سلك فيها من نهج أدبى مقرون بتدقيق منطق بديع ، مع بقاء الأسلوب الأدبى ظاهراً لم تشبه هجنة . فلا غرو أن قيل إن أول من وضع هذه الفنون عبد القاهر الجرجانى ، كما أن من الحق أن نقول أيضاً : إن عبد القاهر بوضعه هذين الكتابين أوجد علوم البلاغة كاملة فكل من جاء بعده قبس من نور

(١) ص ١٠ — ٢٨ المرجع ط ١٩٤٠ .

علمه ، وما لم يتعرض له من مسائلها وزادوه فيها بعده فهو قشور، تركها لا يضير الأديب (١) » .

وقال فى موضع آخر : وفى الحق أن هذا البيان كان وليد احتكاك العرب والعجم الذين حذقوا لغاتهم واللغة العربية. ونتاجا لازدواج هاتيك اللغات بعضها ببعض . ولم يكن بالعربى البحث الذى أنتجه القرائح العربية الخالصة ، فتاريخ الأدب حافل بأسماء الأدباء الكتاب الموالى الذين كان يشار إليهم بالبنان فى رقى الأدب (٢) » .

ويقول عن كتابى عبد القاهر : أسلوبه فيهما يجمع بين الطريقتين :ففيه قوة الجدل المنطق ، وله المعرفة التامة باصطلاح الفلاسفة والمتكلمين، إلى الروح الأدبى والقدرة على النقد وصنعة الكلام ، إلا أن أسلوبه فى دلائل الإعجاز أميل إلى طريقة المتكلمين ، بينما تراه فى « أسرار البلاغة » عربى الأسلوب، وفى تعبيره رونق وطلاوة مع سهولة وجزالة وعذوبة وسلاسة إلى قوة الشكيمة فى الحجاج ، وتمام الآلة فى الجدال ، مع ميل إلى الأسلوب والبسط فيما يريد إثباته من القضايا ، وإحالة للمخاطب على الذوق وإدراك الجمال الفنى بنفسه ، ويصل إلى ما قد وصل إلى إدراكه بعد طول البحث والاختيار (٣) » .

---

(١) ص ٥٨ المرجع ، ويقول فى موضع آخر عن عبد القاهر : « أحيا موات هذا العالم ، وأنشأ فيه نهضة جديدة ، واستعار شيئاً من التحقيق العلمى والبحث الفلسفى لإثبات مسائل هذا العلم ، فإسراف حينا واقتصاد حينا آخر ، مع بقاء الصبغة الأدبية سليمة لا يعتورها وهن ولا ضعف (ص ٥٠ المرجع) .

(٢) « ٥٥ « .

(٣) ص ١٢٩ و ١٣٠ المرجع .

— ٦ —

ويقول الدكتور طه حسين فى مقدمة كتاب نقد النثر مانصه : « لم تلق « خطابة » ابن سينا ولا « شعره » - وهما شرح وتحليل لفلسفة أرسطو ولآرائه فى الخطابة والشعر ، وقد جعلهما ابن سينا من فنون كتابه « الشفاء » - قبولا لدى الفلاسفة الذين جاءوا من بعده » .

« على أن مجهود ابن سينا لم يكن ليذهب عبثا ، لقد عرب كتاب « الخطابة » لأرسطو - إذا صح هذا التعبير ، وجعله فى متناول الفكر العربى ، وبذلك هيأ أسباب التوفيق بين البيانين : العربى ، واليونانى - الذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا ويتآلفا » .

وقد تحقق هـــذا التوفيق فى القرن الخامس على يدى عبد القاهر الجرجانى (١) » .

« صنف عبد القاهر كتابين يعتبران بحق أنفس ما كتب فى البيان العربى هما : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز » .

« فعند ما تقرأ أولهما تكاد تجزم بأن المؤلف قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا للعبارة ، وأنه فكر فيه كثيراً ، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص ، والواقع أنه درس « الحقيقة » « والمجاز » ، فتبين له أن تصور القدماء للمجاز مضطرب غير مستقيم ، فابتدأ يوضح مبهمه، ويجلو غامضه ، وقسم المجاز إلى نوعين : لغوى وعقلى ، ثم قسم اللغوى إلى قسمين : أحدهما يقوم على التشبيه وأما الآخر فعبارة عن كل لفظ استعمل مكان لفظ آخر لصلة بينهما . . وبعد فنحن نعرف مجاز أرسطو الذى يجيز إطلاق اسم الجنس على النوع ، واسم النوع على الجنس ، واسم النوع على نوع آخر ، فمجاز

(١) ص٢٨ مقدمة نقد النثر للدكتور طه حسين طبعة سنة ١٩٣٩ بالقاهرة

أرسطو هذا هو ما يسميه عبد القاهر « مجازا مرسلا » وأما المجاز الذى يقوم على التشبيه والذى يسميه أرسطو « صورة » فيسميه عبد القاهر « استعارة » وهو لفظ كان القدماء يطلقونه على المجاز بكافة أنواعه ولكى يقرر عبد القاهر مذهبه هذا ، فإنه يتعمق فى دراسة المجاز والتشبيه تعمقا لم يسبق إليه ، ولكن من غير أن يخرج بحال عن الحدود التى رسمها أرسطو : أما المجاز العقلى فهو من ابتكار عبد القاهر ، ويصح أن نسميه « المجاز الكلامى » لأنك إذا قلت مع عبد القاهر « أنبت الربيع البقل » فهذا مجاز ، لأن الربيع لا ينبت البقل ، ولكن الذى ينبته هو الله تعالى ، وينفق عبد القاهر جهداً غير قليل فى الدفاع عن مجازه هذا وفى تمييزه عن المجاز المعروف ولكن لا شك أن الأساس الذى يبنى عليه هذا التمييز محل النظر (١) » .

أما كتاب « دلائل الإعجاز » فيحاول فيه عبد القاهر أن يثبت إعجاز القرآن ، وهو أمر جعله علماء الكلام الغرض من البيان من عهد بعيد ، ولكى يصل عبد القاهر إلى هذه الغاية أيد بحثه بنقض نظريتين قد يمتين :

إحداهما : تجعل جمال الكلام فى اللفظ .

والأخرى : تجعله فى المعنى :

ثم ينتهى به البحث إلى أن الجمال ليس فى اللفظ ولا فى المعنى ، وإنما هو فى نظم الكلام ، أى فى الأسلوب ، ثم يحاول بعد ذلك أن يبين فيم يكون جمال الأسلوب وروعته ، فيدرس الجملة بالتفصيل : منفردة ومتصلة ، ويضطره البحث إلى الكلام على أهمية حروف العطف ، وقيمة الإيجاز والاطناب ، وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وبذلك يضع أساس « علم المعانى » المشهور .

---

(١) ص ٢٩ المرجع السابق .

ولا يسع من يقرأ « دلائل الإعجاز » إلا أن يعترف بفضل عبد القاهر وبما أنفق من جهد صادق خصب فى التأليف بين قواعد النحو العربى وبين آراء أرسطو العامة فى الجملة والأساوب والفصول ، وقد وفق عبد القاهر فيما حاول توفيقاً يدعو إلى الإعجاب ، وإذا كان الجاحظ هو واضع أسس البيان العربى حقاً ، فعبد القاهر هو الذى رفع قواعده وأحكم بناءه (١) .

(١) ص ٣٠ من المرجع نفسه .

نظرية النظم عند عبد القاهر

— ١ —

عبدالقاهر الجرجاني علم من أعلام النقد والبيان فى تاريخ الثقافة العربية ، بل هو أبو البلاغة العربية ومبتكر نظرياتها عند كثير من الدارسين .

وقد عاش حياته كلها فى جرجان (١) ، وهى موطن كبير من مواطن الثقافة الإسلامية العربية فى إيران فى القرن الخامس الهجرى (نحو ٤٠٠ - ٤٧١ هـ) ألف « المغنى » فى شرح « الإيضاح » لأبى على الفارسى فى ثلاثين جزءا ، ثم اختصره فى كتاب سماه « المقتصد » (٢) بمثابة شرح صغير على الإيضاح . وألف كذلك مختارات شعرية من شعر المتنبى وأبى تمام والبحترى ، وكانت ثقافته العربية والنقدية أغلب عليه ، ولقب بالنحوى لتفوقه فى النحو ، واستقصائه لأحكامه وعلله ووجوهه .

وطارت شهرته فى كل مكان ، وتصدر حلقات الأدب والعربية فى جرجان ، وقصده الناس للاعتراف من علمه ، والإفادة من فضله ، وتتلمذ عليه علماء كثيرون ، منهم : أبو نصر الشجرى ، وعلى بن زيد الفصيحى ، وسواهما : وقيل عنه : إنه « فرد فى علمه الغزير ، لا بل هو العلم الفرد فى الأئمة المشاهير (٣) .

ومن آثارة الأخرى : « التكملة » وهو ذيل الإيضاح ، و « الإيجاز » ، وهو مختصر للإيضاح أيضاً ، و « الجمل » فى النحو ، والتلخيص وهو شرح لكتاب الجمل ، و « العوامل المائة » وكتاب فى العروض ، وكتاب العمدة فى التصريف ، وشرح الفاتحة ، وله شرحان على كتاب « إعجاز القرآن

فى نظمه ، للواسطى (- ٣٠٦ هـ) : أحدهما كبير سماه « المعتضد » ، والآخر صغير (٤) ، و « والرسالة الشافية » فى الإعجاز ، وقد طبعت مع رسالتين أخريين بعنوان « ثلاث رسائل » علق عليها الدكتوران : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، وطبعت فى القاهرة .

وله كتابان آخران : أحدهما هو « التذكرة » ذكره مؤلف « إنباه الرواة » (٥) والآخر هو « المفتاح » ذكره صاحب « طبقات الشافعية » (٦) .

وأجل كتبه ، وأعظمها أثراً ، وأكبرها خطراً ، وأخلدها على الأيام كتابان . هما : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وهما أعظم ما ألف فى البلاغة والنقد على مر العصور .

— ٢ —

وإذا كانت شهرة عبد القاهر بالبلاغة قد ذاعت وطارت فى كل مكان فإن شهرته بالنقد لا تقل فى الحقيقة عن شهرته بالبلاغة ، وكتاباه يمثلان الذروة فى كتب النقد العربى ، ويمثلان منهجاً كاملا فيه .

وفى كتاب « دلائل الإعجاز » ، الذى ألفه عبد القاهر ليحمل مقدمات فى دراسة الإعجاز القرآنى ، يتحدث عبد القاهر عن نظريته فى النظم كأساس لفهم فضيلة الكلام وبلاغته ، ولفهم إعجاز كتاب الله كذلك . . الكتاب فى قمة كتب البلاغة والبيان .

وفى كتابه « أسرار البلاغة » يتحدث بتفصيل عن المعانى الشعرية وأقسامها ، ويخص التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية وضروب التخييل بالشرح والإيضاح والبيان .

— ٣ —

وفى مقدمة « دلائل الإعجاز » يعرف عبد القاهر النظم بأنه « تعلق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض (٧) » ويجعل وجوه التعلق ثلاثة : تعلق إسم باسم وتعلق إسم بفعل ، وتعلق حرف بهما . ويشرح وجوه التعلق شرحا وافياً .

ويؤكد أن نظم الكلام يقتفى فيه آثار المعانى وترتبها حسب ترتب المعانى فى النفس (٨) . وليس النظم فى مجمل الأمر عنده إلا ان تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها (٩) . فمداره على معانى النحو ، وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه (١٠) ، وليس هو إلا توخى معانى النحو فى معانى الكلم (١١) ، فلا معنى للنظم غير توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم (١٢) ، أو فيما بين معانى الكلم بتعبير آخر (١٣) ، والفكر لا يتعلق بمعانى الكلم المفردة مجردة عن معانى النحو أو منطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معانى النحو وتوخيها فيها (١٤) .

ويشير عبد القاهر إلى أنه من الضرورى فى معرفة الفصاحة أن تضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام (١٥) ، وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة ، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ (١٦) .

ويأخذ فى تفصيل أمر المزية ، وبيان الجهات التى منها تعرض ، فيتحدث عن وجوه النظم فى التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ، والوصل والفصل ، والقصر . ويفيض فى ذكر ضروب تأكيد الخبر ، ويعرض التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز والاستعارة ، مقرراً أن

المزية فيها ليست فى أنفس المعانى التى يقصد المتكلم إليها بخبر ، ولكنها فى طريق إثباته لها ، وتقريره إياها (١٧) ، وإذا عرض للاستعارة فى بيت ابن المعتز المشهور :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا   أنصاره بوجوه كالدنانير

أكد أن الاستعارة هنا ، على لطفها وغرابتها ، إنما تم لها الحسن بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها وقد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها (١٨) ، وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم فى بلاغة الاستعارة فى قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » ، وقوله : « وفجرنا الأرض عيونا » ، ويتحدث عن التشبيه (١٩) فى مثل : زيد الأسد ، وكأن زيداً الأسد ، وأن فى المثال الثانى زيادة فى معنى التشبيه ليست فى الأول ، وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى فى نظم اللفظ وترتيبه ، حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام ، وركبت مع « أن » . . كما يتحدث (٢٠) عن ضروب المجاز العقلى أو المجاز فى الإسناد (٢١) ، وعن المجاز بالحذف ، وعن ضروب الكناية فى النسبة ، ومدخل النظم فى بلاغتها .

بل إنه ليقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شىء منها فى الكلم وهى أفراد (٢٢) ، فإذا قلنا فى لفظ « اشتعل » من قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » إنها فى أعلى المرتبة من الفصاحة لم توجد تلك الفصاحة لها وحدها ، ولكن موصولا بها الرأس معرفاً بالألف واللام ، ومقرونا إليهما الشيب منكرا منصوبا (٢٣) ، فلبست الفصاحة صفة للفظ « اشتعل » وحده (٢٤) .

— ٤ —

ويقرر عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز » أن المزية للكلام إنما هى فى

نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التى تليها (٢٥) ، وليس الفضل والمزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه (٢٦) ، فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام عليها ، وزيادات تحدث فى أصول المعانى ، كالذى أريتك فيما بين «زيد كالأسد» ، و «كأن زيدا الأسد» ولا نصيب للألفاظ من حيث هى ألفاظ فيها بوجه من الوجوه (٢٧) ، فأنفس الكلام بمعزل عن الاختصاص والمزية (٢٨) ، فليس للفظ من حيث هو لفظ حسن ومزية (٢٩) ، إذ المزية ليست بمجرد اللفظ ، وإنما تقع فى اللفظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس (٣٠) ويجعل عبد القاهر كذلك ذروة المزية والبلاغة ، وهى الإعجاز القرآنى ، فى النظم وحده ، لا فى شيء آخر (٣١) .

وبذلك ينتهى عبد القاهر من عرض نظريته فى النظم . هذا العرض الجديد ، لتلك النظرية الجديدة أيضاً .

وخلاصة ما يقرره عبد القاهر هو :

١ — أنه لا فصل بين الألفاظ ومعناها ، ولا بين الصورة والمحتوى ، ولا بين الشكل والمضمون ، فى النص الأدبى .

٢ — أن البلاغة فى النظم ، لا فى الكلمات مفردة ، ولا فى مجرد المعانى ؛ والباحث عن الإعجاز عليه أن يتتبعه فى النظم وحده .

٣ — أن النظم هو فى مراعاة معانى النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه فيما بين معانى الكلم .

٤ — ولذلك أخذ عبد القاهر فى كتابه الخالد « دلائل الإعجاز » يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو ، مستنبطا الفروق بينها ، عارضا لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها .

— ٥ —

وهذه النظرية ، وهى نظرية النظم ، بما اشتملت عليه من تطبيقات وشروح واسعة جديدة كل الجدة عندعبد القاهر ،إذ لم يعرضها أحد قبله هذا العرض المتميز . ولذلك جهد عبد القاهر فى إيضاحها ، ودفع الشبه عنها ، والرد على من يعترضه فيها ، من أول « دلائل الإعجاز » إلى آخره .

ففلسفة عبد القاهر البيانية تنهض على أساس فكرة النظم (٣٢) ، وإذا كان هناك من يذهب إلى أن عبد القاهر لم يكن مخترعا لها ، وإنما كان هو الذى بسط القول فيها ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه ، فقد سبقه إليها الواسطى صاحب كتاب « إعجاز القرآن فى نظمه » ، وظهرت كذلك هذه الفكرة واضحة فى الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات ، وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية(٣٣).. فإن كتاب الواسطى المفقود لا ينهض حجة على ذلك، وتعصب المثقفين بالثقافة المترجمة لمعانى ولمنطق أرسطو وعدم اهتمامهم بالألفاظ ، ودفاع علماء العربية عن الأسلوب العربى، وتنقصهم لمعانى أرسطو ومنطقه، كل ذلك لا شبه بينه وبين نظرية النظم عند عبد القاهر .

وعلى أى حال فإننا لا نذهب إلى أن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر فحسب، ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم هذا الشرح الجديد حقاً ، وتطبيقه عليها هذه التطبيقات النقدية السابية الواسعة، وفرق على أية حال بين أية نظرية فى استنباتها وبينها فى قمة ازدهارها . وإذا كان عبد القاهر لا يخرج بالنظم عن معانى النحو ، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعانى المتجددة المختلفة(٣٤)، فإن الجديد عند عبد القاهر أيضا هو أنه استخدم معانى النحو وأحكامه استخداماً جديداً بيانياً نقدياً أيضاً ، وإلا لكان فى النحو

غنى عن كل ماقرره عبدالقاهر الجرجانى والبلاغيون من أحكام بيانية بلاغية.
وذلك مايردده عبد القاهر ويؤكد نفيه له فى كتابه، كما يقرر فى كل فصل من فصول «الدلائل» أن لاسبيل إلى معرفة الإعجاز إلا «النظر فى الكتاب الذى وضعناه، واستقصاء التأمل لما أودعناه (٣٥) وأنه «الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان (٣٥)، وأن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا الوصف الذى كان له معجزاً (٣٦)، والطريق إلى العلم به موجود (٣٦) أى ممكن، ويكرر فى الكتاب أنه يقرر أموراً صعبة على الفهم، وغيرذلك مما جعل عبد القاهر يشحذ ذهنه فى تقريرها، وذهن القارىء والسامع فى تقبلها، لوجه الجدة فيها، وأنه المبتكر لها.

— ٦ —

ولقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبى الخالص إعتماداً كلياً فى كل ما قرره من أحكام، مؤكداً أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومىء إليه من الحسن واللطف أصلا وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها تارة أخرى، وحتى إذا عجبته تعجب، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه (٣٧).

وقد أثرى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربى إثراء جليلا، بما كتب فى نقد الأساليب وتحليلها، واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة، على الأساليب وضروب النثر والشعر.

إنه ليس لنظرية عبد القاهر فى النظم من القيمة ما لتطبيقاته، فهناك يظهر ذوقه العربى السليم، ذلك الذوق الذى لا يمكن أن يغنى فى الأدب عنه

شىء ، ونظرية عبد القاهر فى رمزية اللغة وفى التحليل اللغوى (*) ورد المعانى إلى النظم ، ومنهجه فى نقد النصوص نقداً موضعياً ، ما هى إلا مراحل تنتهى به إلى الذوق الذى يدرك الدقائق ويحس بالفروق ، ووجوه الكلام وأسراره . وإحساس عبد القاهر الأدبى السليم سابق دائما لعقله ، والحكم على النظم عنده هو النظر فى المعنى منظوما والذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق . وإلى هذا فطن عبد القاهر بحسه الأدبى الصادق ، فالذوق عنده يتحكم فى نظم المعانى التى نعبر عنها . وتسوق فكرة النظم عند عبد القاهر إلى تخطى الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة ، التى عنى بها فى دلائل الإعجاز وفى أسرار البلاغة كذلك — فى مبحث التشبيه — عناية فائقة ، ونقدها نقداً بيانياً أدبياً (٣٨) .

إن الأدب عند عبد القاهر فن لغوى ، فإخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون ، وهذه النظرية الصحيحة هى موضع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر (٣٩) ، الذى يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ، ثم ينتهى إلى الذوق الشخصى الذى هو مرجعنا الأخير فى دراسة الأدب (٣٧) ، وما النقد إلا وضع مستمر للمشكلات البيانية ، فلكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف نراها ونصفها ونحكم فيها ،وهذا هو النقد الموضوعى كما رآه (٤٠) الجرجانى .

لقد اهتدى عبد القاهر إلى كل تلك الحقائق ، التى إذا كان لها فى تفكير اليونان القدماء ما يماشيها ، وفى علم اللسان الحديث ما يؤيدها ، فإن الفضل الأكبر فى الوقوع عليها يرجع إلى مواهب عبد القاهر الفطرية المبتكرة الخصبة (٤١) .

(*) راجع كتاب منطق اللغة (نظرية عامة فى التحليل اللغوى) — طبع بغداد — تأليف ياسين خليل .

وبعد فهذه هى نظرية النظم ، التى يرجع إلى عبد القاهر الجرجانى فضل ابتكارها والكشف عنها ، والتى تعد طليعة كاملة لعلم البلاغة العربية ، كما جمع أشتاته السكاكى (٦٢٦هـ) من كلام عبد القاهر فى كتابيه الخالدين : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة (٤٢) .

المراجـــع

(١) ٣١٠ بغية الوعاة للسيوطى ، ٣ : ٢٤٠ شذرات الذهب ، ٣ : ٢٤٢ طبقات الشافعية ٢ : ١٨٨ إنباه الرواة .

(٢) مخطوط بدار الكتب برقم ١١٠٣

(٣) ٤٤٣ - روضات الجنات ، ٢ : ٢٣٢ فوات الوفيات .

(٤) ٢ : ١٩٠ إنباه الرواة .

(٥) ٤٣٤ - ٤٣٦ نزهة الألبا للأنبارى .

(٦) ١٥٨ دمية القصر .

(٧) ٧٥٨ الدلائل - تعليق المراغى - نشر المكتبة المحمودية .

(٨) ٣٥ المرجع السابق .

(٩) ٥٥ المرجع .

(١٠) ٦٠ المرجع .

(١١) ٢٣٣ المرجع .

(١٢) ٢٣٧ و ٢٥٠ المرجع .

(١٣) ٢٥٦ و ٢٣٣ » .

(١٤) ٢٥٩ المرجع .

(١٥) ٢٧ المرجع .

(١٦) ٣٣ »

(١٧) راجع ٤٤ - ٤٧ المرجع

(١٨) ٦٨ »

(١٩) ١٦٩ المرجع .

(٢٠) ١٩١ »

(٢١) ١٩٩ »

(٢٢) ٢٥٠ »

(٢٣) ٢٥٥ »

(٢٤) ٢٥٨ »

(٢٥) ٣٣ »

(٢٦) ١٦٧ المرجع. (٢٧) ١٧٠ المرجع.

(٢٨) ٢٣٣ « (٢٩) ٢٣٥ «

(٣٠) ص ٢ أسرار البلاغة - شرح محمد رشيد رضا - ط ١٩٥٩

(٣١) ٢٤٦ - ٢٥٧ الدلائل

(٣٢) ١٦٣ البيان العربي - الطبعة الثالثة - د. طبانة

(٣٣) ١٦٤ المرجع نفسه

(٣٤) ١٧٧ « «

(٣٥) ك - مقدمة دلائل الإعجاز

(٣٦) ٨ دلائل الأعجاز .

(٣٧) ١٩٠ دلائل الإعجاز

(٣٨) راجع ١٥٤ - ١٦١ الفصل القيم الذى كتبه د : مندور فى كتابه «فى الميزان الجديد» فى الموضوع - الطبعة الثانية

(٣٩) ١٥٥ و ١٦١ المرجع نفسه

(٤٠) ١٥٧ المرجع نفسه

(٤١) ١٤١ « «

(٤٢) راجع كتابى : بلاغة عبد القاهر ، وكتاب التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن ، لابن الزملكانى (- ٦٥١ هـ) تحقيق د. أحمد مطلوب طبع بغداد ، وتاريخ فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصى طبع دمشق ، ونظرية عبد القاهر فى النظم (بحث للدكتور مصطفى ناصف منشور بحوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس يناير ١٩٥٥) .

البلاغة العربية فى العصر الحديث

— ١ —

تعددت المذاهب الأدبية فى العصر الحديث ، وتعددت معها فى أذهان المعاصرين المفاهيم البيانية ، ودعوا دعوات كثيرة حول البلاغة ، دعا البعض إلى الاهتمام بالمضمون ، وإلى مذهب الالتزام فى الأدب ودعا آخرون إلى العناية بالشكل والصورة ، ودعا الزيات إلى التوازن بين هذين العنصرين(١)، ودعا سلامة موسى فى كتابه « البلاغة العصرية » إلى العامية وإلى نبذ البلاغة القديمة التى سماها بلاغة الانفعال والعاطفة داعياً إلى ما سماه بلاغة المنطق أى أن يكون المنطق لا اللغة أساس البلاغة .

وألف الزيات كتابه « دفاع عن البلاغة » رأى فيه أن البلاغة العربية تلاقى ثلاث صعوبات هى : الصحافة ، والسرعة ، والتطفل أى تطفل بعض ذوى الجاه على الأدب ، وحدد البلاغة بأنها ملكة يؤثر بها صاحبها فى عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو الكلام ، ورأى أن البلاغة لا تفصل بين العقل ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين الموضوع والشكل . ورأى أن الفكر والصورة والأسلوب لا يتجزأ ، وأن الأسلوب مركب من عناصر هى الأفكار والصور والعواطف ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة ، وأشار إلى قضية اللفظ والمعنى ، وذهب مذهب أنصار الصياغة ، ورجع صفات الأسلوب إلى ثلاثة : الأصالة ، الوجازة ، التلاؤم أو الموسيقية ،

— ٢ —

وألف الأستاذ محمد عرفة كتابه « مشكلة اللغة العربية » ، حيث رأى فيه أن نعمل على أن تكون العربية هى لغة البيت والمدرسة والشارع عن طريق

(١) ٤ : ٤٢ وحى الرسالة .

بعث ملكتها فى نفوس التلاميذ الصغار بالحفظ للنصوص الأدبية المختارة لا بالاعتماد على القواعد الجافة .

وألف أحمد الشايب كتابه الأسلوب الذى دعا فيه إلى العناية بدراسة الأسلوب وخصائصه ، ودراسات الأسلوب تبدأ بدراسة الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة ، وعلم المعانى عنده يدخل فى بحث الجملة ، وعلم البيان ، وأغلب علم البديع يدخل فى باب الصورة كما دعا إلى دراسة الفنون الأدبية من قصة ومقالة ووصف ورسالة ومناظرة وتاريخ . وجعل صفات الأسلوب هى : الوضوح ، والقوة والجمال ، وجاراه قليلا الجارم فى كتابه المدرسى « البلاغة الواضحة » .

— ٣ —

وجاء أمين الخولى فألف كتابه « فن القول » محاولة منه لمنهج بلاغى جديد ، وفن القول عنده هو البلاغة بلغة العلماء القدامى والمحدثين ، وفى هذا الكتاب يدعو إلى دراسة فن القول وعلاقته بعلوم الفلسفة والجمال والنفس وتبدأ الدراسة بالكلمة ، ثم الجملة ، ثم الفقرة ، ثم تدرس صور التعبير التى قسمها قسمين :

١ — صور الإيضاح المعلن وهى : التشبيه — الاستعارة — المجاز — الكناية — التجريد — القلب — الأسلوب الحكيم — المبالغة — تأكيد المدح بما يشبه الذم — التدبيج — التهكم — التجاهل — الفكاهة .

٢ — صور التعبير المظللة من رمز وإيماء وإلغاز وتورية واستخدام واتساع .

ثم تدرس البلاغة فى القطعة الأدبية ، ثم البلاغة فى الأساليب الفنية فى الأدب .

— ٤ —

وقد سار الأزهر على منهج البلاغة القديمة ، وعلى هـذا المنهج ألفت كتب كثيرة فى البلاغة . منهـا : البلاغة الواضحة للجارم ، والبلاغة العربية لخفاجى ، والبلاغة لعونى ، والبلاغة للمراغى ، وغيرها .

وقد حاول الإمام محمد عبده تجديد دراسات البلاغة من قبل فى الأزهر بتدريسه لكتابى عبد القاهر (الأسرار ، والدلائل) .

من مقدمة الشيخ رشيد رضا للكتاب

لما هاجرت إلى مصر فى سنة ١٣١٥ هـ لإنشاء « المنار » الإسلامى ألفيت إمام النهضة الإسلامية الحديثة الأستاذ الحكيم الشيخ محمداً عبده رئيس جمعية إحياء العلوم العربية ومفتى الديار المصرية اليوم مشتغلا فى بعض وقته بتصحيح كتاب « دلائل الإعجاز » للإمام عبد القاهر الجرجانى وقد استحضر نسخة من المدينة المنورة ، ومن بغداد ، ليقابلها على النسخة التى عنده .

فسألته عن كتاب « أسرار البلاغة » للإمام المذكور فقال إنه لا يوجد فى هذه الديار ، فأخبرته بأن فى أحد بيوت العلم فى طرابلس الشام نسخة منه فحثنى على استحضارها وطبعها ، فطلبتها من صديقى الأديب عبد القادر المغربى ، وهى مما تركه له والده ، فلبى الطلب .

وعلمنا أن نسخة أخرى من الكتاب فى إحدى دور الكتب السلطانية فى دار السلطنة السنية ، فندبنا بعض طلاب العلم الأذكياء لمقابلة نسختنا بتلك النسخة ، فخرج لنا من مجموعهما نسخة صحيحة ، شرعنا فى طبعها ، ووضعنا فى ذيل المطبوع شرحاً لطيفاً ضبطنا فيه الكلمات الغريبة ، وفسرنا منها ومن جمل الكتاب ما رأيناه يستحق التفسير ، وأشرنا إلى الخلاف بين النسختين ، فيما يحتمل صحة الاثنتين .

أما كون عبدالقاهر هو واضع الفن ومؤسسه ، فقد صرح به غير واحد من العلماء الأعلام ، أجلهم قدراً ، وأرفعهم ذكراً ، يحى بن حمزة الحسينى صاحب كتاب « الطراز » فى علوم حقائق الإعجاز » ، فقد قال فى فاتحة كتابه هذا ، وهو من أحسن ما كتب فى البلاغة بعد عبد القاهر ما نصه :

« أول من أسس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ، ورتب أفانينه ، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجانى ، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزاهره من أكامها ، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها ، فجزاه الله عن الإســـلام أفضل الجزاء وجعل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب والأجر . وله من المصنفات فيه كتابان أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة ، ولم أقف على شيء منهما ، مع شغفى بحبهما وشدة إعجابى بهما ، إلا ما نقله العلماء من تعاليقهم منهما » .

لهذا بادر الأستاذ الإمام ، مفتى الديار المصريه فى هـذه الأعوام إلى تدريس الكتاب فى الأزهر الشريف عقب شروعنا فى طبعه ، فأقبل على حضور درسه مع أذكياء الطلاب كثيرون من العلماء والمدرسين وأساتذة المدارس الأميرية . وقد قال أحد فضلاء هؤلاء الأستاذين بعد حضور الدرس الأول : « إننا قد إكتشفنا فى هذه الليلة معنى علم البيان » .

الكتاب

ملاحظـــة

كل ما وضع بين قوسين هكذا (   )
فهو من زياداتنا على أصل الكتاب
قصد به تجلية مضامينه ، وتوضيح غوامضه
وتقريب فهمه لقارئه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله أجمعين .

مقـــدمة الـكتاب

(بقلم عبد القاهر الجرجانى)

(البيان) :

اعلم أن الـكلام هو الذى يعطى العلوم منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجنى صنوف ثمرها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها ، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان ، ونبه فيه على عظم الامتنان ، فقال عز من قائل « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان(١) » فلولاه لم تـكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ، ولا يصح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوى الخواطر والأفـكار من معانيها ، واستوت القضية فى موجودها وفانيها .

نعم ، ولوقع الحى الحساس فى مرتبة الجماد ، ولـكان الإدراك كالذى ينافيه من الأضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعانى مسجونة فى مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة(٢) ، والأذهان عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان ، ولما ظهر فرق بين مدح وتزيين ، وذم وتهجين(٣) .

---

(١) سورة الرحمن الآيات ١ - ٤ (٢) من العقل وهو تقييد الحركة.

(٣) ينوه عبد القاهر هنا بفضيلة الـكلام ليبنى على ذلك معرفة العنصر الذى يوصف بالبلاغة فيه .

ثم إن الوصف الخاص به، والمعنى المثبت لنسبه، أنه يريك المعلومات بأوصافها التى وجدها العلم عليها، ويقرر كيفياتها التى تنالها المعرفة إذا سمعت إليها (١).

(فضيلة البيان للتأليف «الأسلوب» لا للفظ):

وإذا كان هذا الوصف مقوم ذاته، وأخص صفاته، كان أشرف أنواعه ما كان فيه أجلى وأظهر، وبه أولى وأجدر. ومن ههنا يبين للمحصل، ويتقرر فى نفس المتأمل، كيف ينبغى أن يحكم فى تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان.

ومن البين الجلى أن التباين فى هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرد اللفظ، كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب؟

فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده(٢)، ونظامه الذى عليه بنى، وفيه أفرغ المعنى وأجرى، وغيرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول فى:

١ — «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»(٣)

«منزل قفا ذكرى من نبك حبيب» أخرجته من كمال البيان، إلى محال الهذيان، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل، ونسب يختص بمتكلم.

(١) راجع «البيان والتبيين» للجاحظ فى هذا الباب (١ : ٦٧ و ٦٩).

(٢) أى نظمه.

(٣) هو الشطر الأول من معلقة امرىء القيس المشهورة، وتتمة البيت: بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

(لا يفيد الكلام إلا بالتأليف) :

وفى ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذى له كانت هذه الكلم بيت شعر أوفصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة(١)، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحكم — أعنى الاختصاص فى الترتيب — يقع فى الألفاظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل. ولن يتصور فى الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصص فى ترتيب وتنزيل.

وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل فى الجمل المركبة، وأقسام الكلام المدونة، فقيل: من حق هذا أن يسبق ذلك، ومن حكم ماها هنا أن يقع هنالك، كما قيل فى المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل، حتى حظر فى جنس من الكلم بعينه أن يقع إلا سابقاً، وفى آخر أن يوجد إلا مبنيا على غيره وبه لاحقا، كقولنا: «إن الاستفهام له صدر الكلام»، وإن الصفة لا تتقدم على الموصوف، إلا أن تزال عن الوصفية — إلى غيرها من الأحكام.

فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً، أو يستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوى، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده(٢).

---

(١) يعنى بالترتيب النظم.

(٢) أفاض عبد القاهر فى شرح هذا فى «دلائل الإعجاز»، وبخاصة فى (ص ٨٣ دلائل تحقيق الخفاجى)، وراجع البيان والتبيين، الطبعة الثالثة بشرح السندوبى ١ : ٧٣ و ٧٩.

(وصف اللفظ بالفصاحة وأسبابه) :

وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى[١] فيه ، وكونه من أسبابه ودواعيه ، فلا يكاد يعدو نمطا واحداً ، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ، ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريباً ، أو عامياً سخيفاً : سخفه بإزالته عن موضوع اللغة ، وإخراجه عما فرضته من الحكم والصفة : كقول العامة « أشغلت » و « انفسد »[٢]. وإنما شرطت هذا الشرط[٣] فإنه ربما استخف اللفظ بأمر يرجع إلى المعنى دون مجرد اللفظ كما يحكى من قول عبيدالله بن زياد[٤] لما دهش : افتحوا لى سيفى »[٥] وذلك أن الفتح خلاف الإغلاق فحقه أن يتناول شيئاً هو فى حكم المغلق والمسدود ، وليس السيف بمسدود ، وأقصى أحواله أن يكون كونه فى الغمد بمنزلة كون الثوب فى العكم[٦] ، والدرهم فى الكيس ، والمتاع فى الصندوق ، والفتح فى هذا الجنس يتعدى أبداً إلى الوعاء المسدود على

---

(١) المراد بالمعنى : النظم والتأليف على نهج مخصوص ترتب فيه الألفاظ على نسق المعانى .

(٢) ففصاحة الكلمة عند عبد القاهر بخلوها من الغرابة والعامية ، ومن مخالفة القياس اللغوى ، ومن التنافر ، وقد ذكر التنافر فى دلائل الإعجاز (ص ٩٨ - ١٠١ تحقيق الخفاجى) .

(٣) هو أن يكون السخف آتيا من جهة إزالته عن وضع اللغة .

(٤) قتله المختار الثقفى عام ٦٧ هـ ، وكان من الولاة لبنى أمية وكتب عنه الجاحظ (٢ : ٢٥٥ و ٢٥٦ البيان والتبيين) .

(٥) فى « البيان » أنه قال لجنده : افتحوا سيوفكم أى سلوها .

(٦) العكم بكسر العين : نمط تجعل المرأة فيه ذخيرتها .

الشيء الحاوى له ، لا إلى ما فيه ، فلا يقال : افتح الثوب ، وإنما يقال افتح العكم ، وأخرج الثوب ، وافتح الكيس .

وههنا أقسام : قد يتوهم فى بدء الفكرة(١) ، وقبل إتمام العبرة ، أن الحسن والقبح فيها(٢) لا يتعدى اللفظ والجرس ، إلى ما يناجى فيه العقل والنفس ، ولها (٣) إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك(٤) ، ومنصرف فيما هنالك ، منها التجنس والحشو(٥) .

فصل فى التجنيس

(بلاغة التجنيس) :

أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل(٦) موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله(٧) :

٢ — ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واستحسنت تجنيس القائل :

(١) أى التفكير . (٢) أى فى الكلمة .

(٣) أى للفضيلة والفصاحة .

(٤) أى إلى المعنى لا إلى اللفظ .

(٥) المراد بالحشو : الاعتراض ـ والمعنى : قد يتوهم أن الفصاحه تعود إلى اللفظ فى هذين الجنسين من الكلام والتجنيس والحشو .

(٦) أى المعنى .

(٧) البيت من قصيدة مدح بها الحسن بن وهب ، وهو فى الموازنة ص ١٢٢ ، والوساطة ص ٦٨ .

وذكر عبد القاهر فى دلائله التجنيس والسجع ، وبلاغتهما عنده أن يجيئا عن الطبع وأن يطلبهما المعنى .

٣ — حتى نجا من خوفه وما نجا(١)

وقول المحدث(٢) :

٤ — ناظراه فيما جـــنى ناظراه   أو دعانى أمت بمـــا أودعانى

— لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس - وخصوصاً المستوفى(٣) منه المتفق فى الصورة - من حلى الشعر ومذكوراً فى أقسام البديع.

فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى والمصرفة فى حكمها ، وكانت المعانى هى المالكة سياستها ، المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين(٤) .

(١) راجع هذا الشاهد فى « البيان والتبيين » ١ : ١١٤ ، وفى الحيوان (٣ : ٢٣) : ومن الإيجاز قول الراجز يصف سهما حين رمى عيراً وكيف صرعه : حتى نجا من خوفه ، وفى البيان ، حتى نجا من جوفه .

(٢) هو أبو الفتح البستى ، وفى اليتيمة ٣ : ٢٢٩ أن البيت لشمسويه البصرى أو لأبى الحسن الطاهر البصرى ، وتكلم عبد القاهر فى الدلائل على البيت .

(٣) أى التام سواء أكان مماثلا أم ما سماه المتأخرون المستوفى وهو ما كان الجناس فيه بين نوعين كاسم وفعل ، ولكن عبد القاهر يريد به ما يعم المماثل وهو ما كان من نوع واحد .

(٤) ينفى عبد القاهر أن تعود الفصاحة إلى اللفظ لذاته بمعزل عن المعنى .

(البلاغة ليست فى العناية بالسجع) :

ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجية الطبع ، أمكن فى العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوى التحصيل ، وأسلم من التفاوت وأكشف عن الأغراض، وأنصر للجهة التى تنحو نحو العقل ، وأبعد من التعمل(١) ، الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق ، والرضى بأن تقع النقيصة فى نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من الوشم والنقش ، وأثقل صاحبها بالحلى والوشى ، قياس الحلى على السيف الددان(٢) والتوسع فى الدعوى بغير برهان ، كما قال(٣) :

٥ — إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى « البديع » إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ماعناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما تكلفه على المعنى وأفسده كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها .

فإن أردت أن تعرف مثالا فيما ذكرت لك ، من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعوجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، وإلا حيث يأمنون جناية منه عليه ، وانتقاصاً له ، وتعويقاً دونه ، فانظر

---

(١) أى التكلف .

(٢) الذى لا يقطع .

(٣) أى أبو الطيب المتنبى يصف الخيل من قصيدة يمدح بها كافورا الأخشيدى والضمير فى شياتها يعود إلى الخيل التى يصفها .

إلى خطب الجاحظ فى أوائل كتبه ، هذا ـ والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع ، فإنها(١) تروى وتتناقل تناقل الأشعار ، ومحلها محل النسيب والتشبيب من الشعر الذى هو كأنه لا يراد منه إلا الاحتفال فى الصنعة ، والدلالة على مقدار شوط القريحة ، والإخبار عن فضل القوة ، والاقتدار على التفنن فى الصنعة ، قال فى أول كتاب « الحيوان » :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سبباً ، وبين الصدق نسباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين فى عينك الإنصاف وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس وعرفك ما فى الباطل من الذلة، وما فى الجهل من القلة(٢) »

فقد ترك أولا أن يوفق بين الشبهة والحيرة فى الإعراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف إلى الإنصاف ، ويشفع الحق بالصدق ، ولم يعن بأن يطلب لليأس قرينة تصل جناحه ، وشيئاً يكون رديفا له ، لأنه رأى التوفيق بين المعانى أحق ، والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى تكون إخوة من أب وأم ، ويذرها على ذلك تتفق بالوداد ، على حسب اتفاقها بالميلاد ، أولى من أن يدعها ـ لنصرة السجع، وطلب الوزن ـ أولاد علة، عسى(٣) ألا يوجد بينها وفاق إلا فى الظواهر ، فأما أن يتعدى ذلك إلى الضمائر ، ويخلص إلى العقائد والسرائر ، ففى الأقل النادر .

وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولا ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون

---

(١) تعليل لاعتماد الأوزان ، والسجع ، فى مقدمات الكتب .

(٢) ذكر الجرجانى ذلك فى دلائل الإعجاز أيضاً ص١٢٩ بتحقيق الخفاجى.

(٣) أولاد الأعيان : هم الأشقاء ، وأولاد العلات (بفتح العين) : هم لأمهات مختلفة وأبوهم واحد ، وأولاد الأخياف بالعكس . وفى هذا المعنى يقول الشاعر : وبعض قريض القوم أولاد علة .·. يكد لسان الناطق المتحفظ (١ : ٦٣ البيان للجاحظ) :

المعنى هو الذى طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ، ولا تجد عنه حولا ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعة وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه : ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته - وإن كان مطلوباً - بهذه المنزلة ، وفى هذه الصورة . وذلك كما يمثلون به أبداً من قول الشافعى رحمه الله تعالى ، وقد سئل عن النبيذ فقال : « أجمع أهل الحرمين على تحريمه(١) » ، ومما تجده كذلك قول البحترى (٢) :

٦ - يمشى عن المجد الغنى ولن ترى — فى سؤدد أرباً لغير أريب

وقوله(٣) :

٧ - وقد أصبحت أغلب تغلبيا(٤) — على أيدى العشيرة والقلوب

ومما هو شبيه به قوله(٥) :

٨ - وهوى هوى بدموعه فتبادرت — نسقا يطأن تجلداً مغلوباً

وقوله(٦) :

٩ - مازلت تقرع باب بابك(٧) بالقنا — وتزوره فى غارة شعواء

(١) هذا مروى لعبد الله بن إدريس ، لا للشافعى — راجع كتاب البديع لابن المعتز . وفى الصناعتين : جل أمره عن المسألة ، أجمع الخ — راجع ص ٣١٤ الصناعتين - طباعة صبيح .

(٢) من قصيدة يمدح بها أبناء نوبخت . وقبل البيت :

فلربما ابيت داعية الصبا — وعصيت من عذل ومن تأنيب

(٣) يمدح هيثم بن هارون بن المعمر .

(٤) يروى : أغلب تغلبى بالإضافة .

(٥) أى البحترى يمدح محمد بن يوسف الثغرى .

(٦) يمدح أبا سعيد ، وهو قائد من قواد العباسيين .

(٧) هو : بابك الخرمى الثائر على الخلافة الذى قتله المعتصم .

وقوله(١) :

١٠ - ذهب الأعالى حيث تذهب مقلة   فيه بناظرها ، حديد الأسفل

ومثال ما جاء من السجع هذا المجىء(٢) وجرى هذا المجرى فى لين مقادته : وحل هذا المحل من القبول قول القائل(٣): « اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجداً ، فلا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال » وقول ابن العميد : « فإن الإبقاء على خدم السلطان ، عدل الإبقاء على ماله ، والإشفاق على حاشيته وحشمه ، عدل الإشفاق على ديناره ودرهمه » .

ولست تجد هذا الضرب يكثر فى شىء ويستمر ،كثرته واستمراره فى كلام القدماء ، كقول خالد(٤) : « ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة، وبهيمة مهملة » وقول الفضل(٥) بن عيسى الرقاشى : سل الأرض فقل: من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً .

---

(١) أى البحترى يمدح محمد بن على بن عيسى القمى ، ويشكره على جواد أهداه له ، والجناس بين ذهب وتذهب .

(٢) بأن وقع عن غير قصد .

(٣) هو قيس بن سعد الخزرجى للامام على بن أبى طالب : وقبل ذلك : إنى لا أصلح على القليل ولا يصلح القليل لى (راجع البيان والتبيين ١ : ٧٢ ، ٢ : ٧٦ ، ٣ : ١٦٤ ، ٢٥٦ ، ٢٩٤ الوساطة .

(٤) خالد بن صفوان : بليغ لحانة (١ : ٣٦ ، ٢ : ١٦١ البيان) .

(٥) هو الفضل بن عيسى بن عبد الصمد ، مولى رقاش ، شاعر مطبوع . اختص بالبرامكة ، كان بينه وبين أبى نواس منافرات (١ : ٢٠٣، ٧٢، ٣ : ٥٢ البيان والتبيين) .

وإن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبى ﷺ ، تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التى قدمت ، وذلك كقول النبى عليه السلام « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله صلوات الله عليه « لاتزال أمتى بخير ما لم ترالفىء مغنما، والصدقة مغرما » ، وقوله : « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظاً اجتلب من أجل السجع ، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه ، وأبر به ، وأهدى إلى مذهبه ، ولذلك أنكر الأعرابى حين شكا إلى عامل الماء بقوله : حلأت ركابى، وشققت ثيابى وضربت صحابى، ودفعت إبلى من الماء والكلأ (١) ، فقال له العامل أو تسجع أيضاً؟، إنكار(٢) العامل السجع ، حتى قال : فكيف أقول؟ وذلك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ، ولم يره بالسجع مخلا بمعنى ، أو محدثاً فى الكلام استكراها ، أو خارجا إلى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه . وقال الجاحظ(٣) : لأنه لو قال حلأت إبلى وجمالى أو نوقى أو بعرانى أو صرمتى(٤) ، لكان لم يعبر عن خفى معناه ، وإنما حلئت ركابه ، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟ وكذلك قوله وشققت ثيابى وضربت صحابى.

فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو (٥) بالقبول

---

(١) الزيادة عن البيان والتبيين ١ : ١٧٤ .

(٢) مفعول مطلق لأنكر .

(٣) ١ : ١٩٤ البيان .

(٤) القطعة من الأبل فوق العشر إلى الأربعين ، وقيل : ما بين ثلاثين إلى الأربعين .

(٥) وهو التجنيس والسجع .

هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليهما ، وعبر به الفرق(١) عليهما ، حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع ، لدخل من عقوق المعنى ، وإدخال الوحشة عليه ، فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر(٢) .

ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولا وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض(٣) إلا ما يزينها ، فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض(٤) الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم ، فإن ساعدك الجد كما ساعد فى قوله(٥) .

١١ — أودعانى أمت بما أودعانى(٦)

وكما ساعد أبا تمام فى نحو قوله(٧) :

---

(١) أى الخوف.

(٢) يقول الجاحظ فى السجع : إنما يستحسن ذلك إذا لم يطل ولم تكن القوافى مطلوبة مجتلبة أو ملتمسة متكلفة (١ : ١٩٣ - ١٩٥ البيان والتبيين) .

(٣) جمع معرض ، وهو الثوب تجلى فيه العروس .

(٤) أى بجانب ، بضم فسكون ، وبفتحتين أيضاً .

(٥) أى البستى .

(٦) مضى هذا الشاهد (راجع الشاهد ٤) - وسيأتى أيضاً (الشاهد ٢١)

(٧) يمدح موسى بن إبراهيم الرافقى ويعتذر إليه .

١٢ - وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

وقوله(١) :

١٣ - هن الحمام فإن كسرت عيافة من حائهن فإنهن حمام

فذاك ، وإلا أطلقت ألسنة العيب . وأفضى بك طلب الإحسان ، من حيث لم يحسن الطلب ، إلى أفحش الإساءة ، وأكبر الذنب ، ووقعت فيما ترى(٢) ، من ينصرك لا يرى أحسن من ألا يرويه لك ، ويود لو قدر على نفيه عنك ، وذلك كما تجده لأبي تمام ، إذا أسلم نفسه لتكلف ، ويرى أنه إن مر على اسم موضع يحتاج إلى ذكره ، أو يتصل بقصة يذكرها في شعره ، من دون أن يشتق منه تجنيساً ، أو يعمل فيه بديعاً ، فقد باء بإثم ، وأخل بفرض حتم ، من نحو قوله(٣) .

١٤ - سيف الأنام الذي سمته هيبته لما تخرم أهل الأرض مخترما

إن الخليفة لما صال كنت له خليفة الموت فيمن جار أو ظلما

قرت بقران عين الدين وانشترت بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

---

(١) من قصيدة يمدح بها المأمون ، والعيافة : زجر الطير ، والحمام بكسر الحاء : المنية : وقد تكلم أبو هلال عن البيت وأورد رأي من استهجنه ورد عليه بأنه يحتمل أن يكون المعنى إذا أردت الزجر والعيافة أداك هذا إلى الحمام وإن كان هذا تعقيداً (الصناعتين ص ١١٣ ، ١١٤ طبعة صبيح) .

(٢) تأثر عبد القاهر فيما كتبه عن تعريف التجنيس وأقسامه بالوساطة (٤٣ - ٤٥ طبعة صبيح) ، وفيما كتبه عن السجع بالباقلاني كذلك .

(٣) أي قول أبي تمام يمدح إسحاق بن إبراهيم المصعبي. قران والأشتران: أسماء مواضع . والانشتار : استرخاء جفن العين ، والجناس هنا ضعيف مبتذل لأنه جناس لفظي لا يرجع إلى المعنى بسبب .

وكقول بعض المتأخرين(١) :

١٥ — البس جلاليب القنا عة إنها أوقى رداء
ينجيك من داء الحريـ ص معاً ومن أوقار داء(٢)

وكقول أبي الفتح البستي(٣) :

١٦ — جفوا فما طينهم للذى يعصره من بله بالله

وقوله :

١٧ — أخ لى لفظه در وكل فعالة بر
تلقانى تحياتى بوجه بشره بشر(٤)

لم يساعدهما حسن التوفيق كما ساعد فى نحو قوله(٥) :

١٨ — وكل غنى يتيه به غنى فمرتجع بموت أو زوال
وهب جدى طوى لى الأرض طراً أليس الموت يزوى مازوى لى

ونحوه(٦) :

١٩ — منزلتى تحفظ من ذلتى وباحتى تكرم ديباجتى

---

(١) هو عمر بن على المطوعى من شعراء القرن الرابع الهجرى .
(٢) الوقر بفتح الواو : يجمع على أوقار .
(٣) من شعراء اليتيمة توفى عام ٤٠٠ هـ والبلة الندى .
(٤) راجع ٤ : ٢٢٣ اليتيمة — البشر بوزن أمل كالبشرة معنى — والبيتان للبستى .
(٥) هو الأمير أبو الفضل الميكالى — راجع ذيل زهر الآداب ص٢٣٥ والجد بفتح الجيم : الحظ ، ويروى : يفرق . وزوى : جمع .
(٦) اليتيمة ٣/٢٢٩ . والباحة : الطريقة المستوية من السبيل .

واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس ، وجعلتها العلة فى استيجابه الفضيلة ، وهى « حسن الإفادة ، مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة » ، وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذى لا يمكن دفعه إلا فى المستوفى(١) المتفق الصورة منه كقوله(٢) » :

٢٠ — مامات من كرم الزمان فإنه يحيــا لدى يحيى بن عبد الله

أو المرفو(٣) الجارى هذا المجرى كقوله :

٢١ — أو دعانى أمت بما أودعانى(٤)

فقد(٥) يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضاً .

فمما يظهر ذلك فيه ما كان نحو قول أبى تمام(٦) :

٢٢ — يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

وقول البحترى(٧) :

٢٣ — لئن صدفت عنا فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم

---

(١) هو ما كان اللفظان فيه من نوعين كاسم وفعل .

(٢) هو أبو تمام فى مدح أبى الغريب يحيى بن عبد الله .

(٣) ما كان أحد لفظى الجناس مركبا من كلمة وبعض أخرى .

(٤) مضى هذا الشاهد فى الشاهد ٤ و ١١ .

(٥) جملة « قد يتصور » خبر أن واسمها النكتة والفاء فى « فقد » زائدة .

(٦) فى مدح أبى دلف وهذا من الجناس المطرف الناقص . عواص : جمع عاصية من عصاه يعصوه إذا ضربه بالعصا . عواصم : من عصمه : حفظه . قواض : من قضى ، قواضب : قواطع .

(٧) فى مدح إسحاق بن يعقوب .

والهاء من قواضب أنهما هى التى مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ، حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ، وفى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال .

فأما ما يقع التجانس فيه على العكس من هذا وذلك أن تختلف الكلمات من أولها(١) ، كقول البحترى :

٢٤ — بسيوف إيماضها أوجال   للأعادى ووقعها آجال

وكذا قول المتأخر(٢) :

٢٥ — وكم سبقت منه إلى عوارف   ثنائى من تلك العوارف وارف

وكم غرر من بره ولطائف   لشكرى(٣) على تلك اللطائف طائف

وذاك أن زيادة عوارف على وارف بحرف اختلاف من مبدأ الكلمة فى الجملة ، فإنه(٤) لا يبعد كل البعد عن اعتراض طرف من هذا التخيل فيه ، وإن كان لا يقوى تلك القوة ، كأنك ترى أن اللفظة أعيدت عليك مبدلا من بعض حروفها غيره أو محذوفا منها .

ويبقى فى تتبع هذا الموضع كلام حقه غير هذا الفصل ، وذلك حيث يوضع فصل فى قسمة التجنيس وتنويعه .

---

(١) وهو الجناس المضارع . أوجال : مخاوف جمع وجل بفتح الجيم وهو الخوف .

(٢) هو عمر بن على المطوعى .

(٣) يروى : فشكرى (معاهد التنصيص) .

(٤) جواب « فأما » سابقا .

(أقسام التجنيس) :

فالذى يترتب عليه الاعتماد فى هذا الفن أن التوهم على ضربين :

ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقاداً .

وضرب لا يبلغ ذلك المبلغ ولكنه شىء يجرى فى الخاطر وأنت تعرف ذلك وتتصور وزنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشبه التام ، والشيئين يشبه أحدهما بالآخر على ضرب من التقريب ، فاعرفه (١) .

الحشو

وأما الحشو فإنما كره وذم ، وأنكر ورد ، لأنه خلا من الفائدة ، ولم يحل منه بعائدة ، ولو أفاد لم يكن حشواً ، ولم يدع لغواً ، وقد تراه مع إطلاق هذا الإسم عليه واقعاً من القبول أحسن موقع ، ومدركا من الرضى أجزل حظ ، ذاك لإفادته إياك على مجيئه مجىء ما لا يعول فى الإفادة عليه ، ولا طائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترقبها ، والنافلة أتتك ولم تحتسبها ، وربما رزق الطفيلى ظرفاً يحظى به حتى يحل محل الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم ، والأحباب الذين وثق بالأنس منهم وبهم (٢) .

---

(١) الفرق بين التجنيس والتكرير أن الثانى تتحد الألفاظ المكررة فيه فى المعنى بعكس الأول (راجع ٤٤ وساطة) . وكان الشيخ محمد عرفه يرى أن سر بلاغة ألوان البديع ومنها التجنيس هو ما فيها من تناسب .

(٢) جعل صاحب الصناعتين الحشو ثلاثة أضرب :

١ ـ الزيادة التى يستغنى عنها فى الكلام لو حذفت .

٢ ـ العبارة عن المعنى بكلام طويل لا فائدة فيه وهذان الضربان مذمومان والثالث هو المحمود . ٣ ـ الاعتراض مثل « إن الثمانين وبلغتها » .

فصل فى التطبيق والاستعارة

وأما التطبيق(١) والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة(٢) من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك نصيب ، أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب .

أما الاستعارة فهى ضرب من التشبيه ، ونمط من التمثيل ، والتشبيه قياس ، والقياس يجرى فيما تعيه القلوب ، وتدركه العقول ، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والآذان .

وأما التطبيق (٣) فأمره أبين ، وكونه معنوياً أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشيء بضده ، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال ، وليس لأحكام المقابلة ثم مجال .

فخذ(٤) إليك الآن بيت الفرزدق الذى يضرب به المثل فى تعسف اللفظ :

---

(١) أى المطابقة .

(٢) هذا يخالف مذهب المتأخرين الذين ذهبوا إلى أن المحسنات المعنوية للألفاظ فيها شركة للتحسين وإن كان بالعرض ، ويقولون : إننا لو وضعنا بدل « فليضحكوا » فى قوله تعالى « فليضحكوا قليلا » لفظا آخر لما أدى المعنى المراد مع وجود الطباق .

(٣) هو المطابقة .

(٤) رجع عبد القاهر إلى كلامه الأولى فى أول هذا الكتاب الذى =

٢٦ — وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمــه حى أبوه يقاربه(١)

فانظر : أتتصور أن يكون ذمك للفظه من حيث إنك أنكرت شيئاً من حروفه ، أو صادفت وحشيا غريباً ، أو سوقيا ضعيفا ؟ أم ليس إلا لأنه لم يرتب الألفاظ فى الذكر ، على موجب ترتيب المعانى فى الفكر ؟ فكد وكدر ، ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدم ويؤخر ، ثم أسرف فى إبطال النظام ، وإبعاد المراد، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة، ولكن بعد أن يراجع فيها باباً من الهندسة . لفرط ما عادى بين أشكالها ، وشدة ماخالف بين أوضاعها .

وإذا وجدت ذلك أمراً بيناً لا يعارضك فيه شك ، ولا يملكك معه امتراء . فانظر إلى الأشعار التى أثنوا عليها من جهة الألفاظ ، ووصفوها بالسلامة ، ونسبوها إلى الدماثة(٢) ، وقالوا : كأنها الماء جريانا ، والهواء لطفا ، والرياض حسناً ، وكأنها الرحيق مزاجها التسنيم(٣) ، وكأنها الديباج الخسروانى فى مرامى الأبصار ، ووشى اليمن منشوراً على أذرع التجار(٤) كقوله (٥) :

= ذهب فيه إلى أن الاستحسان البلاغى راجع إلى سحر التأليف كما هو راجع فى بلاغة القرآن للمعنى .

(١) سيأتى ، فى موضع آخر . (٢) السهولة .

(٣) ماء يجرى فى الجنة أعلى الغرف .

(٤) ما كتبه عبد القاهر هنا عن النظم شبيه بما فى العقد الفريد (١٣/٤) نقلا عن ابن المدبر .

(٥) لكثير عزة . ونسبها صاحب الوساطة والصناعتين ص ٤٢ والخصائص لابن جنى ص ٢٢٥ إلى يزيد بن الطثرية ، وراجعها فى البيان ١٨٠/٢ . وزهر الآداب ٥٦/٢ .

٢٧ — ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

ثم راجع فكرتك ، واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجوز فى الرأى ، ثم انظر هل تجد لإستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم[١] منصرفا إلا إلى استعارة وقعت موقعها ، وأصابت غرضها ، أوحسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع ، واستقر فى الفهم مع وقوع العبارة فى الأذن ، وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد ، والفضل الذى هو كالزيادة فى التحديد ، وشىء داخل المعانى المقصودة مداخلة الطفيلى الذى يستثقل مكانه ، والأجنبى الذى يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذى يفتقر معه السامع إلى تطلب زيادة بقيت فى نفس المتكلم فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها . واعتمد دليل حال غير مفصح ، أو نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح ، وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال :

٢٧ — ولما قضينا من منى كل حاجة

فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ، ثم نبه بقوله :

٢٧ — ومسح بالأركان من هو ماسح

على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ، ثم قال :

---

(١) يرى ابن قتيبة أنها ألفاظ جميلة ليس تحتها كبير معنى (١٠ الشعر والشعراء تعليق السقا) ، وكذلك أبو هلال (٥٨ الصناعتين) .

٢٧ — أخذ بأطراف الأحاديث بيننا

فوصل بذكر مسح الأركان ، ما وليه من زم الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة الأطراف على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول ، وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتظرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهاني والتحايا من الخلان والإخوان .

ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه ، فصرح أولا بما أومأ إليه في الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفي حال التوجه إلى المنازل ، وأخبر بعد بسرعة السير ، ووطاءة الظهر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان في ذلك ما يؤكد ما قبله ، لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك في نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً .

ثم قال « بأعناق المطى » ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً في أعناقها ، ويبين أمرهما من هواديها(١) وصدورها وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة . وتتبعها في الثقل والخفة . ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا في أنفسها بأفاعيل لها خاصة في العنق والرأس . ويدل عليهما بشمائل مخصوصة في المقاديم(٢) .

---

(١) أعناقها .

(٢) ملاحظة : ذم هذه الأبيات ابن قتيبة في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » ، وتبعه ذلك صاحب الصناعتين ، وجاء ابن جني فمدحها وتبعه عبد القاهر .

فقل الآن : هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها ، حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة لو ذكرت على الانفراد وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه ، وحتى تكون فى ذلك كالجوهرة التى هى — وإن ازدادت حسناً بمصاحبة أخواتها . واكتست رونقاً بمضامة أترابها — فانها إذا جليت للعين فردة ، وتركت فى الخيط فذة ، لم تعدم الفضيلة الذاتية ، والبهجة التى فى ذاتها مطوية . والشذرة (١) من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها فى القلادة ، واكتنافها لها فى عنق الغادة ، وصلتها بريق حمرتها ، والتهاب جوهرها ، بأنوار تلك الدرر التى تجاورها ، ولألاء اللآلىء التى تناظرها ، تزداد جمالا فى العين ، ولطف موقع من حقيقة الزين ، ثم هى إن حرمت صحبة تلك العقائل ، وفرق الدهر الخئون بينها وبين هاتيك النفائس ، لم تعر من بهجتها الأصلية ولم تذهب عنها فضيلة الذهبية .

كلا ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ . وإن كان لا يبعد أن يتخيله من ينعم النظر ، ولا يتم التدبر (٢) ، بل حق هذا المثل أن يوضع فى نصرة بعض المعانى الحكمية والتشبيهية بعضاً وازدياد الحسن منها بأن يجامع شكل منها شكلا وأن يصل الذكر بين متدانيات فى ولادة العقول إياها ، ومتجاورات فى تنزيل الإفهام لها ،

---

(١) الشذرة : القطعة من الذهب مخلوطة بالتراب وهى فى معدنها .

(٢) لعل هذا تعريض بالعسكرى فيما رآه من أن جودة الرصف مع توسط المعنى أحسن فى البلاغة وأفضل ، كالعقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعاً فى المرأى ، وإن لم يكن مرتفعاً جليلا إلخ (٤٥ الصناعتين ط صبيح) .

وقد يكون ذلك تعريضاً بصاحب العقد الفريد الذى يرى أن المعنى الجزل فى اللفظ الحسن يحتاج إلى جودة التأليف (٥/١٤ و ١٥ العقد) .

واعلم أن هذه الفصول التى قدمتها[١] وإن كانت قضايا لا يكاد يخالف فيها من به طرق[٢]، فإنه قد يذكر الأمر المتفق عليه، ليبنى عليه المختلف فيه، هذا ورب وفاق من موافق قد بقيت عليه زيادات أغفل النظر فيها، وضروب من التلخيص والتهذيب لم يبحث عن أوائلها وثوانيها، وطريقة فى العبارة عن المغزى فى تلك الموافقة لم يمهدها، ودقيقة فى الكشف عن الحجة على مخالف ـ لو عرض من المتكلفين ـ لم يجدها، حتى تراه يطلق فى عرض كلامه ما يبرز منه وفاقا فى معرض خلاف، ويعطيك إنكاراً وقد هم باعتراف. ورب صديق والاك قلبه وعاداك فعله، فتركك مكدوداً لا تشتفى من دائك بعلاج، وتبقى منه فى سوء مزاج[٣].

---

(١) وتتلخص فى أن البلاغة تعود إلى اللفظ أحياناً بسبب المعنى لا إلى اللفظ نفسه. (٢) هو قوة العقل.

(٣) المزاج: ما بنيت عليه طبيعة البدن وهى أربع طبائع.

المقصد (من هذا الكتاب هو بيان أمر المعانى)

واعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته ، والأساس الذى وضعته ، أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى كيف تتفق وتختلف ، ومن أين تجتمع وتفترق ، وأفصل أجناسها وأنواعها ، وأتتبع خاصها ومشاعها ، وأبين أحوالها فى كرم منصبها من العقل ، وتمكنها فى نصابه ، وقرب رحمها منه ، أو بعدها حين تنسب عنه ، وكونها كالحليف الجارى مجرى النسب ، أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه ، ولا يمتعضون له ، ولا يذبون دونه .

وإن من الكلام ما هو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الإبريز(١) ، الذى تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصياغات ، وجل المعول فى شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير قد يزيد فى قيمته ، ويرفع فى قدره .

ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها - ما دامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض ، وأثر الصنعة باقياً معها لم يبطل - قيمة تغلو ومنزلة تعلو ، وللرغبة إليها انصباب ، والنفوس بها إعجاب ، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها ، وضامت الحادثات أربابها ، وفجعتهم فيها بما يسلب حسنها المكتسب بالصنعة ، وجمالها المستفاد من طريق العرض ، فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير ، والطينة الخالية من التشكيل ، سقطت قيمتها ، وانحطت رتبتها ، وعادت الرغبات التى كانت فيها زهداً ، وأوسعتها عيون كانت تطمح إليها إعراضاً دونها وصدا ، وصارت كمن أحظاه الجد(٢) بغير فضل كان يرجع إليه فى نفسه ، وقدمه البخت(٣) من غير معنى يقضى بتقدمه ، ثم أفاق فيه الدهر

---

(١) الخالص .
(٢) أحظاه : فضله على غيره ، والجد بالفتح : الحظ .
(٣) البخت : الحظ .

عن رقدته وتنبه لغلطته ، فأعاده إلى دقة(١) أصله ، وقلة فضله(٢) .. وهذا غرض لا ينال على وجهه ، وطلبة لاتدرك كما ينبغى ، إلا بعد مقدمات تقدم وأصول تمهد ، وأشياء هى كالأدوات فيه حتمها أن تجمع ، وضروب من القول هى كالمسافات دونه يجب أن يسار فيها بالفكر وتقطع .

---

(١) دقة : خسة وضعة .

(٢) ذكر عبد القاهر فى الدلائل ذلك أيضاً ، وهذا رأى الآمدى الذى يرى أن البيان والبلاغة فى صحة التأليف وجودة النظم ، فإن جاء بمعنى لطيف وحكمة فائقة ، زاد الكلام بها . وإلا فالصنعة باقية (٨٠ الموازنة ط صبيح) ومثل ذلك عند الجاحظ (١ : ١٧٦ البيان) وكذلك المبرد فى الكامل .

القول على

التشبيه والتمثيل والاستعارة

وأول ذلك وأولاه، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه، القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة.

فإن هذه أصول كثيرة، كأن جل محاسن الكلام، إن لم نقل كلها، متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني فى متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها، ولا مثل(١) قولهم «الفكرة مخ العمل(٢)»، وقوله(٣):

٢٨ — وعرى أفراس الصبا ورواحله

وقوله: «السفر ميزان القوم(٤)»، وقول الأعرابى(٥): «كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام، وإذا تصالحوا بالسيوف قفز الحمام(٦)».

والتمثيل كقوله:

٢٩ — فإنك كالليل الذى هو مدركى(٧)

ويؤتى بأمثلة إذا حقق النظر فى الأشياء يجمعها الاسم الأعم(٨)، وينفرد

(١) أسلوب عربى، أى خصوصاً.

(٢) لإبراهيم النخعى فقيه العراق المتوفى عام ٩٦ هـ.

(٣) أى زهير بن أبى سلمى وهو استعارة مكنية.

(٤) ص ٢٧٠ الصناعتين، وهو استعارة كما ذكر أبو هلال. وهذا الكلام للإمام على.

(٥) رواية الأصمعى مخالفة لهذه الرواية (٤ : ١٩٠ زهر الآداب).

(٦) راجع الصناعتين ص ٢٧٤. والحمام بكسر الحاء: الموت.

(٧) النابغة، من اعتذارياته المشهورة (٨) وهو المجاز أو البيان.

كل منها بخاصة، من لم يقف عليها كان قصير الهمة فى طلب الحقائق ضعيف المنة(١) فى البحث عن الدقائق. قليل التوق إلى معرفة اللطائف . يرضى بالجمل(٢) والظواهر ، ويرى ألا يطيل سفر الخاطر(٣) ، ولعمرى إن ذلك أروح للنفس ، وأقل للشغل ، إلا أن من طلب الراحة ما يعقب تعباً ، ومن اختيار ما تقل معه الكلفة ، ما يفضى إلى أشد الكلفة .

وذلك أن الأمور التى تلتقى عند الجملة وتتباين لدى التفصيل ، وتجتمع فى وحدة ، ثم يذهب بها التشعب ، ويقسمها قبيلا بعد قبيل ، إذا لم تعرف حقيقة الحال فى تلاقيها حيث التقت ، وافتراقها حيث افترقت ، كان قياس من يحكم فيها إذا توسط الأمر(٤) قياس من أراد الحكم بين رجلين فى شرفهما ، وكرم أصلهما ، وذهاب عرقهما فى الفضل ، ليعلم : أيهما أقعد فى السؤدد ، وأحق بالفخر ، وأرسخ فى أرومة المجد ؟ وهو لا يعرف من نسبتهما أكثر من ولادة الأب الأعلى ، والجد الأكبر ، لجواز أن يكون واحد منهما قرشيا أو تميميا ، فيكون فى العجز عن أن يبرم قضية فى معناهما ، ويبين فضلا أو نقصاً فى منتماهما ، فى حكم من لا يعلم أكثر من أن كل واحد منهما آدمى ذكر ، أو خلق مصور .

---

(١) أى القوة .

(٢) أى الإجمال .

(٣) أى الفكر .

(٤) أى جلس وسط القوم المختلفين فيه للحكم بينهم .

(منهج المؤلف فى هذا الكتاب)

واعلم أن الذى يوجبه ظاهر الأمر ، وما يسبق إليه الفكر ، أن نبدأ بجملة من القول فى الحقيقة والمجاز ، ونتبع ذلك القول فى التشبيه والتمثيل ، ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما ، ونأتى بها فى أثرهما ، وذلك أن المجاز أعم من الاستعارة ، والواجب فى قضايا المراتب أن يبدأ بالعام(١) قبل الخاص(٢) ، والتشبيه كالأصل فى الاستعارة وهى شبيهة بالفرع له أو صورة مقتضبة من صوره .

إلا أن ههنا أموراً اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة(٣) ، وبيان صدر منها ، والتنبيه على طريق الانقسام فيها ، حتى إذا عُرِفَ بعضُ ما يكشف عن حالها ، ويُقفُ على سعة مجالها ، عُطِفَ عنانُ الشرح إلى الفصلين الآخرين(٤) ، فوُفِّىَ حقوقُهما ، وبُيِّنَ فروقُهما ، ثم ننصرف إلى استقصاء القول فى الاستعارة .

---

(١) وهو المجاز . (٢) وهو الاستعارة .

(٣) لاشك أن البدء بالاستعارة بناء على أصل لم يذكره هنا عبد القاهر (وهو التشبيه) أولا ، وقد أدى نهج عبد القاهر إلى اضطراب تأليفه وكثرة ما كرر وأعاد . وكان الأولى البدء بالتشبيه .

(٤) وهما التشبيه والتمثيل .

تعريف الاستعارة

اعلم أن الاستعارة فى الجملة أن يكون لفظ الأصل(١) فى الوضع اللغوى معروفا(٢) ، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلا غير لازم(٣) فيكون هناك كالعارية .

تقسيم الاستعارة
(إلى مفيدة وغير مفيدة)

ثم إنها تنقسم أولا قسمين :

أحدهما : أن لا يكون لنقله فائدة .

والثانى : أن يكون له فائدة .

(القسم الأول) :

وأنا أبدأ بذكر غير المفيد فإنه قصير الباع ، قليل الاتساع ، ثم أتكلم على المفيد الذى هو المقصود . . وموضع هذا الذى لا يفيد نقله(٤) حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع فى أوضاع اللغة ،

---

(١) أى المشبه به .

(٢) أى فى معنى بعينه .

(٣) فلو نقله نقلا لازما صار حقيقة عرفية لا استعارة .

(٤) لا يرى عبد القاهر عد هذا من الاستعارة إلا متابعة للعلماء ، وسيذكر ذلك فى أواخر الكتاب .

والتنوق فى مراعاة دقائق فى الفروق فى المعانى المدلول عليها : كوضعهم للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع الشفة للإنسان ، والمشفر للبعير والجحفلة للفرس ، وما شاكل ذلك من فروق ، ربما وجدت فى غير لغة العرب ، وربما لم توجد .

فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها فى غير الجنس الذى وضع له ، فقد استعاره منه ونقله عن أصله ، وجاز به موضعه ، كقول العجاج :

٣٠ — « وفاحماً ومرسنا مسرجا »(١)

يعنى(٢) أنفا برق كالسراج ، والمرسن فى الأصل للحيوان ، لأنه الموضع الذى يقع عليه الرسن . وقال الآخر(٣) يصف إبلا :

٣١— تسمع للماء كصوت المسحل(٤) بين وريديهـــا وبين الجحفل

وقال آخر(٥) :

٣٢ — والحشو من حفانها كالحنظل(٦)

---

(١) فى معاهد التنصيص أنه لرؤبة بن العجاج (توفى عام ١٤٤ ﻫ) ورؤبة وأبوه العجاج (— ٩٦ﻫ) من أعلام الرجز فى العصر الأموى .

(٢) أى بقوله « ومرسنا » .

(٣) أنشده ابن برى لراجز يصف إبلا — كما فى اللسان ، وفى الجمهرة (٣ : ٤٩٠) أنه لأبى النجم العجلى وهو راجز أموى كذلك .

(٤) المسحل : حمار الوحش - وريدها : رواية الكتاب ، ووريديها : رواية اللسان .

(٥) ينسب لأبى النجم على أنه من الأرجوزة السابقة .

(٦) الحشو : صغار الإبل . الحفان : للذكر والأنثى . وشبهها بالحنظل لبريقها ونضارتها .

فأجرى الخفان على صغار الإبل ، وهو موضوع لصغار النعام
وقال آخر(١) .

٣٣ — فبتنا جلوساً لدى مهرنا   ننزع من شفتيه الصفارا (٢)

فاستعمل الشفة فى الفرس وهى موضوعة للانسان .

فهذا ونحوه لا يفيدك شيئاً لو لزمت الأصل لم يحصل لك(٣)، فلافرق من جهة المعنى بين قوله : من شفتيه ، وقوله : من جحفلتيه ، لو قاله ، إنما يعطيك كلا الإسمين العضو المعلوم فحسب ، بل الاستعارة هنا بأن تنقصك جزءاً من الفائدة(٤) أشبه ، وذلك أن الاسم فى هذا النحو اذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعارة دل ذكره على العضو وماهو منه، فإذا قلت « الشفة » دلت على الإنسان أعنى تدل على أنك قصدت هذا العضو من الإنسان دون غيره ، فإذا توهمت جرى الاستعارة فى الاسم زالت عنه هذه الدلالة بانقلاب اختصاصه إلى الاشتراك ، فإذا قلت « الشفة » ، فى موضع قد جرى فيه ذكر « الإنسان و « الفرس » ، دخل على السامع بعض الشبهة ، لتجويزه أن تكون استعرت الاسم للفرس ، ولو فرضنا أن تعدم هذه الاستعارة من أصلها وتحظر ، لما كان لهذه الشبهة طريق على المخاطب، فاعرفه(٥) .

---

(١) قيل إنه للكميت ، وقيل : الأعشى ، وورد فى البلغة صفحة ٢٠ منسوباً لأبى دؤاد .

(٢) الصفار بضم الصاد : القراد .

(٣) يجعل الآمدى (ص ١٨ الموازنة ط صبيح) هذه الاستعارة فى نهاية القبح .

(٤) وهو وضوح الدلالة .

(٥) فالاستعارة غير المفيدة إذن هى اللفظ الذى استعمل فى غير الجنس =

(القسم الثانى) :

وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعانى وغرض من الأغراض، ولولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك ، وجملة تلك الفائدة، وذلك الغرض : التشبيه ، إلاأن طرقه تختلف، حتى تفوت النهاية، ومذاهبه تتشعب حتى لا غاية ، ولا يمكن الانفصال منه إلا بفصول جمة ، وقسمة بعد قسمة ، وأنا أرى أن أقتصر الآن على إشارة تعرف صوره على الجملة ، بقدر ما تراه وقد قابل خلافه الذى هو غير المفيد ، فيتم تصورك للغرض والمراد ، فإن الأشياء تزداد بياناً بالأضداد .

ومثاله قولنا: رأيت أسداً - وأنت تعنى رجلا شجاعاً - وبحراً - تريد رجلا جواداً، وبدراً وشمساً تريد إنساناً مضيء الوجه متهللا ،وسللت سيفاً على العدو - تريد رجلا ماضياً فى نصرتك أو رأياً نافذاً وما شاكل ذلك ، فقد استعرت اسم « الأسد » للرجل ، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة فى وصف المقصود بالشجاعة وإيقاعك منه فى نفس السامع صورة الأسد فى بطشه وإقدامه وبأسه وشدته وسائر المعانى المركوزة فى طبيعته ، مما يعود إلى الجرأة .. وهكذا أفدت باستعارة البحر سعته فى الجود وفيض الكف . وبالشمس والبدر ما لهما من الجمال والبهاء والحسن المالىء للعيون ، والباهر للنواظر .

وإذ قد عرفت المثال فى كون الاستعارة مفيدة على الجملة ، وتبين لك مخالفة هذا الضرب[1] للضرب الأول الذى هو غير المفيد ، فإنى أذكر بقية

= الموضوع له فى اللغة مع ترك التنوق الذىلاحظه واضع اللغةباستعمال الأخص فى معنى الأعم ، كاستعمال الجحفلة فى شفة الإنسان .

(١) وهو المفيد من الاستعارة .

قول ما يتعلق به . أعنى بغير المفيد ، ثم أعطف على أقسام المفيد وأنواعه وما يتصل به ، ويدخل فى جملته من فنون القول .

بتوفيق الله عز وجل ، وأسأله عز اسمه المعونة . وأبرأ إليه من الحول والقوة ، وأرغب إليه فى أن يجعل كل ما نتصرف فيه منصرفا إلى ما يتصل برضاه ، ومصروفاً عما يؤدى إلى سخطه .

(فروق بين الضربين) :

اعلم أنه إذا ثبت أن اختصاص المرسن بغير الآدمى لا يفيد أكثر مما يفيده الأنف فى الآدمى وهو فصل هذا العضو من غيره ولم تكن باستعارته للآدمى مفيداً ما لا تفيده بالأنف لم يتصور أن يكون استعارة من جهة المعنى، وإذا كان مدار أمره على اللفظ لم يتصور أن يكون فى غير لغة العرب، بل إن وجد فى لغة الفرس مراعاة نحو هذه الفروق ثم نقلوا الشىء من الجنس المخصوص به إلى جنس آخر كانوا قد سلكوا فى لغتهم مسلك العرب فى لغتها(١) وليس كذلك المفيد فإن الكثير منه تراه فى عداد ما يشترك فيه أجيال الناس ويجرى به العرف فى جميع اللغات فقولك « رأيت أسداً » - تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة - أمر يستوى فيه العربى والعجمى وتجده فى كل جيل وتسمعه من كل قبيل ، كما أن قولنا « زيد كالأسد » على التصريح بالتشبيه كذلك ، فلا يمكن أن يدعى أننا إذا استعملنا هذا النحو من الاستعارة فقد عمدنا إلى طريقة فى المعقولات لا يعرفها غير العرب ، أو لم تتفق لمن سواهم ، لأن ذلك بمنزلة أن تقول(٢):

---

(١) هذا يفيد عدم علم عبد القاهر باللغة الفارسية .

(٢) الصواب : نقول .

إن تركيب الكلام من الاسمين أو من الاسم والفعل يختص بلغة العرب، وإن الحقائق التي تذكر في أقسام الخبر ونحوه مما لا نعقله إلا من لغة العرب، وذلك مما لا يخفى فساده(١) .

فإذا ذكر المجاز وأريد أن يعد هذا النحو من الاستعارة فيه ، فالوجه أن يضاف إلى العقلاء جملة(٢) ولا تستعمل لفظة توهم أنه من عرف هذه اللغة وطرقها الخاصة بها ، كما تقول مثلا فيما يختص باللغة العربية من الأحكام ، نحو الإعراب بالحركات والصرف ومنع الصرف ووضع المصدر مثلا موضع اسم الفاعل نحو رجل صوم وضيف ، وجمع الاسم على ضروب نحو جمع السلامة والتكسير ، وجمع الجمع ، وإعطاء الاسم الواحد في التكسير عدة أمثلة نحو فرخ وأفرخ وفراخ وفروخ ، وكالفرق بين المذكر والمؤنث في الخطاب وجملة الضمائر وما شاكل ذلك .

ولإغفال هذا الموضع والتجوز في العبارة عنه ، دخل الغلط على من جعل الشيء من هذا الباب سرقة وأخذاً حتى نعى عليه ، وبين أنه من المعاني العامية ، والأمور المشتركة التي لا فضل فيها للعربي على العجمي ، ولا اختصاص له بجيل دون جيل على ما ترى القول فيه — إن شاء الله تعالى — في موضعه ، وهو تعالى ولى المن بالتوفيق له بفضله وجوده .

ولو أن مترجماً ترجم قوله :

٣٤ — وإلا النعام وحفانه(٣)

---

(١) هــــذا هو وجه الرد على من يقول : إن علماء البيان نقلوا أمثلة الاستعارة من اليونان ، ومن هؤلاء طــــه حسين في مقدمته لكتاب « نقد النثر » .

(٢) أي من أي جنس ولون وأمة ولغة .

(٣) شطر بيت لأمية بن أبي عائذ الهذلي، وهو شاعر إسلامي، أو لأسماء بن الحارث الهذلي .

ففسر الحفان باللفظ المشترك الذى هو كالأولاد الصغار لأنه لا يجد فى اللغة التى بها يترجم لفظاً خاصا ، لكان مصيبا ومؤديا الكلام كما هو ، ولو أنه ترجم قولنا « رأيت أسداً » يريد رجلا شجاعاً ، فذكر ما معناه معنى قولك « شجاعاً شديداً » وترك أن يذكر الإسم الخاص — فى تلك اللغة — بالأسد على هذه الصورة لم يكن مترجماً للكلام ، بل كان مستأنفاً من عند نفسه كلاما ، وهذا باب من الاعتبار يحتاج إليه ، لحقه أن يحفظ ، وعسى أن يجىء له زيادة بسط فيما يستقبل .

(اشتباه الضربين فى بعض الأمثلة) :

فاعلم أنك قد تجد الشىء يخلط بالضرب الأول الذى هو استعارة من طريق اللفظ ويعد فى قبيله (١) وهو — إذا حققت — ناظر إلى الضرب الآخر فهو مستعار من جهة المعنى ، وجار فى سبيله .

فمن ذلك قولهم : « إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر » وذلك أنه كلام يصدر عنهم فى مواضع الذم فصار بمنزلة أن يقال : كأن شفته فى الغلظ مشفر البعير وجحفلة الفرس ، وعلى ذلك قول الفرزدق :

٢٥ - فلو كنت ضبيا عرفت قرابتى ولكن زنجيا غليظ المشافر (٢)

= وتتمة البيت « وطفيا مع اللهق الناشط » . التلفى كنصر بسكون العين : صغير بقر الوحش ، واللهق مثل حذر : شديد البياض من الثيران .

(١) أى من الاستعارة غير المفيدة ، وعبدالقاهر يريد بذلك الرد على صاحب الصناعتين الذى عد بعض الأمثلة من الاستعارة غير المفيدة .

(٢) رواية الأغانى : أن خالد بن عبد الله القسرى أمر بحبس الفرزدق فأنفذ أمره أيوب بن عيسى الضبى ، فقال :

فلو كنت قيسيا إذا ما حبستنى ولكن زنجيا غلاظا مشافره =

فهذا يتضمن معنى قولك « ولكن زنجيا كأنه جمل لا يعرفنى ولا يهتدى للشرف » .

وهكذا ينبغى أن يكون القول فى قولهم « أنشب فيه مخالبه » لأن المعنى على أن يجعل له فى التعلق بالشىء والاستيلاء عليه حالة كحالة الأسد مع فريسته ، والبازى مع صيده .

وكذا قول الحطيئة(١) :

٣٦ ـ قروا جارك العيمان لما جفوته وقلص عن برد الشراب مشافره

حقه إذا حققت أن يكون فى القبيل المعنوى : وذلك أنه وإن كان عنى نفسه بالجار ، فقد يجوز أن يقصد إلى وصف نفسه بنوع من سوء الحال ويعطيها صفة من صفات النقص ، ليزيد بذلك فى التهكم بالزبرقان ، ويؤكد ما قصده من رميه بإضاعة الضيف واطراحه ، وإسلامه للضر والبؤس ، وليس ببعيد من هذه الطريقة من ابتدأ شعراً فى ذم نفسه ، ولم يرض

= ورواية سيبويه فى الكتاب ٢٧٢/١ كرواية المصنف ، ورواية الإيضاح « ولكن زنجى » بتقدير « ولكنك زنجى » ، وقال فى الخزانة : إن صواب الإنشاد : « غليظا مشافره » لا كما رواه النحويون « غليظ المشافر » ٢٧٩/٤ الخزانة ، وجعل صاحب المغنى البيت شاهداً على حذف اسم لكن على قلة ، وسيبويه روى البيت بالرفع والنصب ، وقال : إن النصب أجود ، والخبر : لا يعرفنى .

(١) يهجو الزبرقان بن بدر ويمدح ابن عمه بغيضا من آل شماس — العيمان : المحتاج إلى اللبن أشد الحاجة لشدة عطشه ، ومؤنثه عيمى . وقلص لازم ومتعد . والزبرقان بكسر الزاى والراء : القمر . لقب به الحصين بن بدر الصحابى لجماله — راجع القصيدة فى ديوان الحطيئة . وجاء البيت فى الموازنة ص ١٨ .

في وصف وجهه بالتقبيح والتشويه ، إلا بالتصريح الصريح دون الإشارة والتنبيه(١) .

وأما قول مزرد :

٣٧ـ فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه(٢) بساق وحافر

فقد قالوا : إنه أراد أن يقول : بساق وقدم ، فلما لم تطاوعه القافية وضع الحافر موضع القدم ، وهو وإن كان قد قال بعد هذا البيت ما يدل على قصده أن يحسن القول في الضيف ، وتباعده من أن يكون قصد الزراية عليه ، أو يحوم(٣) حول الهزء به والاحتقار له . وذلك قوله :

٣٨ـ فقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا بهذا المحيا من محيٍّ وزائر

فليس بالبعيد(٤) أن يكون فيه(٥) شوب كما مضى ، وأن يكون الذي أفضى به إلى ذكر «الحافر» قصده أن يصفه بسوء الحال في سيره ، وتقاذف نواحي الأرض به ، وأن يبالغ في ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره ، واستفراغ مجهوده في نفسه ، ويؤنس بذلك أن ننظر إلى قوله(٦) قبل :

---

(١) وهو الحطيئة نفسه .

(٢) من قصيدة يتمدح فيها مزرد بالجود والكرم . ويصف في البيت ضيفاً طارقاً أسرع إليه ، ومزرد هو أخو الشماخ ، وينسب البيت إلى جبيهاء الأشجعي (راجع الجمهرة لابن دريد ٣ : ٤٨٩) .

(٣) رواية الكتاب : يحول .

(٤) جواب قوله « وهو وإن كان قد قال » وكل هذا رد على من جعل الاستعارة في البيت قبيحة غير مفيدة كالآمدي والعسكري والجرجاني .

(٥) أي في وصفه بسوء الحالة .

(٦) أي إلى قول مزرد .

٣٩ — وأشعث مسترخى العلابى طوحت
به الأرض من باد عريض وحاضر
فأبصر نارى وهى شقراء أوقــدت
بعليـــاء نشز للعيون النواظر(١)

وبعده « فما رقد الولدان » .

فإذا جعله أشعث مسترخى العلابى فقد قربت المسافة بينه وبين أن يجعل قدمه حافراً ، ليعطيه من الصلابة وشدة الوقع على جنب البكر حظاً وافراً .

وهكذا قول الآخر :

٤٠ — سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق(٢)

هو فى حد التشبيه والاستعارة ، « لأن المعنى(٣) على أن الأظلاف لمن يُرْبَأ بالملك عن مشابهته ، كأنه قال أجعل أمرها إلى ملك لا إلى عبد حاف(٤) ، متشقق الأظلاف ، ويدل على ذلك أن أبا بكر بن دريد(٥) قال فى أول الباب الذى وضعه للاستعارة(٦) : « يقولون للرجل إذا عابوه جاءنا حافياً متشقق الأظلاف » ثم أنشد البيت .

---

(١) العلابى جمع علباء عرق فى صفحة العنق . نشز : هو المكان المرتفع ، ووصف النار بأنها شقراء يكون أضوأ لها .

(٢) هو للأخطل أو لعقفان بن قيس (١٣/٢ الأمالى ، وراجع سر الفصاحة لابن سنان ، ١٨ الموازنة) .

(٣) أى التعريضى لا التصريحى .

(٤) رواية الكتاب : جاف بالجيم .

(٥) إمام لغوى عاش فى العصر العباسى (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) .

(٦) وذلك فى كتابه الجمهرة ٤٨٩/٣ .

فإذا كان من شروط هذه الاستعارة أن يؤتى بهـا فى موضع العيب والنقص فلا شك فى أنها معنوية ، وكذا قوله :

٤١ — وذات هدم عار نواشرها   تصمت بالماء تولبا جدعا(١)

فأجرى التولب على ولد المرأة وهو لولد الحمار فى الأصل ، وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس ، ويذكر امرأة بائسة فقيرة ، والعادة فى مثل ذلك الصفة بأوصاف البهائم ، ليكون أبلغ فى سوء الحالة ، وشدة الاختلال ، ومثله سواء قول الآخر(٢) :

٤٢ — وذكرت أهلى بالعرا   ق وحاجـة الشعث التوالب

كأنه قال : الشعث التى لو رأيتها حسبتها توالب ، لما بها من الغبرة وبذاذة الهيئة ، والجدع فى البيت بالدال غير معجمة حكى شيخنا رحمه الله(٣) قال أنشد المفضل(٤) :

٤٣ — تصمت بالماء تولباً جذعاً

---

(١) البيت لأوس بن حجر من مرثيته لفضالة بن كلدة الأسدى (راجعه فى ٦١ نقد الشعر لقدامة ، ٣/٣٦ الأمالى ، ١٢ مقدمة المفضليات ، ٣/٤٠ الجمهرة لابن دريد) . الهدم : الثوب البالى . نواشر : جمع ناشرة وهى عصب فى الذراع ، تصمت : تسكت . التولب : ولد الحمار . الجدع مثل حذر : السيء الغذاء .

(٢) هو الأعلم الهذلى (٣ : ٤٩ الجمهرة) ولم ينسبه أحد إلا ابن دريد .

(٣) هو أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسى ابن أخت أبى على الفارسى وقد أخذ عنه عبد القاهر العربية بجرجان ، وتوفى بعد سنة ٤٢١ هـ .

(٤) الضبى صاحب المفضليات وتوفى عام ١٨٩ هـ .

بالذال المعجمة ، فأنكره الأصمعى(١) ، وقال إنما هو «تصمت بالماء تولباً جدعاً» وهو السيء الغذاء ، قال : فجعل المفضل يصيح ، فقال الأصمعى : لو نفخت فى الشبور(٢) ما نفعك : تكلم بكلام الحكل وأصب(٣) .

وأما قول الأعرابى : كيف الطلا(٤) وأمه ؟ فمن جنس المفيد أيضاً لأنه أشار إلى شيء من تشبيه المولود بولد لظبى . ألا تراه قال ذاك بعد أن انصرف عن السخط إلى الرضى ، وبعد أن سكن عنه فورة الجوع الذى دعاه إلى أن قال « ما أصنع به ؟ آكله أم أشربه ؟ » حتى قالت المرأة : غرثان فاربكوا له » .

وأما قوله(٥) :

٤٤ — إذ أصبح الديك يدعو بعض أسرته
عند الصباح وهم قوم معازيل(٦)

---

(١) عبد الملك بن قريب بن أصمع الباهلى ويكنى أبا سعيد ، من أئمة اللغة والغريب توفى سنة ٢١٦هـ ، عن ثمان وثمانين سنة .

(٢) هو البوق ـ هذا ويلاحظ أن الاستعارة الغير المفيدة قد ذكرها قدامة فى نقد الشعر كما ذكرها ابن دريد فى الجمهرة (٣ : ٤٨٩) فى باب سماه باب ما يستعار فيتكلم به فى غير موضعه » .

(٣) الحكل بالضم ثم السكون : الذى لا يسمع له صوت كالذر ونحوه

(٤) الطلا : بفتح الطاء ولد الظبى ، وراجع الحكاية فى العقد الفريد فى فضل توارد الكلام ٢/٢٠ العقد .

(٥) هو عبدة بن الطبيب (الشعر والشعراء ـ معاهد التنصيص ، ٦٠ مفضليات » وعبدة مخضرم وكان فى حرب الفرس بالمدائن .

(٦) أى معزولون ناحية عن جماعة المسافرين .

فاستعارة القوم ههنا وإن كانت فى الظاهر لاتفيد أكثر من معنى الجمع، فإنها مفيدة من حيث أراد أن يعطيها شبهاً مما(١) يعقل .

على أن هذا - إذا حققنا - غير ما نحن فيه وبصدده فى هذا الفصل ، وذلك أنه لم يجتلب الاسم المخصوص بالآدميين ، حتى قدم تنزيلها منزلتهم، فقال « هم » فأتى بضمير من يعقل ، وإذا كان الأمر كذلك كان القوم جارياً مجرى الحقيقة ، ونظيره أنك تقول : أين الأسود الضارية ؟ وأنت تعنى قوماً من الشجعان ، فيلزم فى الصفة حكم ما لا يعقل ، فتقول « الضارية » ولا تقول « الضارون » ألبتة ، لأنك وضعت كلامك على أنك كأنك تحدث عن الأسود فى الحقيقة .

وعلى هذه الطريقة ينبغى أن يجرى بيت المتنبى(٢) :

٥٤ - زحل - على أن الكواكب قومه - لو كان منك لكان أكرم معشراً

وإن لم يكن معنا اسم آخر سابق يثبت حكم ما(٣) يعقل للكواكب كالضمير فى قوله «هم قوم» ، وذلك أن ما يفصح به الحال من قصد أن يدعى للكواكب هذه المنزلة يجرى مجرى التصريح بذلك ، ألا ترى أنه لا يتضح وجه المدح فيه إلا بدعوى أحوال الآدميين ومعارفهم للكواكب ، لأنه يفاضل بينه وبينها فى الأوصاف العقلية بدلالة قوله «لكان أكرم معشراً» ولن يتحصل ثبوت وصف شريف معقول لها ، ولا الكرم على الوجه الذى يتعارف فى الناس ، حتى تجعل كأنها تعقل وتميز ، ولو كانت المفاضلة فى النور والبهاء وعلو المحل وما شاكل ذلك لكان لا يلزم حينئذ ما ذكرت .

وحق القول فى هذا القبيل — أعنى ما يدعى فيه لما لا يعقل العقل — فصل يفرد به ، ولعله يجىء(٤) فى موضعه بمشيئة الله وتوفيقه .

---

(١) ما واقعة على الجنس (٢) فى مدح أبى الفضل بن العميد (٣٦٦هـ)
(٣) الصحيح : من (٤) لم يتحدث عبد القاهر عن ذلك فى هذا الكتاب ولا فى « دلائل الإعجاز » .

القول فى الاستعارة المفيدة

(بلاغتها) :

أعلم أن الاستعارة فى الحقيقة هى هذا الضرب دون الأول(١) وهى أمد ميداناً(٢) وأشد افتتاناً ، وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة وأبعد غوراً(٣) ، وأذهب نجداً فى الصناعة وغوراً(٤) ، من أن تجمع شعبها(٥) وشعوبها(٦) ، وتحصر فنونها وضروبها. نعم وأسحر سحراً. وأملأ بكل ما يملأ صدراً ، ويمتع عقلا ، ويؤنس نفساً ويوفر أنساً ، وأهدى إلى أن تهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال ، وعنى بها الكمال ، وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت فى الشرف والفضيلة باعاً لا يقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر ، وردت تلك بصفرة الخجل ، ووكلتها إلى نسبتها من الحجر وأن تثير من معدنها تبراً لم تر مثله. ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلى ، وتريك الحلى الحقيقى ، وأن تأتيك على الجملة بعقائل(٧) يأنس إليها الدين والدنيا ، وشرائف لها من الشرف الرتبة العليا ، وهى أجل من أن تأتى الصفة على حقيقة حالها ، وتستوفى جملة جمالها .

ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً فى صورة مستجدة(٨)

---

(١) الذى هو غير المفيد .

(٢) تمييز محول عن الفاعل لأنه فاعل فى المعنى مجازاً ، وكذلك افتتاناً وحسناً ، وإحساناً .

(٣) الغور : القعر من كل شىء .

(٤) أى ارتفاعا وانحداراً .

(٥) جمع شعبة ، وهى الطائفة من الشىء .

(٦) جمع الشعب وهو الجانب (٧) جمع عقيلة وهى المرأة الكريمة

(٨) أى جديدة .

تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة في مواضع . ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد . وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلابة(١) موموقة(٢) .

ومن خصائصها التي تذكر بها ، وهي عنوان مناقبها ، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر .

وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة ، ومعها يستحق وصف البراعة وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حلاها وتقصر عن أن تنازعها مداها ، وصادفتها نجوماً هي بدرها، وروضاً هي زهرها، وعرائس ما لم تعرها حليها فهي عواطل ، وكواعب ما لم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل ، فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية .

وإذا نظرت في أمر المقاييس(٣) وجدتها ولا ناصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجثمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون.

وهذه إشارات وتلويحات في بدائعها ، وإنما ينجلي الغرض منها ويبين، إذا تكلم على التفاصيل ، وأفرد كل فن بالتمثيل ، وسترى ذلك إن شاء الله، وإليه الرغبة في أن نوفق للبلوغ إليه ، والتوفر عليه .

وإذ قد عرفتك أن لها هذا المجال الفسيح ، والشأن البعيد ، فإني أضع فصلا بعد فصل وأجتهد بقدر الطاقة في الكشف والبحث .

---

(١) أي خديعة ، بكسر الخاء . (٢) أي محبوبة .

(٣) أي التشبيهات .

فصـــل

(فى تقسيم الاستعارة إلى تحقيقية وتخييلية)

وهذا فصل قسمتها فيه قسمة عامية ، ومعنى العامية أنك لا تجد فى هذه الاستعارة قسمة إلا أخص من هذه القسمة ، وأنها قسمة الاستعارة من حيث المعقول المتعارف فى طبقات الناس وأصناف اللغات ، وما تجد وتسمع أبداً نظيره من عوامهم كما تسمع من خواصهم .

اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فإنها لا تخلو من أن تكون اسما أو فعلا ، وإذا كانت اسما فإنه يقع مستعاراً على قسمين :

أحدهما : أن تنقله عن مسماه الأصلى إلى شىء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه وتجعله متناولا له تناول الصفة مثلا للموصوف وذلك قولك رأيت أسداً — وأنت تعنى رجلا شجاعا — ورنت لنا ظبية وأنت تعنى امرأة ، وأبديت نوراً وأنت تعنى هدى وبيانا وحجة ، وما شاكل ذلك .

فالاسم فى هذا كله كما تراه متناول شيئاً معلوما يمكن أن ينص عليه فيقال إنه عنى بالاسم وكنى به عنه ، ونقل عنه مسماه الأصلى ، فجعل اسما له على سبيل الاستعارة والمبالغة فى التشبيه .

ثانيهما : أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ، ويوضع موضعا لا يبين فيه شىء يشار إليه فيقال هذا هو المراد بالاسم ، والذى استعير له ، وجعل خليفة لاسمه الأصلى ، ونائبا منابه(١) ومثاله قول لبيد(٢) .

---

(١) يقول الجرجانى عن هذا الضرب من الاستعارة : هو أن تجعل للشىء الشىء ليس له (راجع ص١٠٦ دلائل الإعجاز — تحقيق خفاجى) .

(٢) العامرى الصحابى المتوفى عام ٥٧ ﻫ ، وهو من أصحاب المعلقات والبيت من معلقته المشهورة « عفت الديار محلها فمقامها » ، « القرة : =

٤٦ ـ وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها(١)

وذلك أنه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه، يمكن أن تجرى اليد عليه، كإجراء الأسد والسيف: على الرجل فى قولك: انبرى لى أسد يزأر، وسللت سيفا على العدو لا يفل، والظباء: على النساء فى قوله(٢) «من الظباء الغيد»، والنور على الهدى والبيان فى قولك «أبديت نوراً ساطعاً»، وكإجراء اليد نفسها على من يعز مكانه كقولك «أتنازعنى فى يد بها أبطش، وعين بها أبصر» يريد إنسانا له حكم اليد وفعلها، وغناؤها ودفعها، وخاصة العين وفائدتها. وعزة موقعها، ولطف موضعها، لأن معك فى هذا كله ذاتا ينص عليها، وترى مكانها فى النفس إذا لم تجد ذكرها فى اللفظ، وليس لك شىء من ذلك فى بيت لبيد، بل ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر المصرف لما زمامه بيده، ومقادته فى كفه، وذلك(٣) كله لا يتعدى التخيل والوهم، والتقدير فى النفس، من غير أن يكون هناك شىء يحس، وذات تتحصل، ولا سبيل لك إلى أن تقول: كنى باليد عن كذا، وأراد باليد هذا الشىء، أو جعل الشىء الفلانى يداً كما تقول كنى بالأسد عن زيد، وعنى به زيداً، وجعل زيداً أسداً، وإنما غايتك التى لا مطلع وراءها أن تقول أراد أن يثبت

ـــــــــــ

= البرد ومثلها القر — وراجع البيت وشرح عبد القاهر له فى الدلائل صفحة ٤١٢ بتحقيق الخفاجى.

(١) راجع البيت فى: دلائل الإعجاز ص ٤١٢، ص ١٠٦، ٣٩٤ أيضاً.

(٢) أى البحترى فى مدح المعتز بالله، وهذا جزء بيت، وهو:

من عذيرى من الظباء الغيد ومجيرى من ظلمهن العتيد؟

(١: ١٩٣ ديوان البحترى ـ الطبعة القديمة).

(٣) أى ما بيناه من إثبات اليد مصرفة.

للشمال في الغداة(١) تصرفاً كتصرف الإنسان في الشيء يقلبه ، فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق التشبيه .

وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال(٢) ، إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه ، ولكنه وفى المبالغة شرطها من الطرفين لجعل على الغداة زماماً ليكون أتم في إثباتها مصرفة ، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ في تصييرها مصرفة .

ويفصل بين القسمين إنك إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة تفيد، وجدته يأتيك عفواً كقولك في « رأيت أسداً » ، رأيت رجلا كالأسد ، ورأيت مثل الأسد ، أو شبيها بالأسد ، وإن رمته في القسم الثاني وجدته لا يواتيك تلك المواتاة ، إذا لا وجه لأن تقول إذ أصبح شيء مثل لليد للشمال » أو « حصل شبيه باليد للشمال » ، وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه ستراً ، وتعمل تأملا وفكراً ، وبعد أن تغير الطريقة ، وتخرج عن الحد الأول ، كقولك اذ أصبحت الشمال ولها في قوة تأثيرها في الغداة شبه المالك تصريف الشيء بيده ، واجراءه على موافقته ، وجذبه نحو الجهة التي تقتضيها طبيعته ، وتنحوها إرادته، فأنت كما ترى تجد الشبه المنتزع ههنا اذا رجعت إلى الحقيقة ووضعت الاسم المستعار في موضعه الأصلي لا يلقاك من المستعار نفسه(٣) بل مما يضاف اليه(٤). ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد ومشبهة باليد ، كما جعلت الرجل

(١) أي في تصريفها الغداة ، ولعل صحة الكلام : في تصريف الغداة .

(٢) يرى الزوزني في شرحه للمعلقات أن الضمير في «زمامها» للقرة ، ويرى عبد القاهر أنه للغداة ، ورأى الزوزني أولى .

(٣) وهو اليد . (٤) وهو الشمال .

كالأسد ومشبهاً بالأسد ، ولكنك أردت أن تجعل الشمال كذى اليد من الأحياء ، فأنت تجعل فى هذا الضرب المستعار له وهو نحو الشمال ذا شىء ، وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشىء فى فعل أو غيره ، لا نفس ذلك الشىء فاعرفه .

وهكذا قول زهير :

٤٧ — وعرى أفراس الصبا ورواحله(١)

لا تستطيع أن تثبت ذواتا أو شبه الذوات تتناولها الأفراس والرواحل فى البيت على حد تناول الأسد الرجل الموصوف بالشجاعة، والبدر الموصوف بالحسن والبهاء ، والسحاب المذكور بالسخاء ، والسماحة والنور العلم والهدى والبيان . وليس إلا أنك أردت أن الصبا قد ترك وأهمل وفقد نزاع النفس إليه وبطل ، فصار كالأمر ينصرف عنه ، فتعطل آلاته ، وتطرح أدواته ، وكالجهة من جهات المسير نحو الحج أو الغزو أو التجارة يقضى منها الوطر ، فتحط عن الخيل التى كانت تركب إليها لبودها ، وتلقى عن الإبل التى كانت تحمل لها قتودها(٢) .

وقد يجىء وإن كان كالتكلف أن تقول : إن الأفراس عبارة عن دواعى النفوس وشهواتها ، وقواها فى لذاتها ، أو الأسباب التى تفتل فى حبل الصبا ، وتنصر جانب الهوى ، وتلهب أريحية النشاط ، وتحرك مرح الشباب ، كما قال :

---

(١) شطر بيت لزهير بن أبى سلمى ، ومطلع البيت : صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله . وراجع فى البيت : ١١٤ الموازنة ، ٢٧٦ الصناعتين ،

(٢) القتد محركة : خشب الرحل ، وقيل جميع أدواته ، وجمعه أقتاد وقتود وأقتد .

٤٨ — ونضم مطية الجهل الشباب(١)

وقال(٢) :

٤٩ — كان الشباب مطية الجهل(٣)

وليس من حقك أن تتكلف هذا فى كل موضع ، فإنه ربما خرج بك إلى ما يضر المعنى وينبو عنه طبع الشعر. وقد يتعاطاه من يخالطه شىء من طباع التعمق ، فتجد ما يفسد أكثر مما يصلح ، ولو أنك تطلبت للمطية فى بيت الفرزدق :

٥٠ - لعمرى لئن قيدت نفسى لطالما ... سعيت وأوضعت المطية فى الجهل

مثل هذا التأول تباعدت عن الصواب ، وعدلت عما يسبق إلى القلب. وذلك أن المعنى على قولك : لطالما سعيت فى الباطل ، وقديما كنت فى الإسراع إلى الجهل بصورة من يوضع المطية فى سفره .

وهذا الموضع يتجلى إذا تكلم عن الفرق بين التشبيه والتمثيل ، وسيأتيك ذلك إن شاء الله تعالى .

وكذا قولهم : هو مرخى العنان وملقى الزمام ، لاوجه لأن تتوقع إلا أن يجرى العنان عليه ، ويتناوله المعنى على انتزاع الشبه من الفرس فى حال ما يرخى عنه عنانه ، وأن ينظر إلى الصورة التى توجد من حاله تلك فى العقل ، ثم يجاء بها فيعار لها الرجل(٤) ، ويتصور بمقتضاها فى النفس ويتمثل ، ولو قلت : إن العنان ههنا بمعنى النهى ، وأن المراد أن النهى قد أبعد عنه ونحو

---

(١) هو النابغة الذبيانى يهجو عامر بن الطفيل والبيت هو .

فإن يك عامر قد قال جهلا ... فإن مطية الجهل الشباب

(٢) صدر بيت من مطلع قصيدة لأبى نواس .

(٣) عجز البيت : ومحسن الضحكات والهزل (راجع ديوان أبى نواس ٢٨٨ و ٢٨٩ الصناعتين ، ٣/٣٠٣ العقد الفريد) .

(٤) أو تعار هى للرجل .

ذلك ، دخلت فى ظاهر من التكلف وأتعبت نفسك فى غير جدوى ، وعادت زيادتك نقصاناً ، وطلبك الإحسان إساءة .

واعلم أن إغفال هذا الأصل الذى عرفتك من أن الاستعارة لا تكون على هذا الوجه الثانى(١) كما تكون على الأول(٢) مما يدعو إلى مثل هذا التعمق ، وأنه نفسه قد يصير سبباً إلى أن يقع قوم فى التشبيه ، وذلك أنهم إذا وضعوا فى أنفسهم أن كل اسم يستعار ، فلا بد أن يكون هناك شىء يمكن الإشارة إليه يتناوله فى حال المجاز كما يتناول مسماه فى حال الحقيقة ، ثم نظروا فى مخرج قوله تعالى « ولتصنع على عينى ، واصنع الفلك بأعيننا » فلم يجدوا للفظة العين ما يتناوله على حد تناول النور مثلا للهدى والبيان ، ارتبكوا فى الشك ، وحاموا حول الظاهر وقصروا أنفسهم على لزومه ، حتى يفضى بهم إلى الضلال البعيد وارتكاب ما يقدح فى التوحيد ونعوذ بالله من الخذلان .

وطريقة أخرى فى بيان الفرق بين القسمين ، وهو أن الشبه فى القسم الأول الذى هو نحو : رأيت أسداً — تريد رجلا شجاعاً — وصف موجود فى الشىء الذى استعرته؟ واليد ليست توصف بالشبه ، ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها وتحصل له بها ، وهى التصرف على وجه مخصوص ، وكذا قولك «أفراس الصباء ليس الشبه الذى استعرت له الأفراس موجوداً فى الأفراس بل هو شبه يحصل لما يضاف إليه الأفراس ، حيث يراد الحقيقة ، نحو قولنا «عرى أفراس الغزو» ، وأمسك عن الجهاد ، وذلك ما يوجبه الفعل الواقع على الأفراس ، أعنى نزع الفعل الذى هو عرى على أفراس الغزو يوجب الإمساك عن الغزو والترك له وعلى هذا القياس(٣) .

---

(١) وهى التخييلية . (٢) التحقيقية .

(٣) ومن الفروق : أن الضرب الأول جعل الشىء الشىء ، والضرب الثانى جعل الشىء ذا شىء ، وكذلك من الفروق أن المستعار له فى الأول أمر ثابت معلوم . وفى الثانى أمر تخييلى . وهو الشىء الذى استعرته .

وإذا تقرر أمر الإسم فى كون استعارته على هذين القسمين(١) ، فمن حقنا أن ننظر فى الفعل هل يحتمل هذا الانقسام ؟ والذى يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شىء كما يتصور فى الإسم . ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذى اشتق منه للشىء فى الزمان الذى تدل صيغته عليه ، فإذا قلت « ضرب زيد » أثبت الضرب لزيد فى زمان ماض ، وإذا كان كذلك فإذا استعير الفعل لما ليس له فى الأصل فإنه يثبت باستعارته له وصفاً هو شبيه المعنى الذى ذلك الفعل مشتق منه .

بيان ذلك أن تقول : نطقت الحال بكذا ، وأخبرتنى أسارير(٢) وجهه بما فى ضميره ، وكلمتنى عيناه بما يحوى قلبه ، فتجد فى الحال وصفاً هو شبيه بالنطق من الإنسان ، وذلك ، أن الحال تدل على الأمر ، ويكون فيها أمارات يعرف بها الشىء كما أن النطق كذلك ، وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التى تظهر فيها وفى نظرها ، وخواص أوصاف يحدث بها على ما فى القلوب من الإنكار والقبول ، ألا ترى إلى حديث الجمحى(٣) ؟ :

حكى عن بعضهم قال : قال أتيت الجمحى أستشيره فى امرأة أردت التزوج بها ، فقال : أقصيرة هى أم غير قصيرة ؟ قال : فلم أفهم ذلك ، فقال لى :

---

(١) رأى عبد القاهر فى الضرب الثانى من ضروب الاستعارة (يد الشمال مثلا) يقاربه رأى الخطيب ، ولا فرق بينهما إلا أن عبد القاهر نظر فى الاستعارة إلى الموجود فى أساليب هذا الضرب وهو كلمة (يد) مثلا ، وجعل التشبيه المحذوف تبعا ، بينما جعل الخطيب التشبيه أصلا وجعل قرينة المكنية تبعا له . ومذهب عبد القاهر فى المكنية والتخييلية هو المعقول .

(٢) الأسارير : محاسن الوجه ، والخدان والوجنتان .

(٣) ابن سلام الجمحى أحد الأخباريين والرواة توفى سنة ٢٣١ هـ ، وروى عنه الإمام أحمد وثعلب .

كأنك لم تفهم ما قلت ، إنى لأعرف فى عين الرجل إذا عرف ، وأعرف فيها إذا أنكر ، وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر . أما إذا عرف فإنها تخاوص(١) . وإذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تسجو(٢) ، وإذا أنكر فإنها تجحظ(٣) . أردت بقولى « قصيرة » ، أى هى قصيرة النسب تعرف بأبيها أو جدها(٤) .

قال الشيخ أبو الحسن(٥) : وهذا من قول النسابة البكرى(٦) لرؤبة ابن العجاج(٧) لما أتاه فقال له : من أنت ؟ قال : رؤبة بن العجاج ، فقال : قصرت وعرفت . قال : وعلى هذا المعنى قول رؤبة :

٥١ ـ قد رفع العجاج ذكرى فادعنى   باسم إذا الأنساب طالت يكفنى(٨)

---

(١) تخاوص فلان : إذا غض من بصره قليلا مع تحديق كمن يقوم سهما .

(٢) تسكن .

(٣) جحظت العين : إذا عظمت مقلتها ونتأت ، ويروى ذلك عن عثمان ابن إبراهيم بن محمد قال : أتانى رجل من قريش يستشيرنى فى امرأة فقلت : يا ابن أخى أقصيرة النسب أم طويلته ، فلم يفهم عنى إلى آخر القصة . (٤ : ١٦١ ، ١٦٢ العقد الفريد) .

(٤) تتمة رواية العقد : وقد رأيت عينيك ساجية ، فالقصيرة النسب التى إذا ذكرت أباها اكتفت به ، والطويلة النسب التى لا تعرف حتى تطيل فى نسبتها ، فإياك أن تقع فى قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نفسك فيهم .

(٥) القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه ، توفى سنة ٣٩٢ هـ .

(٦) كان نصرانيا من مخضرمى الدولتين .

(٧) رؤبة بن العجاج من أشهر الرجاز الإسلاميين توفى سنة ١٤٥ هـ .

(٨) جواب إذا وهى تعمل الجزم فى الشعر خاصة ، وراجع البيت فى الوساطة (طبعة صبيح) ص ٣٠١ .

وأمر العين أظهر من أن تحتاج فيه إلى دليل ، ولكن إذا جرى الشيء في الكلام هو دعوى في الجملة كان الآنس للقارىء أن يقترن به ما هو شاهد فيه فلم ير شيء أحسن من إيصال دعوى ببرهان .

وإذا كان أمر الفعل في الاستعارة على هذه الجملة رجع بنا التحقيق إلى أن وصف الفعل بأنه مستعار حكم يرجع إلى مصدره الذي اشتق منه : فإذا قلنا في قولهم « نطقت الحال » إن نطق مستعار فالمعنى أن النطق مستعار ، وإذا كانت الاستعارة تنصرف إلى المصدر كان الكلام فيه على ما مضى .

(قرينة الاستعارة) :

ومما تجب مراعاته أن الفعل يكون استعارة مرة من جهة فاعله الذي رفع به ومثاله ما مضى ، ويكون أخرى استعارة من جهة المفعول ، وذلك نحو قول ابن المعتز :

٥٢ — جمع الحق لنا في إمام   قتل البخل وأحيا السماحا(١)

فقتل وأحيا : إنما صار مستعارين بأن عديا إلى البخل والسماح ، ولو قال قتل الأعداء وأحيا(٢) لم يكن « قتل » استعارة بوجه ، ولم يكن « أحيا » استعارة على هذا الوجه .. وكذا قوله :

---

(١) يمدح المكتفي لما تولى الخلافة ومطلعها :

عرف الدار فحيا وناحا   بعد ما كان صحا واستراحا

وبعد الشاهد :

إن عفا لم يلغ لله حقاً   أو سطا لم يخش منه جناحا

ألف الهيجاء طفلا وكهلا   تحسب السيف عليه وشاحا

(٢) في الإيضاح : وأحيا الأحياء .

٥٣ ــ وأقرى الهموم الطارقات حزامة(١)

هو استعارة من جهة المفعولين جميعاً ، فأما من جهة الفاعل فهو محتمل الحقيقة وذلك أن تقول : أقرى الأضياف النازلين اللحم العبيط(٢) . . ومثله قوله(٣) :

٥٤ ــ قرى الهم إذا ضاف الزماع

وقد يكون الذى يعطيه حكم الاستعارة أحد المفعولين دون الآخر كقوله(٤) :

٥٥ ــ تقريهم لهزميات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زراد(٥)

---

(١) هو لنعيم بن الحارث بن يزيد الصعدى ، وقيل هذلول بن كعب العنبرى وكلاهما جاهلى ـ وتمام البيت : « إذا كثرت للطارقات الوساس » راجع ١/٢٩٦ الحماسة ، ٤٩١ معجم الشعراء) ـ الحزامة : الحزم .

(٢) الطرى .

(٣) هو القتال الكلابى عبد الله بن المضرحى بن عامر من ربيعة شاعر أموى جنى جناية فى قومه فأخرجوه فقال أبياتاً منها البيت :

قرى الهم إذ ضاف الزماع فأصبحت منازله تعتس فيهـــا الثعالب

راجع : ١ : ٢٧٠ الحماسة ، ١٦٧ المؤتلف الآمدى .

(٤) هو القطامى من قصيدة يمدح بها أبا الهذيل زفر بن الحرث الكلابى . واللهذميات : السيوف القاطعة .

(٥) ومثل البيت قول خالد بن صفوان لرجل : رحم الله أباك فإنه كان يقرى العين جمالا ، والأذن بياناً .

فصـــل

(الاستعارة تعتمد التشبيه أبداً) :

اعلم أن الاستعارة كما علمت تعتمد التشبيه أبداً .

وقد قلت إن طرقه تختلف ، ووعدتك الكلام فيه ، وهذا الفصل يعطى بعض القول فى ذلك بإذن الله تعالى ، وأنا أريد أن أدرجها من الضعف إلى القوة وأبدأ فى تنزيلها بالأدنى ، ثم بما يزيد فى الارتفاع ، لأن التقسيم إذا ارتفع فى خارج من الأصل(١) ، فالواجب أن يبدأ بما كان أقل خروجا منه ، وأدنى مدى فى مفارقته .

وإذا كان الأمر كذلك ، فالذى يستحق بحكم هذه الجملة أن يكون أولا من ضروب الاستعارة أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجوداً فى المستعار له(٢) ، من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب فى الفضيلة والنقص ، والقوة والضعف ، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه .

ومثاله استعارة الطيران لغـــير ذى الجناح إذا أردت السرعة(٣) ،

---

(١) أى الحقيقة .　　　(٢) أى المشبه .

(٣) يقول الشاعر وهو مضرس بن ربعى :

وطرت بمنصلى فى يعملات　　　دوامى الأيد يخبطن السريحا

ويقول آخر :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم　　　طاروا إليه زرافات ووحدانا

ويقول ابن الرومى :

خذها تبوعا لمن ولى مسومة　　　كأنها كوكب فى إثر عفريت

وانقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع فى حركته من علو ، والسباحة له(١) إذا عدا عدواً كان حاله فيه شبيها بحالة السابح فى الماء ، ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق ، إلا أنهم نظروا إلى خصائص الأجسام فى حركتها فافردوا حركة كل نوع منها باسم ، ثم إنهم إذا وجدوا فى الشىء فى بعض الأحوال شبها من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك الجنس ، فقالوا فى غير ذى الجناح طار كقوله :

٥٦ — * وطرت بمنصلى فى يعملات(٢) *

وكما جاء فى الخبر « كلما سمع هيعة طار إليها »(٣) وكما قال(٤) :

٥٧ — لو يشأ طار به ذو ميعة   لاحق الآطال نهد ذو خصل

ومن ذلك أن « فاض » موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص وذلك أن يفارق مكانه دفعة فينبسط ، ثم إنه استعير للفجر كقوله(٥) :

٥٨ — * كالفجر فاض على نجوم الغيهب *

---

(١) أى للفرس ، كقول المتنبى : سبوح لها منها عليها شواهد .

(٢) لمضرس بن ربعى الأسدى ، كما فى سر الفصاحة ص٧٤ - اليعملات: النوق النجائب . السريح : السيور المشدودة على أرجلهم . وتتمة البيت : دَوامى الأيد يخبطن السريحا

(٣) جاء فى الحديث الشريف : خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها . الهيعة : الصوت المفزع .

(٤) لامرأة من بنى الحارث ترثى قتيلا لعله زوجها أو أخوها . الميعة : أول جرى الفرس ، الآطال : جمع إطل بكسر فسكون وهى الخاصرة . نهد: عظيم الشرف .

(٥) أى البحترى ، وهو عجز ، وصدره .

يتراكمون على الأسنة فى الوغى

لأن للفجر انبساطاً وحالة شبيهة بانبساط الماء وحركته فى فيضه .

فأما استعارة « فاض » بمعنى الجود ، فنوع آخر ، غير ما هو المقصود ههنا . لأن القصد الآن إلى المستعار الذى توجد حقيقة معناه من حيث الجنس فى المستعار له(١) ، وكذلك قول أبى تمام :

٥٩ — وقد نثرتهم روعة ثم أحدقوا
به مثلما ألـّفت عقـداً منظماً

وقول المتنبى :

٦٠ — نثرتهم فوق الأحيدب نثرة
كما نثرت فوق العروس الدراهم(٢)

استعارة ، لأن النثر فى الأصل للأجسام الصغار كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها ، لأن لها هيئة مخصوصة فى التفرق لا تأتى فى الإجسام الكبار ، ولأن القصد بالنثر أن تجتمع أشياء فى كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة واحدة ، والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك ، لكنه لما اتفق فى الحرب تساقط المنهزمين على غير ترتيب ونظام ، كما يكون فى الشىء المنثور ، عبر عنه بالنثر ، ونسب ذلك إلى الممدوح ، إذ كان هو سبب ذلك الانتثار . فالتفرق الذى هو حقيقة النثر ، من حيث جنس المعنى وعمومه ، موجود فى المستعار له(٣) بلا شبهة .

ويبينه أن النظم فى الاصل لجمع الجواهر ، وما كان مثلها فى السلوك ، ثم لما حصل فى الشخصين من الرجال أن يجمعهما الحاذق المبدع فى الطعن

(١) أى المشبه .
(٢) فى مدح سيف الدولة . الأحيدب : موضع .
(٣) أى المشبه .

فى رمح واحد ، ذلك الضرب من الجمع ، عبر عنه بالنظم كقولهم « انتظمهما برمحه » ، وكقوله(١) :

٦١ — « قالوا : أينظم فارسين بطعنة ؟ »

وكان ذلك استعارة ، لأن اللفظة وقعت فى الأصل لما يجمع فى السلوك من الحبوب والأجسام الصغار ، إذ كانت تلك الهيئة فى الجمع تخصها فى الغالب ، وكان حصولها فى أشخاص الرجال من النادر ، الذى لا يكاد يقع ، وإلا فلو فرضنا أن يكثر وجوده فى الأشخاص الكبيرة لكان لفظ النظم أصلا وحقيقة فيها ، كما يكون حقيقة فى نحو الحبوب.

وهذا النحو لشدة الشبه فيه يكاد يلحق بالحقيقة ، ومن هذا الحد(٢) قوله(٣) :

٦٢ — وفى يدك السيف الذى امتنعت به
صفاة الهـــدى من أن ترق فتخرقا

وذلك أن أصل الخرق أن يكون فى الثوب ، وهو فى الصفاة استعارة ، لأنه لما قال « ترق » قربت حالها من حال الثوب ، وعلى ذلك فإنا نعلم أن الشق والصدع حقيقة فى الصفاة ، ونعلم أن الخرق يجامعها فى الجنس ، لأن الكل تفريق وقطع ، ولو لم يكن الخرق والشق واحداً لما قلت : شققت الثوب ، والشق عيب فى الثوب « وتشقق الثوب » قول(٤) من لا يستعير ،

---

(١) هو بكر بن النطاح . وعجز البيت : يوم الهياج ولا تراه كليلا .
(٢) أى ما اتفقا فيه جنسا واختلفا نوعا كاستعارة الطيران للجرى ، والنثر للتفرق .
(٣) أى البحترى . الصفاة : الحجر الأملس لا يثبت عليه شىء .
(٤) مفعول مطلق لقلت قبله .

ولكن لو قلت « خرق الحشمة » لم يكن من الحقيقة فى شىء ، وكان خارجاً من هذا الفن الذى نحن فيه ، لأنه ليس هناك شق ، ولو جاء شق الحشمة ، أو «صدع» مثلا كان كذلك ، أعنى لا يكون له أصل فى الحقيقة ولا شبه بها .

ومن هذا الضرب قوله تعالى (ومزقناهم كل ممزق) : يعد استعارة من حيث إن التمزيق للثوب فى أصل اللغة إلا أنه على ذلك راجع إلى الحقيقة من حيث إنه تفريق على كل حال ، وليس يحسن غيره إلا أنهم خصوا ما كان مثل الثوب بالتمزيق ، كما خصوه بالخرق ، وإلا فأنت تعلم أن تمزيق الثوب تفريق بعضه من بعض .

ومثله أن القطع إذا أطلق فهو لإزالة الاتصال من الأجسام التى تلتزق أجزاؤها ، وإذا جاء فى تفريق الجماعة وإبعاد بعضهم من بعض كقوله تعالى : (وقطعناهم فى الأرض أمما) كان شبه الاستعارة(١) وإن كان المعنى فى الموضعين على إزالة الاجتماع ونفيه . . فإن قلت « قطع عليه كلامه » أو قلت « نقطع الوقت بكذا » كان نوعا آخر .

ومن الاستعارة القريبة من الحقيقة قولهم « أثرى فلان من المجد » وأفلس من المروءة ، وكقوله :

٦٣ — إن كان أغناها السلو فإننى أمسيت من كبدى ومنها معدما(٢)

وذلك أن حقيقة الإثراء من الشىء كثرته عندك ، ووصف الرجل بأنه كثير المجد أو قليل المروءة كوصفه بأنه كثير العلم أو قليل المعرفة ، فى كونه حقيقة ٣) .

---

(١) أى يكون استعارة قريبة من الحقيقة .

(٢) هو للمتنبى .

(٣) أى استعارة قريبة من الحقيقة ، أو حقيقة لا استعارة فيها .

وكذلك إذا قلت : أثرى من الشوق أو الوجد أو الحزن كما قال(١) :

٦٤ — (قد وقفنا على الديار) وفى الركب
حريب من الغـــرام ومثرى

فهو كقولك : كثر شوقه وحزنه وغرامه .

وإذا كان كذلك فهو فى أنه نقل إلى شىء جنسه جنس الذى هو حقيقة فيه بمنزلة « طار » أو أظهر أمراً منه .

وكذا معنى أعدم من المال أنه خلا منه وأن المال يزول عنه ، فإذا أخبر أن كبده قد ذهبت عنه فهو فى حقيقة من ذهب ماله وعدمه ، والعدم فى المال وفى غير المال بمنزلة واحدة لا تتغير له فائدة ، والمعدم موضوع لمن عدم ما يحتاج إليه ، فالكبد مما يحتاج إليه .

وكذلك المحبوبة ، فإنما تقع هذه العبارة فى نفسك موقع الغريب من حيث إن العرف جرى فى الإعدام بأن يطلق على من عدم ما جنسه المال . ويؤنسك بما قلت أنك لو قلت : عدم كبده — لم يكن مجازاً ، ولم تجد بينه وبين : خلا من كبده ، وزالت عنه كبده كبير فرق ، ألا تراك تقول الفرس عادم للطحال(٢) تريد ليس له طحال ، وهذا كلام لا استعارة فيه ، كما أنك لو قلت : الطحال معدوم فى الفرس — كان كذلك .

ومن اللائق بهذا الباب البين أمره ما أنشده أبو العباس(٣) فى الكامل من قول الشاعر(٤) :

٦٥ — لم نلق قوماً هم شر لاخوتهم   منا عشية يجرى بالدم الوادى

(١) البحترى يمدح محمد بن بدر . الحريب هو المحروب أى المسلوب ماله
(٢) كناية عن كونه لا يكل من السير ، لأن الطحال هو الذى يتأثر بالتعب
(٣) هو المبرد الإمام اللغوى البصرى المتوفى عام ٢٨٥هـ صاحب كتاب « الكامل » .
(٤) هو القطامى الشاعر الأموى المشهور (١ : ٣١ الكامل للمبرد) .

نقريهم لهذميات نقـــد بهـا   ما كان خاط عليهم كل زراد

قال : لأن الخياطة تضم خرق القميص ، والزرد يضم حلق الدرع ، أفلا تراه بين أن جنسهما واحد ، وأن كلا منهما ضم ووصل ، وإنما يقع الفرق من حيث إن الخياطة ضم أطراف الخرق بخيط يسلك فيها على الوجه المعلوم ، والزرد ضم حلق الدرع بمداخلة توجد بينهما إلا أن الشكاك(١) الذى يلزم أحد طرفى الحلقة الآخر بدخوله فى ثقبتيهما فى صورة الخيط الذى يذهب فى منافذ الإبرة ، واستقصاء القول فى هذا الضرب والبحث عن أسراره لا يمكن إلا بعد أن تقرر الضروب المخالفة له من الاستعارة ، فاقتصر منه على القدر المذكور ، وأعود إلى القسمة .

وضرب ثان يشبه هذا الضرب الذى مضى وإن لم يكن إياه ، وذلك أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة هى موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة ، وذلك قولك « رأيت شمساً » تريد إنساناً يتهلل وجهه كالشمس ، فهذا له شبه باستعارة « طار » لغير ذى الجناح ، وذلك ان الشبه مراعى فى التلألؤ وهو كما يعلم موجود فى نفس الإنسان المتهلل ، لأن رونق الوجه الحسن من حيث حس البصر مجانس لضوء الأجسام النيرة .

وكذلك إذا قلت « رأيت أسداً » تريد رجلا فالوصف الجامع بينهما هو الشجاعة وهى على حقيقتها موجودة فى الإنسان ، وإنما يقع الفرق بينه وبين السبع الذى استعرت اسمه له فيها من جهة القوة والضعف ، والزيادة والنقصان وربما ادعى لبعض الكماة والبهم(٢) مساواة الأسد فى حقيقة الشجاعة ، التى عمود صورتها انتفاء المخافة عن القلب ، حتى لا تخامره ، وتفرق خواطره ، وتحال عزيمته فى الإقدام على الذى يباطشه ، ويريد قهره . وربما كب

---

(١) بوزن كتاب ، شبيه بالإبرة .

(٢) الكماة جمع كمى هو لابس السلاح والبهم بالضم فالفتح جمع بهمة من يستبهم على أقرانه أمره . والبهم كذلك جمع أبهم وهو الشجاع .

الشجاع عن الإقدام على العدو ، لا لخوف يملك قلبه ويسلبه قواه ، ولكن كما يكف المنهى عن الفعل ، لا تخونه فى تعاطيه قوة ، وذلك أن العاقل من حيث الشرع منهى عن أن يهلك نفسه ، ألا ترى أن البطل الكمى إذا عدم سلاحاً يقاتل(١) به ، فلم ينهض إلى العدو ، كان العدو فاقداً شجاعته وبأسه ومتبرئاً من النجدة التى يعرف بها .

ثم إن الفرق بين هذا الضرب وبين الأول : أن الاشتراك ههنا فى صفة توجد فى جنسين مختلفين ، مثل أن جنس الإنسان غير جنس الشمس ، وكذلك جنسه غير جنس الأسد ، وليس كذلك الطيران وجرى الفرس فإنهما جنس واحد بلا شبه(٢) ، وكلاهما مرور وقطع للمسافة ، وإنما يقع الاختلاف بالسرعة ، وحقيقة السرعة قلة تخلل السكون للحركات ، وذلك لا يوجب اختلافا فى الجنس .

فإن قلت : فإذن لا فرق بين استعارة « طار » الفرس وبين استعارة الشفة للفرس فهلا عددت هذا فى القسم اللفظى غير المفيد ؟ ثم إنك إن اعتذرت بأنه فى « طار » خصوص وصف ليس فى « عدا » وجرى » ، فكذلك فى الشفة خصوص وصف ليس فى الجحفلة .

فالجواب : إنى لم أعده فى ذلك القسم ، لأجل أن خصوص الوصف الكائن فى «طار» يراعى فى استعارته للفرس ، ألا تراك لا تقوله فى كل حال ، بل فى حال مخصوصة ؟ وكذا السباحة ، لأنك لا تستعيرها للفرس فى كل أحوال جريه ، نعم وتأبى أن تعطيها كل فرس ، فالقطوف(٣) البليد لا يوصف بأنه سابح ، وأما استعارة اسم لعضو نحو الشفة والألف فلم يراع فيه خصوص الوصف ، ألا ترى أن العجاج لم يرد بقوله :

---

(١) فى نسخة : يقابل . (٢) أى بلا شبهة .

(٣) هو ضعيف السير بطيئه .

٦٦ — (وفاحما) « ومرسنا مسرجا »

أن يشبه أنف المرأة بأنف نوع من الحيوان ، لأن هذا العضو من غير الإنسان لا يوصف بالحسن كما يكون ذلك فى العين والجيد .

وهكذا استعارة الفرسن للشاة فى قول عائشة رضى الله عنها : ولو فرسن شاة(١) ، وهو للبعير فى الأصل ، ليس لأن يشبه هذا العضو من الشاة به من البعير . كيف ولا شبه هناك وليس إذن فى مجىء الفرسن بدل الظلف أمر أكثر من العضو نفسه .

وضرب ثالث : وهو الصميم الخالص من الاستعارة .

وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية .

وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب ، كما جاء فى التنزيل من نحو قوله عز وجل (واتبعوا النور الذى أنزل معه) .

وكاستعارة الصراط للدين فى قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » ، « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » ، فأنت لا تشك فى أنه ليس بين النور والحجة ما بين طيران الطائر وجرى الفرس من الاشتراك فى عموم الجنس ، لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة والحجة كلام ، وكذا ليس بينهما ما بين الرجل والأسد من الاشتراك فى طبيعة معلومة تكون فى الحيوان كالشجاعة ، فليس الشبه الحاصل من النور فى البيان والحجة ونحوهما : إلا

(١) هو بكسر الفاء والسين : ظلف البعير ، واستعير للشاة ، ولفظ الحديث كما فى البخارى عن أبى هريرة « يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » وفى رواية عن عائشة « يا نساء المؤمنات تهادوا ولو فرسن شاة » .

أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار فى حال شبيهة بحال البصر ، إذا صادف النور، ووجهت طلائعه نحوه ، وجال فى معارفه وانتشر ، وانبث فى المسافة التى يسافر طرف الإنسان فيها. وهذا كما تعلم شبه لست تحصل منه على جنس . ولا على طبيعة وغريزة ، ولا على هيئة وصورة تدخل فى الخلقة، وإنما هو صورة عقلية .

واعلم أن هذا الضرب هو المنزلة التى تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها، ويتسع لها كيف شاءت المجـــال فى تفننها . وتصرفها وههنا تخلص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعى الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب . ولها ههنا أساليب كثيرة ، ومسالك دقيقة مختلفة . والقول الذى يجرى مجرى القانون والقسمة يغمض فيهـا ، إلا أن ما يجب أن تعلم فى معنى التقسيم لها أنها على أصول :

أحدها : أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعانى المعقولة .

وثانيها : أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها إلا أن الشبه مع ذلك عقلى .

وثالثها : أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول .

فمثال ما يجرى على الأصل الأول : ما ذكرت لك من استعارة النور للبيان والحجة ، فهذا شبه أخذ من محسوس لمعقول . ألا ترى أن النور مشاهد محسوس بالبصر والبيان والحجة مما يؤديه إليك العقل من غير واسطة من العين أو غيرها من الحواس ، وذلك أن الشبه ينصرف إلى المفهوم من الحروف والأصوات ، ومدلول الألفاظ هو الذى ينور القلب لا الألفاظ. هذا والنور يستعار للعلم نفسه أيضاً والإيمـان ، وكذلك حكم الظلمة إذا

استعيرت للشبهة والجهل والكفر ، لأنه لا شبهة فى أن الشبه والشكوك من المعقول . ووجه التشبيه أن القلب يحصل بالشبهة والجهل فى صفة البصر إذا غيبه دجى الليل فلم يجد منصرفا ، ولئن استعيرت للضلالة والكفر فلأن صاحبهما كمن يسعى فى الظلمة فيذهب فى غير الطريق وربما دنع إلى هلك ، وتردى فى أهوية(١) .

ومن ذلك استعارة القسطاس للعدل ونحو ذلك من المعانى المعقولة التى تعطى غيرها صفة الاستقامة والسداد ، كما استعاره الجاحظ فى فصل يذكر فيه علم الكلام فقال : « وهو المعيار على كل صناعة ، والزمام على كل عبارة ، والقسطاس الذى به يستبان نقصان كل شىء ورجحانه ، والراووق(٢) ، الذى به يعرف صفاء كل شىء وكدره » .

وهكذا إذا قيل فى النحو : « ميزان الكلام ومعياره » ، فهو أخذ شبه من شىء هو جسم يحس ويشاهد لمعنى يعلم ويعقل ، ولا يدخل فى الحاسة وذلك أظهر وأبين من أن يحتاج فيه إلى فضل بيان . وأما تفننه وسعته وتصرفه من مرضى ومسخوط ومقبول ومرذول ، فحق الكلام فيه بعد أن يقع الفراغ من تقرير الأصول .

ومثال الأصل الثانى ، وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس ثم الشبه عقلى قول النبى ﷺ « إياكم وخضراء الدمن »(٣) ، الشبه مأخوذ للمرأة من النبات كما لا يخفى ، وكلاهما جسم ، إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات

---

(١) أى هوة سحيقة .

(٢) المصفاة .

(٣) يريد الجارية الحسناء فى المنبت السوء (٤ : ١٦٧ العقد الفريد) .

وخضرته ، ولا طعمه ، ولا رائحته ، ولا شكله وصورته ، ولا ما شاكل ذلك ، ولا ما يسمى طبعاً كالحرارة والبرودة المنسوبتين في العادة إلى العقاقير وغيرها مما يسخن بدن الحيوان ويبرد بحصوله فيه ، ولا شيء من هذا الباب ، بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء في المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة ، وهو حسن الظاهر في رأى العين مع فساد الباطن ، وطيب الفرع مع خبث الأصل . كما أنهم إذا قالوا (١) :

« هو عسل إذا ما ياسرته ، وإن عاسرته فهو صاب » (٢)

كما قال (٣) :

٦٧ ـ عسل الأخلاق ما ياسرته   فإذا عاسرت ذقت السلعا

فالتشبيه عقلي ، إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفم واللسان ، وإنما المعنى أنك تجد منه في حالة الرضى والموافقة ما يملؤك سروراً وبهجة ، حسب ما يجد ذائق العسل من لذة الحلاوة ، ويهجم عليك في حالة السخط والإباء ما يشدد كراهتك ، ويكسبك كرباً ، ويجعلك في حالة من يذوق المر الشديد المرارة ، وهذا أظهر من أن يخفى .

ومن هذا الأصل استعارة الشمس للرجل تصفه بالنباهة والرفعة والشرف والشهرة وما شاكل ذلك ، من الأوصاف العقلية المحضة ، والتي لا تلابسها إلا بغريزة العقل ، ولا تعقلها إلا بنظر القلب .

ويظهر من ههنا أصل آخر ، وهو أن اللفظة الواحدة تستعار على طريقين مختلفين ، ويذهب بها في القياس والتشبيه مذهبين :

---

(١) وأيضاً يقال : عسل طيب في ظرف سوء (١٦٨:١ البيان والتبيين)

(٢) إذا كان شعراً فهو محرف عن مثل قولنا :

هو إن ياسرته شهد   وإذا عاسرته صاب

(٣) السلع بفتح اللام : شجر مر .

أحدهما : يفضى إلى ما تناله العيون[١] .

والآخر : يومىء إلى ما تمثله الظنون[٢] .

ومثال ذلك قولك : « نجوم الهدى » تعنى أصحاب رسول ﷺ ورضى الله عنهم ، فإنه استعارة توجب شبهاً عقلياً لأن المعنى أن الخلق بعد رسول الله ﷺ اهتدوا بهم فى الدين كما يهتدى السارون بالنجوم . وهذا الشبه لهم إلى يوم القيامة ، فبالرجوع إلى علومهم وآثارهم وفعالهم وهديهم تنال النجاة من الضلالة ، ومن لم يطلب الهدى من جهتهم فقد حرم الهدى ووقع فى الضلالة ، كما أن من لم ينظر إلى النجوم فى ظلام الليل ، ولم يتلق عنها دلالتها على المسالك التى تفضى إلى العمارة ومعادن السلامة ، وخالفها وقع فى غير الطريق ، وصار بتركه الاهتداء بها إلى الضلال البعيد ، والهلاك المبيد ، فالقياس على النجوم فى هذا ليس على حد تشبيه المصابيح بالنجوم أو النيران فى الأماكن المتفرقة ، لأن الشبه هناك من حيث الحس والمشاهدة ، لأن القصد إلى نفس الضوء واللمعان ، والشبه ههنا من حيث العقل ، لأن القصد إلى مقتضى ضوء النجوم وحكمه وعائدته ثم ما فيها من الدلالة على المنهاج ، والأمن من الزيغ عنه والاعوجاج ، والوصول بهذه الجملة منها إلى دار القرار ومحل الكرامة ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك ، ويديم توفيقنا للزوم ذلك الاهتداء ، والتصرف فى هذا الضياء . إنه عز وجل ولى ذلك والقادر عليه .

ومما لا يكون الشبه فيه إلا عقليا قولنا فى أصحاب رسول الله ﷺ : « ملح الأنام[٣] » ، وهو مأخوذ من قوله عليه السلام : « مثل أصحابى كمثل

---

(١) وهو الأشخاص وهو حسى .

(٢) وهو أوصاف هؤلاء الأشخاص وهذا عقلى .

(٣) قال قدامة فى « نقد الشعر » : قريش ملح الناس أى يستشفى بهم (ص ٦٤ نقد الشعر) .

الملح فى الطعام لا يصلح الطعام إلا بالملح » ، قالوا : فكان الحسن(١) رحمة الله عليه يقول : قد ذهب ملحنا فكيف نصنع ؟ .

وأنت تعلم أن لا وجه هٰهنا للتشبيه إلا من طريق الصورة العقلية ، وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح ، والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوساً . وينطوى هذا التشبيه على وجوب موالاة الصحابة رضى الله عنهم ، وأن تمزج محبتهم بالقلوب والأرواح ، كما يمزج الملح بالطعام ، فباتحاده به ومداخلته لأجزائه يطيب طعمه ، وتذهب عنه وخامته ، ويصير نافعاً مغذياً . كذلك بمحبة الصحابة رضى الله عنهم تصلح الاعتقادات ، وتنتفى عنها الأوصاف المذمومة ، وتطيب وتغذو القلوب ، وتنمى حياتها . وتحفظ صحتها وسلامتها وتقيها الزيغ والضلال والشك والشبهة والحيرة .

وما حكمه فى حال القلب من حيث العقل حكم الفساد الذى يعرض لمزاج البدن من أكل الطعام الذى لم يصلح بالملح ، ولم تنتف عنه المضار التى من شأن الملح أن يزيلها وعلى ذلك جاء فى صفتهم أن حبهم إيمان ، وبغضهم نفاق . هذا ولا معنى لصلاح الرجل إلا صلاح نيته واعتقاده ، ومحال أن تصلح نيتك واعتقادك بصاحبك وأنت لا تراه معدن الخير ومعانه(٢) وموضع الرشد ومكانه ، ومن علمته كذلك مازجتك محبته لا محالة ، وسيط(٣) وده بلحمك ودمك ، وهل تحصل من المحبة إلا على الطاعة والموافقة فى الإرادة والاعتقاد ، وقياسه قياس الممازجة بين الأجسام ألا تراك تقول : « فلان قريب من قلبى » تريد الوفاق والمحبة ، وعلى هذه الطريقة جرى تشبيههم النحو بالملح فى قولهم فى الكلام : كالملح فى الطعام ، إذ المعنى أن الكلام لا يستقيم ، ولا تحصل منافعه ، التى هى الدلالات على المقاصد ، إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص ، كما لا يجدى

(١) الحسن البصرى الزاهد المتوفى عام ١١٠ هـ.

(٢) أى مباءته . (٣) أى مزج .

الطعام ، ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه ، وهى التغذية ، مالم يصلح بالملح.

وأما ما يتخيلونه من أن معنى ذلك — أن القليل من النحو يغنى ، وأن الكثير منه يفسد الكلام ، كما يفسد الملح الطعام إذا كثر فيه ، فتحريف ، وقول بما لا يتحصل على البحث ، وذلك أنه لا نتصور الزيادة والنقصان فى جريان أحكام النحو فى الكلام ، ألا ترى أنه إذا كان من حكمه فى قولنا « كان زيد ذاهباً » أن يرفع الاسم وينصب الخبر ، لم يخل هذا الحكم من أن يوجد أو لا يوجد ، فإن وجد فقد حصل النحو فى الكلام وعدل مزاجه به ونفى عنه الفساد ، وأن يكون كالطعام الذى لا يغذو البدن ، وإن لم يوجد فيه فهو فاسد كائن بمنزلة طعام لم يصلح بالملح ، فسامعه لا ينتفع به بل يستضر ، لوقوعه فى عمياء وهجوم الوحشة عليه ، كما يوجبه الكلام الفاسد العارى من الفائدة ، وليس بين هاتين المنزلتين واسطة يكون استعمال النحو فيها مذموماً ، وهكذا القول فى كل كلام . وذلك أن إصلاح الكلام الأول بإجرائه على حكم النحو لا يغنى عنه فى الكلام الثانى والثالث ، حتى يتوهم أن حصول النحو فى جملة واحدة من قصيدة أو رسالة يصلح سائر الجمل ، وحتى يكون إفراد كل جملة بحكمها منه تكريراً له وتكثيراً لأجزائه ، فيكون مثله مثل زيادة أجزاء الملح على قدر الكفاية .

وكذلك لا يتصور فى قولنا « كان زيد منطلقاً » أن يتكرر هذا الحكم ويتكثر على هذا الكلام ، فيصير النحو كذلك موصوفاً بأن له كثيراً هو مذموم ، وأن المحمود منه القليل ، وإنما وزانه فى الكلام وزان وقوف لسان الميزان حتى ينبىء عن مساواة ما فى إحدى الكفتين الأخرى فكما لا يتصور فى تلك الصفة زيادة ونقصان ، حتى يكون كثيرها مذموما وقليلها محموداً ، كذلك الحكم فى الصفة التى تحصل للكلام بإجرائه على حكم النحو ووزنه بميزانه، فقول أبى بكر الخوارزمى (١): «والبغض عندى كثرة الإعراب»(٢)

(١) من شيوخ الكتاب فى العصر العباسى توفى عام ٣٨٣ هـ ، وقد ترجم له الثعالبى فى اليتيمة .

(٢) شطر بيت من السريع .

كلام لاتحصل منه على طائل ، فإن الإعراب لا يقع فيه قلة وكثرة إن اعتبرنا الكلام الواحد والجملة الواحدة ، وإن اعتبرنا الجمل الكثيرة وجعلنا إعراب هذه الجملة مضموماً إلى إعراب تلك ، فهى الكثرة التى لابد منها ، ولاصلاح مع تركها ، والخليق بالبغض من ذمها . وإن كان أراد نحو قول الفرزدق :

٦٨ — وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمـــه حى أبوه يقاربه[١]

وما كان من الكلام معقداً موضوعا على التأويلات المتكلفة مليس ذلك بكثرة وزيادة فى الإعراب ، بل هو بأن يكون نقصاً له ونقضاً أولى ، لأن الإعراب هو أن يعرب المتكلم عما فى نفسه ، ويبينه ، ويوضح الغرض ، ويكشف اللبس ، والواضع كلامه على المجازفة فى التقديم والتأخير زائل عن الإعراب ، زائغ عن الصواب ، متعرض للتلبيس والتعمية ، فكيف يكون ذلك كثرة فى الإعراب ؟ إنما هو كثرة عناء على من رام أن يرده إلى الإعراب ، لا لكثرة الإعراب ، وهذا[٢] هو كالاعتراض[٣] على طريق شجون الحديث ، ويحتاج إليه فى أصل كبير وهو أن من حق العاقل ألا يتعدى بالتشبيه الجهة المقصودة ولاسيما فى العقليات ، وأرجع إلى النسق .

ومثال الأصل الثالث ، وهو أخذ الشبه من المعقول للمعقول . وأول ذلك وأعمه تشبيه الوجود من الشىء مرة بالعدم ، والعدم مرة بالوجود .

---

(١) سبق البيت . وهو الشاهد رقم ٢٦ — وتقدير الكلام : وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبوه أبو أمه أى ليس فى الناس أحد يشبه إبراهيم ابن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك الخليفة إلا مملكا وهو هشام ابن أخت هذا الممدوح . راجع البيت فى الدلائل ص١١٩ تحقيق الخفاجى .

(٢) أى بيان وجه الشبه على حقيقته فى المثال الأخير .

(٣) أى ذكر على سبيل الاستطراد .

أما الأول(١) : فعلى معنى أنه لما قل فى المعانى التى بها يظهر للشىء قدر ، ويصير له ذكر ، صار وجوده كلا وجود .

(و) أما الثانى(٢) : فعلى معنى أن الفانى كان موجوداً ثم فقد وعدم ، إلا أنه لما خلف آثاراً جميلة تحيى ذكره ، وتديم فى الناس اسمه ، صار لذلك كأنه لم يعدم .

وأما ما عداهما من الأوصاف فيجىء فيها طريقان :

١ — أحدهما : هذا ، وذلك فى كل موضع كان موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وإن كانت موجودة لخلوها مما هو ثمرتها والمقصود منها ، والذى إذا خلت منه لم تستحق الشرف والفضل .

تفسير هذا أنك وصفت الجاهل بأنه ميت ، وجعلت الجهل كأنه موت على معنى أن فائدة الحياة والمقصود منها هو العلم والإحساس ، فمتى عدمهما الحى فكأنه قد خرج عن حكم الحى ، ولذلك جعل النوم موتا إذ كان النائم لا يشعر بما بحضرته كما لا يشعر الميت .

والدرجة الأولى فى هذا أن يقال : فلان لا يعقل ، وهو بهيمة وحمار ، وما أشبه ذلك ، مما يحطه من معانى المعرفة الشريفة ، ثم أن يقال : فلان لا يعلم ولا يفقه ولا يحس ، فينفى عنه العلم والإحساس جملة ، لضعف أمره فيه ، وغلبة الجهل عليه ، ثم تجعل التعريض تصريحاً فيقال : هو ميت خارج من الحياة ، وهو جماد ، توكيدا وتناهياً فى إبعاده عن العلم والمعرفة ، وتشدداً فى الحكم بأن لا مطمع فى انحسار غيابة(٣) الجهل عنه ، وإفاقته مما به من سكرة الغى والغفلة ، وأن يؤثر فيه الوعظ والتنبيه .

ثم لما كان هذا مستقرا فى العادة ، أعنى جعل الجاهل ميتاً خرج منه أن يكون المستحق لصفة الحياة هو العالم المتيقظ لوجه الرشد ، ثم لما لم يكن

---

(١) وهو تشبيه الوجود بالعدم .

(٢) وهو تشبيه العدم بالوجود .

(٣) أى شدة ظلمته .

علم أشرف وأعلى من العلم بوحدانية الله تعالى ، وبما نزله على النبي ﷺ جعل من حصل له العلم بعد أن لم يكن كأنه إنما وجد الحياة ، وصارت صفة له مع وجود نور الإيمان في قلبه ، وجعل حالته السابقة التي خلافيها من الإيمان كحالة الموت التي تعدم معه الحياة ، وذلك قوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه[١]) ، وأشباه ذلك .

ومن هذا الباب قولهم « فلان حي القلب » ، يريد أن أنه ثاقب الفهم، جيد النظر ، مستعد لتمييز الحق من الباطل فيما يرد عليه ، بعيد من الغفلة التي هي كالموت ويذهبون به في وجه آخر ، وهو أنه حرك[٢] نافذ في الأمور غير بطيء النهوض[٣] ، وذلك أن هذه الأوصاف من أمارات الصحة واعتدال المزاج وتوقد نار الحياة ، وهذا يصلح في الإنسان والبهائم لأنه تعريض بالقدرة والقوة . والمذهب الأول إشارة إلى العلم والعقل وكلتا الصفتين أعني القدرة والعلم مما يشرف به الحي ومما يضاده الموت وينافيه ، ولما كان الأمر كذلك صار إطلاق الحياة مرة عبارة عن العلم ، وأخرى عن القدرة ، وإطلاق الموت إشارة إلى عدم القدرة وضعفها تارة ، وإلى عدم العلم وضعفه أخرى .

والقول الجامع في هذا أن تنزيل الوجود منزلة العدم — إذا أريد المبالغة في حط الشيء والوضع منه وخروجه عن أن يعتد به ، كقولهم هو والعدم سواء — معروف متمكن في العادات ، وربما دعاهم الإيغال وحب السرف إلى أن يطلبوا بعد العدم منزلة هي أدون منه ، حتى يقعوا في ضرب من التهوس[٤] كقول أبي تمام[٥] .

---

(١) من آية ١٢٢ — سورة الأنعام .

(٢) أي ذكي خفيف بوزن : مرح ، بكسر الراء .

(٣) كما في حديث دعاء الانتباه : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » — فسمى النوم موتاً .

(٤) التهوس : المشي الثقيل في الأرض اللينة أو هو ضرب من الجنون .

(٥) راجع البيت في الوساطة ص ٢٠ طبعة صبيح وهو في هجاء ابن المعذل .

٦٩ — (أفى تنظم قول الزور والفند)
وأنت أنزر من لا شىء فى العدد(١)

وقول ابن نباتة(٢) :

٧٠ — مازلت أعطف أيامى فتمنحنى
نيلا أدق من المعدوم فى العــــدم

ويتفرع على هذا إثبات الفضيلة للمذكور بإثبات اسم «الشىء» له، ويكون ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يريد المدح وإثبات المزية والفضل على غاية المبالغة حتى لا تحصّل عليه مزيداً فإذا أردت ذلك جعلت الإثبات كأنه مقصور عليه لا يشارك فيه، وذلك قولك «هذا هو الشىء وماعداه فليس بشىء»، أى إن ماعداه إذا قيس إليه صغر وحقر حتى لا يدخل فى اعتداد وحتى يكون وجدانه كفقدانه، فقد نزلت الوجود فيمن عدا المذكور منزلة العدم.

وإما أن يكون التفضيل على توسط ويكون القصد الإخبار بأنه غير ناقص على الجملة، ولا ملغى منزل منزلة المعدوم، وذلك قولك «هذا شىء» أى داخل فى الاعتداد، وفى هذه الطريقة أيضاً تفاوت، فإنك تقول مرة : «هذا إما لا شىء(٣)» تريد أن تقول إن الآخر ليس بشىء ولا اعتداد به أصلا، وتقول أخرى «هذا شىء» تريد شىء له قدر وخطر، وتجرى لك

---

(١) مثله قول المتنبى : حتى أرى أحدا يهجوه لاأحد، — وقول الراعى النميرى فى ابن الرقاع :

لو كنت من أحد يهجى هجوتكم ... يابن الرقاع ولكن لست من أحد

(راجع ١ : ٨٥ زهر الآداب — زكى مبارك).

(٢) السعدى المتوفى عام ٤٠٥ هـ، وهو شاعر مجيد، وهوغير ابن نباتة الخطيب، وابن نباتة الشاعر المصرى المشهور المتوفى عام ٧٦٨ هـ.

(٣) صحة العبارة : ما شىء إلا هذا.

لك هذه الوجوه فى أسماء الأجناس كلها ، تقول : هذا هو الرجل ، أى إن من عداه ليس من الرجولية فى شىء ، وهذا هو الشعر فحسب : تبالغ فى التفضيل وتجعل حقيقة الجنس مقصورة على المذكور ، وتقول « هذا رجل » تريد أنه كامل فى الرجال ، لا أن من عداه ليس برجل على الكمال ، وقد تقول « هذا إما لا رجل »(١) تريد : يستحق أن يعد فى الرجال ، ويكون قصدك أن تشير إلى أن هناك واحداً آخر لا يدخل فى الاعتداد أصلا ولا يستحق اسم الرجل .

وإذا كان هذا هو الطريق المتبع فى الوضع من الشىء وترك الاعتداد به والتفضيل له والمبالغة فى الاعتداد به ، فكل صفتين تضادتا ثم أريد نقص الفاضلة منهما عبر عن نقصها باسم ضدها ، فجعلت الحياة العارية من فضيلة العلم والقدرة موتاً ، والبصر والسمع -إذا لم ينتفع صاحبهما بما يسمع ويبصر فلم يفهم معنى المسموع ولم يعتبر بالمبصر أو لم يعرف حقيقته - عمى وصمماً ، وقيل للرجل « هو أعمى أصم » - يراد أنه لا يستفيد شيئاً مما يسمع ويبصر ، فكأنه لم يسمع ولم يبصر ، وسواء عبرت عن نقص الصفة بوجود ضدها أو وصفها(٢) بمجرد العدم ، وذلك أن فى إثبات أحد الضدين وصفاً للشىء ونفياً للضد الآخر لاستحالة أن يوجدا معاً فيه فيكون الشخص حياً ميتاً معاً ، أصم سميعاً فى حالة واحدة ، فقولك فى الجاهل : هو ميت بمنزلة قولك : ليس بحى ، وأن الوجود فى حياته بمنزلة العدم . هذا هو ظاهر المذهب فى الأمر والحكم إذا أطلق القول .

فأما إذا قيد كقوله : « أصم عما ساءه سميع » ، فتثبت له الصفتان معاً على الجملة . إلا أن مرجع ذلك إلى أن يقال إنه كان يفقد السمع فى حال ويعود إليه فى حال ، أو إنه فى حق هذا الجنس فاقد الإدراك مسلوبه وفيما عداه كائن على حكم السمع فلم يثبت له الصمم على الجملة إلا للحكم بأن وجود

(١) صحة العبارة : ما رجل إلا هذا .

(٢) لعل صحة الكلمة : أو وصفتها .

سمه كالعدم ، إلا أن ذلك فى شىء دون شىء وعلى التقييد دون الإطلاق .

فقد تبين إذن أن أصل هذا الباب تنزيل الموجود منزلة المعدوم لكونه بحيث لا يعتد به وخلوه من الفضيلة .

والطريق الثانى فى شبه المعقول من المعقول ألا يكون على تنزيل الوجود منزلة العدم ، ولكن على اعتبار صفة معقولة يتصور وجوها مع ضد ما استعرت اسمه . فمن ذلك أن يراد وصف الأمر بالشدة والصعوبة والبلوغ فى كونه مكروها إلى الغاية القصوى فيقال « لقى الموت » يريدون لقى الأمر الشديد الصعب الذى هو فى كراهة النفس له كالموت . ومعلوم أن كون الشىء شديداً صعباً مكروها صفة معلومة لا تنافى الحياة ولا يمنع وجودها معه كما يمنع وجود الموت مع الحياة ألا ترى أن كراهة الموت موجود فى الإنسان قبل حصوله ؟ كيف وأكره ما يكون الموت إذا صفت مشارع الحياة ، وخصبت مسارح اللذات . فكلما كانت الحياة أمكن وأتم : كانت الكراهة للموت أقوى وأشد ، ولم تخف كراهته على العارفين إلا لرغبتهم فى الحياة الدائمة الصافية من الشوائب بعد أن تزول عنهم هذه الحياة الفانية ويدركهم الموت فيها ، فتصورهم لذة الأمن منه ، قلل كراهتهم له ، كما أن ثقة العالم بما يعقبه الدواء من الصحة يهون عليه مرارته . فقد عبرت ههنا عن شدة الأمر بالموت واستعارته له من أجلها ، والشدة وحصولها الكراهة موجودة فى كل واحد من المستعار له والمستعار منه .

فليس التشبيه إذن من طريق الحكم على الوجود بالعدم ، وتنزيل ماهو موجود كأنه قد خلع صفة الوجود ، وذلك أن هذا الحكم إنما جرى فى تشبيه الجهل بالموت ، وجعل الجاهل ميتاً من حيث كان للجهل ضد ينافى الموت ويضاده وهو العلم ، فلما أردت أن تبالغ فى نفى العلم الذى يجب مع نفيه الجهل ، جعلت الجهل موتاً لتؤيس من حصول العلم المذكور ، وليس لك هذا

فى وصف الأمر الشديد المكروه بأنه موت ، ألا ترى أن قوله[١] :

٧١ — لا تحسبن الموت موت البلى   وإنما الموت ســؤال الرجال

لا يفيد أن للسؤال ضداً ينافى الموت أو يضاده على الحقيقة وأن هذا القائل قصد بجعل السؤال موتاً نفى ذلك الضد وأن يؤيس من وجوده وحصوله ، بل أراد أن فى السؤال كراهة ومرارة مثل ما فى الموت . وأن نفس الحر تنفر منه كما تنفر نفوس الحيوان جملة من الموت وتطلب الحياة ما أمكن الخلاص منه .

فإن قلت : المعنى فيه أن السؤال يكسب الذل وينفى العز ، والذليل كالميت لفقد القدرة والتصرف ، فصار كتسميتهم خمول الذكر موتاً ، والذكر بعد الموت حياة ، كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه « مات خزان المال والعلماء باقون مابقى الدهر، أعيانهم مفقودة ،وأمثالهم فى القلوب موجودة» .

قلت : إنى آنس أنهم لم يقصدوا هذا المعنى فى السؤال ، وإنما أرادوا الكراهة ، ولذلك قال بعد البيت الذى كتبته :

٧٢ — كلاهما موت ولكن ذا   أشــد من ذاك لذل السؤال[٢]

هذا ، وليس كل ما يعبر عنه بالموت لأنه يكره ويصعب ولا يستسلم له العاقل إلا بعد أن تعوزه الحيل فإنه يحمل هذا المحمل وينقاد لهذا التأويل ، أترى المتنبى فى قوله :

٧٣ — وقد مت أمس بها موتة   ولا يشتهى الموت من ذاقه

---

(١) هو لمطرف بن عبد الله البصرى التابعى المتوفى عام ٩٥هـ ، وراجع البيت فى البيان والتبيين صفحة ١٣ ج ٢ — والبيت مذكور فى دلائل الإعجاز ص ٢٥٦ تحقيق الخفاجى .

(٢) رواية البيان : على كل حال ، بدلا من ، لذل السؤال ، والبيت مذكور فى الدلائل ص ٢٥٦ تحقيق الخفاجى .

أراد شيئاً غير أنه لقى شدة ، وأما العبارة عن خمول الذكر بالموت ، فإنه وإن كان يدخل فى تنزيل الوجود منزلة العدم من حيث يقال إن الخامل لما لم يذكر ولم يبن منه ما يتحدث به صار كالميت الذى لا يكون منه قول بل ولا فعل يدل على وجوده ، فليس دخوله فيه ذلك الدخول ، وذلك أن الجهل ينافى العلم ويضاده كما لا يخفى ، والعلم إذا وجد فقد وجدت الحياة حتما واجباً ، وليس كذلك خمول الذكر والذكر ، لأنه ليس إذا وجد الذكر فقد وجدت الحياة ، لأنك تحدث عن الميت بأعماله التى كانت منه فى حال الحياة فيتصور الذكر ولا حياة على الحقيقة ، ولا يتصور العلم ولا حياة على الحقيقة . وهكذا القول فى الطرف الآخر وهو تسمية من لا يعلم ميتاً ، وذلك أن الموت هاهنا عبارة عن عدم العلم وانتفائه . وعدم العلم على الإطلاق حتى لا يوجد منه شىء أصلا وحتى لا يصح وجوده يقتضى وجود الموت على الحقيقة ولا يمكن أن يقال إن خمول الذكر يوجب الموت على الحقيقة فأنت إذن فى هـذا تنزل الوجود منزلة العدم على وجه لا ينصرف إلى الحقيقة ولا يصير إليها وإنما يمثل ويخيل .

وأمّا فى الضرب الأول : وهو جعل من يعلم ميتاً ومن يعلم هو الحى فإنك تلاحظ الحقيقة وتشير إليها وتحطب فى حبلها(١) فاعرفه .

وأما قولهم فى الغنى إذا كان بخيلا لا ينتفع بماله « إن غناه فقر » فهو فى الضرب الأول : أعنى تنزيل الوجود منزلة العدم ، لتعرى الوجود مما هو المقصود منه ، وذلك أن المال لا يراد لذاته ، وإنما يراد للانتفاع به فى الوجوه التى تعدها العقلاء انتفاعا ، فإذا حرم مالكه هذه الجدوى وهذه الفائدة فملكه له وعدم الملك سواء ، والغنى إذا صرف إلى المال فلا معنى له سوى ملك الإنسان الشىء الكثير منه ، ألا تراه يذكر مع الثروة فيقال غنى مثر

---

(١) حطب فى حبلهم : نصرهم .

مكثر ، فإذا تبين بالعلة التي مضت أنه لا يستفيد بملكه هذا المال معنى ، وأن لا طائل له فيه ، فقد ثبت أن غناه والفقر سواء ، لأن الفقر ألا يملك المال الكثير . وأما قول اللؤماء : إن انتفاعه فى اعتقاده أنه متى شاء انتفع به ، وما يجد فى نفسه من عزة الاستظهار ، وأنه يهاب ويكرم من أجله ، فمن أضاليل المنى ، وقد يهان ويذل بسببه حتى تنزع الروح دونه .

ثم إن هذا الكلام وضعه العقلاء الذين عرفوا ما الانتفاع ؟ وهذا المخالف لا ينكر أن الانتفاع لو عدم كان ملكه الآن لمال وعدم ملكه سواء ، وإنما جاء يتطلب عذراً ، ويرخى دون لؤمه ستراً ، ونظير هذا أنك ترى الظالم المجترىء على الأفعال القبيحة يدعى لنفسه الفضيلة بأنه مديد الباع ، طويل اليد ، وأنه قادر على أن يلجىء غيره إلى التطامن[1] له ، ثم لا يزيده احتجاجه إلا خزياً وذلا عند الله وعند الناس ، وترى المصدق له فى دعواه أذم له وأهجى من المكذب لأن الذى صدقه أيس من أن ينزع إلى الإنسانية بحال ، والذى كذب ربما أن ينزع عند التنبيه والكشف عن القبيح .

وأما قولهم فى القناعة إنها الغنى كقوله[2] :

٧٤ — (ولو قنعت أتانى الرزق فى دعة)
إن القنوع الغنى لا كثرة المال

يريد القناعة[3] ، وكما قال الآخر :

٧٥ — إن القناعة فاعلمن غنى والحرص يورث أهله الفقرا

وجعلهم الكثير المال إذا كان شرها حريصاً على الازدياد فقيراً . فمما يرجع إلى الحقيقة المحضة ، وإن كان فى ظاهر الكلام كالتشبيه والتمثيل .

---

(١) أى الخضوع والذلة . (٢) أى إسحاق الموصلى .
(٣) يريد : العفة . وأما القنوع : فهو السؤال وليس بمراد .

وذلك أن حقيقة الغنى هو انتفاء الحاجة ، والحاجة أن تريد الشيء ولا تجده ، والكثير المال إذا كان الحرص عليه غالباً ، والشره له أبداً صاحباً ، وكان حاله كحال من به كلب الجوع يأكل ولا يشبع ، أو من به البَغَر يشرب ولا يرى ، فكما أن إصابته من الطعام والشراب القدر الذى يشبع ويروى — إذا كان المزاج معتدلا والصحة صحيحة — لا تنفى عنه صفة الجائع والظمآن لوجود الشهوة ودوام مطالبه النفس وبقاء لهيب الظمأ وجهد العطش — كذلك الكثير المال لا تحصل له صفة الغنى ولا تزول عنه صفة الفقر ، مع بقاء حرصه الذى يديم له القرم والشهوة والحاجة والطلب والضجر حين يفقد الزيادة التى يريدها ، وحين يفوته الربح من تجاراته ، وسائر متصرفاته ، حتى لا يكاد يفصل بين حاله ، وقد فاته ما طلب ، وبينها وقد أخذ بعض ماله وغصب ، ومن أين تحصل حقيقة الغنى لذى المال الكثير ، وقد تراه من بخله وشحه كالمقيد دون ما ملكه والمغلول اليد يموت صبراً ويعانى بؤساً ولا تمتد يده إلى ما يزعم أنه يملكه فينفقه فى لذة نفس أو فيما يكسب حمداً اليوم وأجراً غداً . ذاك لأنه عدم كرما يبسط أنامله ، وجوداً ينصر آمله ، وعقلا ينصره ، وهمة تمكنه مما لديه ، وتسلطه عليه ، كما قال البحترى :

٧٦ — وواجد مال أعوزته سجية تسلطه يوماً على ذلك الوجد[١]

فقولهم إذن « إن القناعة هى الغنى لا كثرة المال » إخبار عن حقيقة نفذت بها قضايا العقول وصححتها الخبرة والعبرة ، ولكن رب قضية من العقل نافذة قد صارت كأنها من الأمور المتجوز فيها أو دون ذلك فى الصحة لغلبة الجهل والسفه على الطباع ، وذهاب من يعمل بالعقل ويذعن له ، ويطرح الهوى ، ويصبو إلى الجميل ، ويأنف من القبيح ، لذهاب الحياء وبطلانه ،

---

(١) بوزن قفل هو الغنى .

وخروج الناس من سلطانه ، ويأس العاقل من أن يصادف عندهم — إن نبه أو ذكر — سمعاً يعى ، وعقلا يراعى ، لجرى الغنى على كثرة المال والفقر على قلته مما يزيله العرف عن حقيقته فى اللغة ، ولما كان الظاهر من حال الكثير المال أنه لا يعجز عن شىء يريده من لذاته وسائر مطالبه سمى المال الكثير غنى.

وكذلك لما كان من قل ماله عجز عن إرادته سمى قلة المال فقراً ، فهو من جنس تسمية السبب باسم المسبب ، وإلا فحقيقة الغنى انتفاء الاحتياج وحقيقة الفقر الاحتياج ، والله تعالى الغنى على الحقيقة لاستحالة الاحتياج عليه جل وتعالى عن صفات المخلوقين .

وعلى ذاك(١) ماجاء فى الخبر من أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع ، قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وزكاته وصيامه فيأتى وقد شتم هذا وأكل مال هذا وقذف هذا وضرب هذا وسفك دم هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يفنى ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

وذاك أنه ﷺ بين الحكم فى الآخرة . فلما كان الإنسان إنما يعد غنياً فى الدنيا بماله لأنه يجتلب به المسرة ، ويدفع المضرة ، وكان هذا الحكم فى الآخرة للعمل الصالح . ثبت لا محالة أن يكون الخالى — نعوذ بالله من ذلك — هو المفلس ، إذ قد عرى مما لأجله يسمى الخالى من المال فى الدنيا مفلساً ، وهو ما يوصله إلى الخير والنعيم ، ويقيه الشر والعذاب الأليم ، نسأل الله التوفيق لما يؤمن من عقابه .

---

(١) أى تسمية السبب باسم المسبب ، وإن صار حقيقة عرفية .

وإذا كان البحث والنظر يقتضى أن الغنى والفقر فى هذا الوجه دالان على حقيقة هذا التركيب فى اللغة كقولك غنيت عن الشىء واستغنيت عنه إذا لم تحتج إليه ، وافتقرت إلى كذا إذا احتجت إليه ، وجب ألا يعدواها(١) ههنا فى المستعار والمنقول عن أصله .

---

(١) أى الحقيقة .

فصـــل

إن قال قائل : إن تنزيل الوجود منزلة العدم ، أو العدم منزلة الوجود ، ليس من حديث التشبيه فى شىء ، لأن التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معانى ذاك ، أو حكما من أحكامه(١) ، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور ، فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل ، كما تفصل بالنور بين الأشياء .

وإذا قلت فى الرجل القليل المعانى(٢) هو معدوم ، أو قلت هو والعدم سواء ، فلست تأخذ له شبها من شىء ، ولكنك تنفيه وتبطل وجوده ، كما أنك إذا قلت ليس هو بشىء ، أو ليس برجل ، كان كذلك ، وكما لا يسمى أحد نحو قولنا « ليس بشىء » تشبيها كذلك ينبغى ألا يكون قولك ، وأنت تقلل الشىء أخبرت عنه : « معدوم » تشبيها . وكذلك إذا جعلت المعدوم موجوداً كذلك مثلا المال يذهب ويفنى ويثمر صاحبه ذكراً جميلا ، وثناء حسناً : إنه باق لك موجود ، لم يكن ذلك تشبيهاً ، بل إنكاراً لقول من نفى عنه الوجود ، حتى كأنك تقول : عينه باقية كما كانت ، وإنما استبدل بصورة صورة ، فصار جمالا ، بعد ما كان مالا ، ومكارم ، بعد أن كان دراهم .

وإذا ثبت هذا فى نفس الوجود والعدم ثبت فى كل ما كان على طريق تنزيل الصفة الموجودة كأنها غير موجودة ، نحو ما ذكرت من جعل الموت عبارة عن الجهل ، فلم يكن ذلك تشبيهاً ، لأنه إذا كان لا يراد بجعل الجاهل

(١) الفرق بين الحكم والمعنى أنه إذا أثبتت صفة من صفات المشبه به للمشبه سمى ذلك المثبت معنى ، وإذا أثبت حكم من صفات المشبه به للمشبه سمى ذلك المثبت حكما — راجع الأسرار تحقيق المراغى ص ٩٧ .

(٢) أى الأخلاق والصفات .

ميتا إلا نفى الحياة عنه مبالغة ، ونفى العلم والتمييز والإحساس الذى لا يكون إلا مع الحياة ، كان محصوله أنك لم تعتد بحياته ، وترك الاعتداد بالصفة لا يكون تشبيها ، إنما هو نفى لها ، وإنكار لقول من أثبتها .

فالجواب أن الأمر كما ذكرت ، ولكن تتبعت فيما وضعته(١) ظاهر الحال ، ونظرت إلى قولهم : « موجود كالمعدوم ، وشىء كلا شىء ، ووجود شبيه بالعدم » .

فإن أبيت أن تعمل على هذا الظاهر لم أضايق فيه إلا أن من حقك أن تعلم أنه لا غنى بك عن حفظ الترتيب الذى رتبته فى إعطاء المعقول اسم معقول آخر ، أعنى لابد من أن تعلم أنه يجىء على طريقين :

أحدهما : تنزيل الوجود منزلة العدم ، كما مضى من أن جعل الموت عبارة عن الجهل وإيقاع اسمه عليه ، يرجع إلى تنزيل حياته الموجودة كأنها معدومة .

والثانى : ألا يكون (على) هذا المعنى ، ولكن على أن لأحد المعنيين شبها بالآخر ، نحو أن السؤال يشبه فى كراهته وصعوبته على نفس الحر الموت .

واعلم أنى ذكرت لك فى تمثل هـــذه الأصول : الواضح الظاهر ، القريب المتناول ، الكائن من قبيل المتعارف فى كل لسان ، وما تجد اعترافا به وموافقة عليه من كل إنسان ، أو ما يشابه هذا الحد ويشاكله . ويداخل هذا الضرب ويشاركه ، ولم أذكر ما يدق ويغمض ، ويلطف ويغرب ، وما هو من الأسرار التى أثارتها الصنعة ، وغاصت عليها فكرة الأفراد من ذوى البراعة فى الشعر ، لأن القصد إذا كان لتمهيد الأساس ، ووضع قواعد للقياس ، كان الأولى أن يعمد إلى ما هو أظهر وأجلى من الأمثلة ، لتكون الحجة بها عامة ، لا يصرف وجهها بحـــال ، والشهادة تامة

(١) أى ذكرته — ولعل صحتها : وصفته .

لا تجد من السامعين غير قبول وإقبال ، حتى إذا تمهدت القواعد ، وأحكمت العرى والمعاقد ، أخذ حينئذ فى تتبع ما اخترعته القرائح ، وعمد إلى حل المشكلات عن ثقة بأن هيئت المفاتح .

(خاتمة الكلام على الاستعارة) :

هذا ، وفى الاستعارة بعد من جهة القوانين والأصول شغل الفكر ، ومذهب القول ، وخفايا ولطائف تبرز من حجبها ، بالرفق والتدريج ، والتلطف والتأنى ، ولكنى أظن أن الصواب أن أنقل الكلام إلى القول على التشبيه والتمثيل وحقيقتهما ، والمراد منهما ، خصوصاً و كلام من يتكلم على الشعر(١) ، وتتعرف : أهما متساويان(٢) فى المعنى أم مختلفان ؟ أم جنسهما واحد ، إلا أن أحدهما أخص من الآخر ؟ وأنا أضع لك جملة من القول تبين بها هذه الأمور .

---

(١) أى على نقده ، من مثل قدامة والآمدى والجرجانى وأبى هلال .

(٢) وهو مذهب الزمخشرى الذى يرى أنهما متساويان فى المعنى ولكن القسمة دعت إلى ذلك .

التشبيه والتمثيل

أقسام التشبيه(١)

(١) ذكره أبو العباس المبرد التشبيه فى كتاب ـ الكامل ـ فعقد له باباً بعد باب «فى ذكر ما فيه استراحة للقارىء» قال فى أوله: وهذا باب طريف نصل به هذا الباب الجامع الذى ذكرناه، وهو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب، والمحدثين بعدهم.

ثم قال: فأحسن ذلك مما جاء بإجماع الرواة ما مر لامرىء القيس فى كلام مختصر، أى بيت واحد، من تشبيه شىء فى حالتين بشيئين مختلفتين، وهو قوله:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

ثم علق عليه فقال: فهذا مفهوم المعنى، فإن اعترض معترض فقال: فهلا فصل فقال: كأنه رطبا العناب وكأنه يابسا الحشف؟ قيل له: العربى الفصيح الفطن اللقن يرمى بالقول مفهوما، ويرى ما بعد ذلك عيا قال الله جل وعز وله المثل الأعلى: (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) علماً بأن المخاطبين يعرفون وقت السكون ووقت الاكتساب.

ثم قال: ومن تمثيل امرىء القيس:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

ومن ذلك قوله:

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقد أكثر الناس فى الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى، ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ.

. . . .

ثم قال : ومن أعجب التشبيه قول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله :

خطاطيف حجن فى حبال متينة ... تمد بها أيد إليك نوازع

وقد مضى فى هذه الشواهد من التشبيه ، إلى أن ذكر منها قول دعبل بن على فى صفة مصلوب :

لم أر صفاً مثل صف الزط ... تسعين منهم صلبوا فى خط

من كل عال جذعه بالشط ... كأنه فى جذعه المشتط

أخو نعاس جد فى التمطى ... قد خامر النوم ولم يغط

وقال : واعلم أن للتشبيه حداً ، فالأشياء تتشابه من وجوه وتتباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق ، والعرب تشبه النساء ببيض النعام ، تريد نقاءه ونعمة لونه ، قال الراعى :

كأن بيض نعام فى ملاحفها ... إذا اجتلاهن قيظ ليله ومد

وقد مضى بعد هذا فى ذكر جيد التشبيه إلى أن ذكر قول أبى عبد الرحمن العطوى :

قد رأينا الغزال والغصن والنجـ ... ـمين شمس الضحى وبدر الظلام

فوحق البيان يعضده البر ... هان فى مأقط ألد الخصام

ما رأينا سوى المليحة شيئاً ... جمع الحسن كله فى نظام

فهى تجرى مجرى الأصالة فى الرأ ... ى ومجرى الأرواح فى الأجسام

ثم قال فى أواخر هذا الباب : والتشبيه جار كثيراً فى كلام العرب حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يبعد ، قال الله عز وجل ، ولله المثل الأعلى :

. . . .

« الزجاجة كأنها كوكب درى » ، وقال : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » .
وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين فى هذه الآية فقال: إنما يمثل الغائب بالحاضر ، ورؤوس الشياطين لم نرها ، فكيف يقع التمثيل بها ؟ وهؤلاء كما قال الله جل وعز : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » ، وهذه الآية قد جاء تفسيرها فى ضربين : أحدهما أن شجرا منكر الصورة يقال لثمره رؤوس الشياطين ، وهو الذى ذكره النابغة فى قوله :

تحيد من أستن سود أساقله

والقول الآخر — وهو الذى يسبق إلى القلب — أن الله جل ذكره شنع صورة الشياطين فى قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس ، ثم ساق فى تأييد ذلك قصة طويلة لأبى النجم العجلى مع هشام بن عبد الملك يصف فى آخرها ابنته — ظلامة — بقوله:

كأن ظلامة أخت شيبان ... يتيمة ووالداها حيان
الرأس قمل كله وصئبان ... وليس فى الرجلين إلا خيطان

فهى التى يذعر منها الشيطان

فأمر هشام له بدنانير وزنها خمسمائة ليجعلها فى رجلى ظلامة مكان الخيطين ، ثم قال : أفلا تراه قال : فهى التى يذعر منها الشيطان ، وإن لم يره ، لما قرر فى القلوب من نكارته وشناعته .

وقال آخر :

وفى البقل إن لم يدفع الله شره ... شياطين يعدو بعضهن على بعض

وقال الراجز :

أبصرتها تلتهم الثعبانا ... شيطانة تزوجت شيطانا

. . . .

وقال امرؤ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فالمبرد لا يفرق بين التشبيه والتمثيل ، بل يستعمل كلا منهما وما تصرف منه مكان الآخر ، ولا يفرق في ذلك بين تشبيه مفرد ، كما في تشبيه الوجه بالشمس ، ولا تشبيه متعدد ، كما في قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

ولا تشبيه مركب ، كما في قول دعبل :

لم أر صفاً مثل صف الزط تسعين منهم صلبـــوا في خط

كما لا يفرق ذلك بين تشبيه حسي بحسي وغيره من أنواع التشبيه ، لأنه قد ذكر شواهد أيضاً من هـذه الأنواع ، ولم يفرق فيها بين تشبيه وتشبيه .. ومن تشبيه الحسي بالعقلي ما جاء في قول أبي عبدالرحمن العطوي:

فهي تجري مجرى الأصالة في الرأ ي ومجرى الأرواح في الأجسام

ومن تشبيه الحسي بالخيالي قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال؟

وقد عد قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) التمثيل نوعاً مخالفاً للتشبيه ، وقد تكلم أولا على التشبيه فقال : يجب أن نذكر أولا معنى التشبيه ثم نشرع في وصفه فنقول : إنه من الأمور المعلومة أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ، إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا ، فصار الاثنان واحداً فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها ، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منها بصفتها . وإذ كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما أوقع

. . . .

بين الشيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد .

ثم قال : ومما جاء من التشبيهات الحسان قول يزيد بن عوف العليمى يذكر صوت جرع رجل قرى اللبن :

فغب دخالا جرعه متواتر كوقع السحاب بالطراف الممدد

فهذا المشبه إنما يشبه صوت الجرع بصوت المطر على الخباء الذى من أدم ، ومن جودته أنه لما كانت الأصوات تختلف ، وكان اختلافها إنما هو بحسب الأجسام التى تحدث الأصوات وليس يدفع أن اللبن وعصب المرىء اللذين حدث عن اصطكاكهما صوت الجرع قريب الشبه من الأديم الموتن والماء اللذين حدث عن اصطكاكهما صوت المطر .

ويسرد قدامة شواهد التشبيه على هذا النحو الذى مهد به الإمام عبد القاهر بعده ، فلا يكتفى بالشواهد يسردها سرداً ، بل يقف عند كل شاهد يبين سر جودة التشبيه فيه ، كما فعل فى هذا البيت ، وقد ذكر بعده شواهد على هذا النحو ، ثم قال : وقد يقع فى التشبيه تصرف إلى وجوه تستحسن :

فمنها أن تجمع تشبيهات كثيرة فى بيت واحد وألفاظ يسيرة ، كما قال امرؤ القيس :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل

فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء ، وذلك أن مخرج قوله « له أيطلا ظبى » إنما هو على أن له أيطلين كأيطلى الظبى الخ .

ومنها أن يشبه شىء فى تصرف أحواله بأشياء تشبه فى تلك الأحوال كما قال امرؤ القيس يصف الدرع فى حال طيها :

ومشدودة السك موضونة تضاءل فى الطى كالمبرد

. . . .

ثم وصفها فى حال النشر فقال :

تفيض على المرء أردانهـــا كفيض الأتى على الجدجد

وتكلم قدامة على التمثيل فى باب « نعت ائتلاف اللفظ مع المعنى» وقد تكلم فى هذا الباب على جملة أمور : أولها المساواة ، وثانيها الإشارة - يعنى الإيجاز ، وثالثها الإرداف - يعنى الكناية ، ورابعها التمثيل ، وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاما يدل على معنى آخر ، وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه ، وهذا التعريف الذى عرف به التمثيل لا يوضح المراد منه توضيحاً تاماً ، لأنه يشمل غيره من المجاز ، بل يشمل الكناية أيضاً .

وذكر بيت الرماح :

ألم تك فى يمنى يديك جعلتنى فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا

وقال : عدل عن أن يقول:إنه كان عنده مقدما فلا يؤخره ، أو مقربا فلا يبعده ، أو مجتبى فلا يجتنبه ، إلى أن قال إنه كان فى يمنى يديه فلا يجعله فى اليسرى ، ذهاباً نحو الأمر الذى قصد الإشارة إليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل له والإبداع فى المقالة ، وعلى ذلك قول عمير بن الأيهم :

راح القطين من الأوطان أو بكروا وصدقوا من نهار الأمس ما ذكروا

قالوا لنـا وعرفنـا بعـد بينهم قولا فما وردوا عنه وما صدروا

فكان يستغنى عن قوله « فما وردوا عنه وما صدروا » بأن يقول : فما تعدوه أو فما تجاوزوه ، ولكن لم يكن له من مواقع الإيضاح وغرابة المثل ما لقوله « فما وردوا عنه وما صدروا » .

ثم قال : ومثل ذلك قول عبد الرحمن بن على بن علقمة بن عبدة :

. . . .

أوردتهم وصدور العيس مسنفة والصبح بالكواكب الدرى منحور

فقد أشار إلى الفجر إشارة ظريفة بغير لفظه .

وذكر صاحب كتاب « نقد النثر » الاستعارة وأراد بها المجاز مطلقاً ، ولكن هذا الكتاب قد تبين عدم نسبته لقدامة ، فلا يؤخذ ما فيه على أنه له بيقين ، كما يؤخذ ما فى كتابه « نقد الشعر » نعم ، إنه ألم بها فيه عند الكلام على المعاظلة ، فعد منها فاحش الاستعارة مثل قول أوس :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمى الصبى تولبا وهو ولد الحمار ، وجعل أبو هلال فى كتابه « الصناعتين » التشبيه بابا قائماً بذاته ، ووقع منه فى الكلام عليه ما يقتضى أنه مرادف عنده للتمثيل ، وقد سمى ما جعله قدامة تمثيلا مماثلة ، وجعلها نوعا من البديع ، وأبعد فى الفرق بينه وبين التشبيه ، وقد عرف التشبيه بأنه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ناب منابه أو لم ينب ثم قال : ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة وإن شابهه من وجه واحد ، مثل قولك : « وجهك مثل الشمس ومثل البدر » وإن لم يكن مثلهما فى ضيائهما وعلوهما ولا عظمهما ، وإنما شبهه بهما لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحسن ، ثم ذكر أن أجود التشبيه وأبلغه ما يقع على أربعة أوجه :

أحدها إخراج ما لا يحس إلى ما يحس ، وهو قول الله عز وجل « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء » فأخرج ما لا يحس إلى ما يحس ، والمعنى الذى يجمعهما بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قال « يحسبه الرائى ماء » ، لم يقع موقع قوله ، لأن الظمآن أشد فاقة إليه ، وأعظم حرصا عليه ، الخ .

والوجه الآخر إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، كقوله

. . . .

تعالى « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » ، والمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الانتفاع بالصورة ، ومن هذا قوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى قوله (كأن لم تغن بالأمس) الخ .

والوجه الثالث : إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها ، فمن هذا قوله عز وجل (وجنة عرضها السماوات والأرض) وقد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها ، والجامع بين الأمرين العظم ، والفائدة فيه التشويق إلى الجنة بحسن الصفة ، ومثله قوله سبحانه (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) والجامع بين الأمرين الجهل بالمحمول ، والفائدة فيه الترغيب فى حفظ العلوم وترك الاتكال على الرواية دون الدراية ، الخ .

الوجه الرابع : إخراج ما لا قوة له فى الصفة إلى ما له قوة فيها ، كقوله عز وجل (وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام) ، والجامع بين الأمرين العظم ، والفائدة البيان عن القدرة فى تسخير الأجسام العظام فى أعظم ما يكون من الماء ، وعلى هذا الوجه يجرى أكثر تشبيهات القرآن ، وهى الغاية فى الجودة والنهاية فى الحسن ، وقد جاء فى أشعار المحدثين تشبيه ما يرى بالعيان بما ينال بالفكر ، وهو ردىء وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقة ، وهو مثل قول الشاعر :

وندمان سقيت الراح صرفا ... وأفق الليل مرتفع السجوف

صفت وصفت زجاجتها عليها ... كمعنى دق فى ذهن لطيف

ثم قال : وأما الطريقة المسلوكة فى التشبيه والنهج القاصد فى التمثيل عند القدماء والمحدثين فتشبيه الجواد بالبحر والمطر ، والشجاع بالأسد ، والوجه الحسن بالشمس والقمر ، الخ ، وهذا يقتضى أن يكون التمثيل عنده مرادفا للتشبيه ولكنه فى الكلام على المماثلة يسميها تمثيلا أيضاً .

وقد جعل المماثلة النوع التاسع من البديع ، وعرفها فقال : المماثلة أن يريد

. . . .

المتكلم العبارة فيأتى بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر إلا أنه ينبىء إذا أورده عن المعنى الذى أراده . كقولهم ـ فلان نقى الثوب ـ يريدون أنه لا عيب فيه ، وليس موضوع نقاء الثوب البراءة من العيوب ، وإنما استعمل فيه تمثيلا ثم مضى فى أشباه ذلك إلى أن قال : ومن المنظوم قول طرفة :

أبينى : أفى يمنى يديك جعلتنى فأفرح أم صيرتنى فى شمالك

أى أبينى منزلتى عندك أوضيعة هى أم رفيعة ؟ فذكر اليمين وجعلها بدلا من الرفعة ، والشمال وجعلها عوضا من الضعة ، وأخذه الرماح بن ميادة فقال :

ألم تك فى يمنى يديك جعلتنى فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا

إلى أن قال : وجعل قدامة من أمثلة هذا الباب قول الشاعر :

أوردتهم وصدور العيس مسنفة والصبح بالكواكب الدر منحور

وقال : قد أشار إلى الفجر إشارة طريفة بغير لفظه . وليس فى هذا البيت إشارة إلى الفجر ، بل قد صرح بذكر الصبح وقال : هو منحور بالكوكب الدرى ، أى صار فى نحره ، ووضع هذا البيت فى باب الاستعارة أولى منه فى باب المماثلة .

وهذا يدل على مغايرة المماثلة للاستعارة عنده وقد عرفها بأنها نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو بحسن المعرض الذى يبرز فيه ، وهذا يشمل المجاز المرسل والاستعارة بأنواعها ، وتعريفه للاستعارة قريب من تعريفه للمماثلة ، وإذا رجعنا إلى تعريف قدامة للتمثيل نجد فيه أن اللفظ فى التمثيل لا ينتقل عن معناه اللغوى ، بل يراد منه هذا المعنى لينبىء عن المعنى المراد ، وهذا شأن الاستعارة فى المركب ، لأن المفردات فيها تبقى على معانيها

. . . .

اللغوية وتكون الاستعارة فى التركيب وحده ، ويمكن أن يحمل تعريف المماثلة عند أبى هلال على هذا المعنى ، وتكون المماثلة عنده أيضاً هى ما عرف بعده بالاستعارة التمثيلية .

والاستعارة كما يقول ابن سنان الخفاجى فى « سر الفصاحة » :

قد حدها أبو الحسن بن عيسى الرمانى فقال : هى تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة ، وتفسير هذه الجملة أن قوله عز وجل (واشتعل الرأس شيباً) استعارة ، لأن الاشتعال للنار ولم يوضع فى أصل اللغة للشيب ، فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه ، لأن الشيب لما كان يأخذ فى الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التى تشتعل فى الخشب وتسرى حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة ، فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة فى الوضع للبيان ؟ » إلى أن قال : فان قال قائل : فما الفرق بين الاستعارة والتشبيه ؟ قيل : الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن ، وهو أن التشبيه على أصله لم يغير عنه فى الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة مخرج ليست العبارة له فى أصل اللغة .

وتكلم على التمثيل فقال : ومن نعوت الفصاحة والبلاغة أن يراد معنى فيوضح بألفاظ تدل على معنى آخر ، وذلك المعنى مثال للمعنى المقصود ، وسبب حسن هذا مع ما يكون فيه من الإيجاز أن تمثيل المعنى يوضحه ويخرجه إلى الحس والمشاهدة ، وهذه فائدة التمثيل فى جميع العلوم ، لأن المثال لا بد أن يكون أظهر من المثل فالغرض بإيراده إيضاح المعنى وبيانه . ومن هذا الفن قول الرماح بن ميادة :

. . . .

ألم تك في يمنى يديك جعلتني فلا تجعلني بعدها في شمالكا

فأراد أني كنت مقدماً عندك فلا تؤخرني ، ومقرباً فلا تبعدني ، فعدل في العبارة عن ذلك إلى : أني كنت في يمينك فلا تجعلني في شمالك ، لأن هذا المثال أظهر إلى الحس .

وتكلم الخفاجي « ابن سنان صاحب سر الفصاحة » على التشبيه فقال : ومن الصحة - يعني صحة المعنى - صحة التشبيه ، وهو أن يقال أحد الشيئين مثل الآخر في بعض المعاني والصفات ، ولا يجوز أن يكون أحد الشيئين مثل الآخر من جميع الوجوه ، لأن هذا لو جاز لكان أحد الشيئين هو الآخر بعينه ، وذلك محال ، وإنما الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيئين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه ، وبالضد ، حتى يكون ردىء التشبيه ما قل شبهه بالمشبه به ، والأصل في حسن التشبيه أن يمثل الغائب الخفي بالظاهر المحسوس ، فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد ، أو يمثل الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ منه ، فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة ، ثم ذكر من الأول قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) ، ومن الثاني قوله تعالى: (وله الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام) إلى أمثلة كثيرة من المنثور والمنظوم .

ورأى أن المشبه به في التشبيه يحتاج إلى أن يكون واقعاً مشاهداً معروفاً غير مستنكر .

وذهب ابن الأثير صاحب « المثل السائر » إلى عدم الفرق بين التمثيل والتشبيه، وقد قال في ذلك : وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل وجعلوا لهذا باباً مفرداً ولهذا باباً مفرداً ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما

. . . .

فى أصل الوضع ، يقال : شبهت هذا الشىء بهذا الشىء ، كما يقال مثلته به ، وما أعلم كيف خفى ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه (١٥٠ المثل السائر ـ المطبعة البهية) ، وهذا الرأى ينسب إلى أبى القاسم محمود بن عمر المعروف بالزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ ه .

ويرى السكاكى أن التمثيل هو التشبيه الذى يكون وجهه وصفا غير حقيقى منتزعا من عدة أمور ، أى ما كان وجهه مركبا غير حقيقى ، فوافق الرازى فى اشتراط التركيب فى وجهه ، وزاد عليه شرط كونه غير حقيقى ولكنه خفى عليه أن المعول عليه فى التمثيل عند عبد القاهر هو ما وجهه من التأويل ، فإذا قلت ـ كلامه كالعسل فى الحلاوة ـ كان تمثيلا ، وإذا قلت ـ كلامه كالعسل فى قبول النفس له ـ لم يكن تمثيلا . لأن وجه الشبه فيه مشترك بين الطرفين ، فلا يحتاج إلى تأويل مع كونه غير حقيقى .

فالتأويل هو روح التمثيل ، وقد غفل الرازى والسكاكى عنه ، وقد أراد السكاكى أن ينبه على ما أغفله من ذلك فى موضع بعيد عن التمثيل فقال : واعلم أنه ليس بملتزم فيما بين أصحاب علم البيان أن يتكلفوا التصريح بوجه التشبيه على ما هو به ، بل قد يذكرون على سبيل التسامح ما إذا أمعنت فيه النظر لم تجده إلا شيئاً مستتبعاً لما يكون وجه التشبيه فى المآل ، فلا بد من التنبيه عليه ، من ذلك قولهم فى الألفاظ إذا وجدوها لا تثقل على اللسان ، ولا تكده بتنافر حروفها وتكرارها : هى كالعسل فى الحلاوة ، فيذكرون الحلاوة وجه الشبه على أن وجه الشبه فى المآل هناك شىء غيرها ، وذلك لازم الحلاوة ، وهو ميل الطبع إليها ، ومحبة النفس وورودها عليها ، وتسامحهم هذا لا يقع إلا حيث يكون التشبيه فى وصف اعتبارى كالذى نحن فيه (المفتاح ص ١٨١ و ١٨٢) .

اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين :

أحدهما أن يكون(١) من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول(٢) .

والآخر : أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول .

فمثال الأول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة(٣) والشكل ، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار : بالكرة في وجه ، وبالحلقة في وجه آخر .

وكالتشبيه(٤) من جهة اللون(٥) كتشبيه الخد بالورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار . وتشبيه سقط النار(٦) بعين الديك(٧) ، وما جرى في هذا الطريق .

أو جمع الصورة واللون معا(٨) : كتشبيه الثريا بعنقود(٩) الكرم المنور(١٠)

---

(١) أي التشبيه .

(٢) وهذا هو التشبيه .

(٣) هي الأوجه الخاصة التي تميز الجسم عن غيره .

(٤) الكاف زائدة أو أنها بمعنى مثل معطوف على قوله « تشبيه الشيء بالشيء » .

(٥) التشبيه من جهة اللون تشبيه في الشكل وما قبله تشبيه في الصورة .

(٦) السقط مثلث السين وهو ما يسقط بين الزندين عند القدح .

(٧) أي في الحمرة .

(٨) أي جمع فيه بين الصورة والشكل .

(٩) وجه الشبه هنا هو الهيئة الحاصلة من تقارن الصور البيض المستديرة الصغار المقادير في مرأى العين على كيفية مخصوصة إلى مقدار مخصوص .

(١٠) في نسخة المنثور ، وهو تحريف ، ومثال ذلك =

والنرجس بمداهن در حشوهن عقيق(١) .

وكذلك التشبيه من جهة الهيئة (٢) نحو أنه مستو منتصف مديد، كتشبيه القامة بالرمح ، والقد اللطيف بالغصن ، ويدخل فى الهيئة حال الحركات فى أجسامها كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم الشديد ومن تأخذه الأريحية فيهتز(٣) بالغصن تحت البارح ، ونحو ذلك .

وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما(٤) يدخل تحت الحواس ، نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج ، كما قال(٥) :

٢٧ — كأن — أصوات من إيغالهن بنا
أواخـــر الميس إنقاض الفراريج(٦)

= وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى
كعنقود ملاحيـــة حين نورا

وهو لقيس بن الخطيم .

(١) كقول ابن المعتز :

كأن عيون النرجس الغض حولنا   مداهن در حشوهن عقيق

(٢) الصورة هى الأوضاع الخاصة ، والهيئة هى الأحوال العارضة .

(٣) المراد هنا الهزة المعنوية لا الحسية ، وإن كانت الهزة المعنوية لازمة للهزة الحسية ، والبارح : الريح الشديدة .

(٤) ما داخلة على وجه الشبه .

(٥) أى ذو الرمة الشاعر الإسلامى الأموى المشهور المتوفى عام ١١٧ هـ

(٦) الفراريج جمع فروج وفروجة وهى فرخ الدجاج خاصة. والإيغال فى السير : الإمعان والتمادى فيه ، والميس شجر تتخذ منه الرحال ، ويطلق على الرحال نفسها. الإنقاض: الصوت، وراجع البيت فى الكتاب لسيبويه =

تقدير البيت : كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا ، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله « من إيغالهن » .

وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازى كما قال(١) :

٧٨ - كأن على أنيابها كل سحرة
صياح البوازى من صريف اللوائك(٢)

وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له .

وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر ، وتشبيه اللين الناعم بالخز(٣) والخشن بالمسح(٤) ، أو رائحة(٥) بعض الرياحين برائحة الكافور ، أو رائحة بعضها ببعض ، كما لا يخفى .

وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع : كتشبيه الرجل بالأسد فى

= ٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٤٧ ج ١ والوساطة ص٣٥٤ ، والصناعتين ص ١٥٧ .

(١) أى ذو الرمة أيضاً وكان من أقدر الشعراء على التشبيه هو وامرؤ القيس فى القديم ، وابن المعتز فى الحديث وتوفى عام ١١٧ هـ .

(٢) السحرة : السحر الأعلى أى أول السحر . الصريف : صرير ناب البعير . اللوائك : جمع لائكة من لاك أى مضغ ، والمقصود تشبيه صريف اللوائك بالبوازى ، وهو من التشبيه المقلوب ، وكأن هنا للظن ، والتشبيه مستفاد هنا بطريق اللزوم

(٣) أى الحرير ، قال ذو الرمة :

لها بشر مثل الحرير ومنطق
رخيم الحواشى لا هراء ولا نزر

(٤) المسح بكسر الميم : كساء غليظ من شعر والجمع أمساح ومسوح .

(٥) أى تشبيه رائحة بعض الرياحين .

الشجاعة ، وبالذئب فى النكر[١] . . والأخلاق كلها تدخل فى الغريزة ، نحو السخاء والكرم واللؤم .

وكذلك تشبيه الرجل بالرجل فى الشدة والقوة وما يتصل بها .

فالشبه فى هذا كله بين ، لا يجرى فيه التأول ، ولا يفتقر إليه فى تحصيله . وأى تأول يجرى فى مشابهة الخد للورد فى الحمرة ؟ وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؟ وكذلك تعلم الشجاعة فى الأسد كما تعلمها فى الرجل .

ومثال الثانى : وهو الشبه الذى يحصل بضرب من التأول[٢] ، كقولك هذه حجة كالشمس ، قد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها ، كما شبهت فيما مضى الشىء بالشىء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما ، إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأول ، وذلك أن تقول : حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام ألا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشىء لك ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب أو إذا لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب[٣] .

ثم تقول : إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول ، لأنها تمنع القلب رؤية ما هى شبهة فيه ، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه . ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذى يرومه[٤] من إدراكه ، ويصرف فكره للوصول إليه ، من صحة حكم أو فساده . فإذا ارتفعت الشبهة ، وحصل العلم بمعنى الكلام الذى هو الحجة على صحة ما ادعى من الحكم ، قيل هذا

---

(١) أى الدهاء والمكر .

(٢) المراد بالتأول إرجاع وجه الشبه إلى معنى يكون متحققا فى الطرفين بوجه من التلطف والحيلة والذكاء .

(٣) فى العبارة لف ونشر مشوش (٤) أى القلب وهو العقل والفكر

ظاهر كالشمس ، أى ليس ههنا مانع عن العلم به ، ولا للتوقف والشك فيه مساغ ، وأن المنكر له إما مدخول فى عقله(١) أو جاحد مباهت(٢) ومسرف فى العناد ، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر ولا ينكرها إلا من لا عذر له فى إنكاره . فقد احتجت فى تحصيل الشبه الذى أثبته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأول كما ترى(٣) .

ثم إن ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً .

فمنه ما يقرب مأخذه ، ويسهل الوصول إليه ، ويعطى المقادة طوعا ، حتى إنه يكاد يداخل(٤) الضرب الأول الذى ليس من التأول فى شىء ، وهو ما ذكرته لك .

ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل .

ومنه ما يدق ويغمض ، حتى يحتاج فى استخراجه إلى فضل روية(٥) ولطف فكرة .

فما يشبه الذى بدأت به فى قرب المأخذ وسهولة المأتى : قولهم فى صفة الكلام : ألفاظه كالماء فى السلاسة ، وكالنسيم فى الرقة ، وكالعسل فى الحلاوة .

---

(١) من الدخل مثل الفرح ، وهو الفساد .

(٢) من البهت وهو أشد الكذب .

(٣) ما يحتاج إلى تأول هو التمثيل : وهو عند الجمهور ما كان الوجه فيه مركباً مطلقاً . وعند عبد القاهر ما كان وجهه عقليا غير غرزى . وعند السيد ، ما كان مركب الطرفين والوجه ، وعند السكاكى ما كان وجهه مركباً وهمياً لا حسيا ولا عقليا . وعند الزمخشرى لا فرق بين التمثيل والتشبيه فهما بمعنى واحد عنده .

(٤) أى يقارب .

(٥) أى زيادة تفكير .

يريدون أن اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه ، وليس هو بغريب وحشى يستكره لكونه غير مألوف ، أو ماليس فى حروفه تكرير وتنافر يكد(١) اللسان من أجلهما ، فصار لذلك : كالماء الذى يسوغ فى الحلق ، والنسيم الذى يسرى فى البدن ، ويتخلل المسالك اللطيفة منه ، ويهدى إلى القلب روحا(٢) ، ويوجد فى الصدر انشراحا ، ويفيد النفس نشاطاً ، وكالعسل الذى يلذ طعمه ، وتهش(٣) النفس له ، ويميل الطبع إليه ، ويحب وروده عليه .

فهذا كله تأول ، ورد شىء إلى شىء بضرب من التلطف ، وهو أدخل قليلا فى حقيقة التأول ، وأقوى حالا فى الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس .

وأما ماتقوى فيه الحاجة إلى التأول ، حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع فنحو قول كعب الأشقرى(٤) وقد أوفده المهلب على الحجاج ، فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس ، فسأله فى آخر القصة ؟ قال : فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ قال : كانوا حماة السرح نهاراً فإذا أليلوا(٥) ففرسان البيات ، قال فأيهم كان أنجد ؟ قال : «كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، فهذا - كما ترى - ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلى من له ذهن

---

(١) أى يتعب وينصب .

(٢) أى راحة ونشاطاً .

(٣) أى ترتاح .

(٤) راجع الكامل للمبرد طبعة التجارية ٢ : ٢٤٤ ، وزهر الآداب ٢ : ٢١٣ و ٢٤٤ .

(٥) أى صاروا فى الليل ودخلوا فيه .

ونظر يرتفع به عن طبقة العامة ؟ وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس ، فإنه كالمشترك البين الاشتراك حتى يستوى فى معرفته اللبيب اليقظ والمضعوف[١] المغفل .

وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت[٢] قد تجده فى كلام العامى[٣] : فأما ما كان مذهبه فى اللطف مذهب قوله « هم كالحلقة[٤] » فلا تراه إلا فى الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة[٥] :

---

(١) أى القليل الفطنة .

(٢) كالعسل .

(٣) تأثر عبد القاهر فى ذلك برأى مؤلف نقد النثر (٥٨ ، ٥٩ نقد النثر ، و ١٨ أيضاً) .

(٤) وجه الشبه فى هذا التشبيه هو التناسب الكلى الذى لا تفاوت فيه وهو فى المشبه تناسب فى الشرف وفى المشبه به تناسب فى الصورة .

(٥) هذا وفى « لسان العرب » مادة — شبه : الشبه والشبه والشبيه المثل ، والجمع أشباه وأشبه الشىء الشىء ماثله ، وأشبهت فلاناً وشابهته ، واشتبه علىّ وتشابه الشيئان ، واشتبها : أشبه كل واحد منهما صاحبه . وشبهه إياه وشبهه به مثله ، والمتشابهات المتماثلات ، وتشبه فلان بكذا والتشبيه التمثيل .

وفى لسان العرب مادة — مثل — : مثل كلمة تسوية ، يقال هذا مثله ومثله كما يقال شبهه وشبهه بمعنى ، وقال بعضهم : الفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين فى الجنس والمتفقين ، لأن التساوى هو التكافؤ فى المقدار لا يزيد ولا ينقص ، وأما المماثلة فلا تكون إلا فى المتفقين ، تقول : نحوه كنحوه وفقهه كفقهه ولونه كلونه وطعمه كطعمه ، فإذا قيل : « هو مثله على الإطلاق ، فمعناه أنه يسد مسده ، وإذا قيل : « هو مثله فى كذا ، فهو مساو له فى جهة =

. . . .

= دون جهله : والمثل الشبه ، يقال مثل ومثل وشبه وشبه بمعنى واحد ، والمثل والمثيل كالمثل ، والجمع أمثال ، وهما يتماثلان ، والمثل الشيء الذى يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله ، وفى الصحاح : ما يضرب من الأمثال ، ومثل الشيء صفته ، وقد يكون المثل بمعنى العبرة ، وبمعنى الآية ، والمثال المقدار ، وتماثل العليل قارب البرء فصار أشبه بالصحيح من العليل المنهوك ، وقيل : إنه من المثول والانتصاب كأنه هم بالنهوض والانتصاب ، ومثلث له كذا تمثيلا إذا صورت له مثاله بكتابة وغيرها ، ومثل الشيء بالشيء سواه وشبهه به وجعله مثله وعلى مثاله .

فكل من التشبيه والتمثيل فى اللغة يرادف الآخر ، وقد أخذ بهذا بعض علماء البيان كالزمخشرى ، فذهبوا إلى أنهما مترادفان فى الاصطلاح أيضاً ، وذهب قوم آخرون من علماء البيان إلى أنهما ليسا مترادفين على ما أسلفنا .

الفرق بين التشبيه والتمثيل

وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين ، فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا . فأنت تقول فى قول قيس بن الخطيم(١) :

٧٩ — وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى
كعنقود ملاحية حين نورا(٢)

إنه تشبيه حسن ولا تقول هو تمثيل(٣) .

وكذلك تقول : ابن المعتز(٤) حسن التشبيهات بديعها ، لأنك تعنى تشبيه المبصرات بعضها ببعض ، وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول كقوله :

٨٠ — كأن عيون النرجس الغض حولها
مداهن در حشوهن عقيق(٥)

---

(١) شاعر جاهلى عاش فى المدينة — هذا والتمثيل عند عبد القاهر ما كان وجه الشبه فيه عقليا غير غرزى ، والتشبيه أعم من ذلك .

(٢) الملاحى بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها : عنب أبيض طويل ، ونور الزرع : أدرك .

(٣) كما يقول الجمهور .

(٤) من أعلام الشعراء العباسيين (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) وتولى الخلافة يوماً وليلة ومات مقتولا فى بغداد وله كتاب « البديع » .

(٥) الطرفان هنا مفرد ومركب ووجه الشبه مركب والبيت لابن المعتز

وقوله :

٨١ — وأرى الثريا فى السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد(١)

وقوله :

٨٢ — وتروم الثريا فى الغروب مراما
كانكباب طمر كاد يلقى اللجاما(٢)

وقوله :

٨٣ — قد انقضت دولة الصيام(٣) وقد
بشر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لأكل عنقود(٤)

---

(١) الطرفان والوجه كلها مركبة والوجه فى البيت ظهور بياض فى سواد ، والبيت لابن المعتز .

(٢) فقد شبه ابن المعتز هنا هيئة الثريا فى غروبها وهى دقيقة من الطرف الأسفل عريضة من الأعلى بهيئة حصان منكب قد ألقى لجامه المفضض ، فاللجام كالثريا ، والطمر كالليل ، والوجه ظهور شىء أبيض مستطيل فى جوانب شىء مظلم .

(٣) استعارة مكنية فى دولة الصيام ، وكذلك سقم الهلال . وفى بشر استعارة تبعية شبهت فيها الدلالة بالبشارة .

(٤) كل من الطرفين والوجه مركب ، شبه الهيئة الحاصلة من اتجاه الهلال نحو الغرب والثريا أمامه بهيئة حيوان شره فاتح فاه لالتهام عنقود كرم ، والوجه هيئة حاصلة من وجود أجرام صغيرة متناسبة المقادير والأشكال أمام جرم كبير متقوس يريد الإحاطة بها : والبيتان لابن المعتز .

وقوله(١) :

٨٤ — لما تعرى أفق الضياء ... مثل ابتسام الشفة اللمياء
وشمطت ذوائب الظلماء ... قدنا(٢) لعين الوحش والظباء
داهيـة محذورة اللقاء ... ويعرف الزجر من الدعاء
بأذن ساقطة الأرجاء ... كوردة السوسنة الشهباء
ذا برثن كمثقب الحذاء ... ومقلة قليلة الأقذاء
صافية كقطرة من ماء(٣)

وما كان من هذا الجنس ، ولا تريد نحو قوله(٤) :

٨٥ — اصبر على مضض الحسو ... د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله

وذلك أن إحسانه فى النوع الأول(٥) أكثر ، وهو به أشهر ، وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلا فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضاً ، فلا يقال : ابن المعتز حسن الأمثال تريد به نحو الأبيات التى قدمتها ، وإنما يقال صالح(٦) بن عبد القدوس كثير الأمثال فى شعره ، يراد نحو قوله :

(١) أى ابن المعتز فى الطرد ووصف كلب وكلبة من الجوارح .

(٢) قبله كما يروى الديوان : وهم نجم الليل بالإغفاء — ويريد بنجم الليل الثريا .

(٣) اللمياء السمراء . والشمط محركة اختلاط الشعر الأسود والأبيض والعين بكسر العين جمع أعين وهو ثور بقر الوحش ، وداهية : هى الكلبة. والسوسن : زهر منه برى ومنه بستانى ، الواحدة : سوسنة .

(٤) أى ابن المعتز أيضاً وذلك لأن هذا تمثيل لا تشبيه .

(٥) وهو التشبيه .

(٦) شاعر من مخضرمى الدولتين ، اتهم بالإلحاد والزندقة وقتل عام ١٦٧ هـ

٨٦ — وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضراً بعدالذىأبصرتمنيبسه(١)

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجرى فيه التأول ، ولكن إن قلت فى قول ابن المعتز :

٨٧ — فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

إنه تمثيل ، فمثل الذى قلت ينبغى أن يقال ، لأن تشبيه الحسود إذا صبر عليه وسكت عنه وترك غيظه يتردد فيه بالنار التى لا تمد بالحطب حتى يأكل بعضها بعضاً ، مما حاجته إلى التأويل ظاهرة بينة .

فقد تبين بهذه الجملة(٢) وجه الفرق بين التشبيه والتمثيل ، وفى تتبع ما أجملت من أمرهما ، وسلوك طريق التحقيق فيهما ، ضرب من القول ، ينشط له من يأنس بالحقائق .

---

(١) شبه المؤدب فى صباه بالعود يسقى الماء فى إبانه .

(٢) يقصد بذلك ما أسلفنا من القول ، أو يقصد بهذا الإجمال الكلام الموجز .

فصـــل (١)

اعلم أن الذى أوجب أن يكون فى التشبيه هذا الانقسام : أن الاشتراك فى الصفة يقع مرة فى نفسها وحقيقة جنسها (٢) ، ومرة فى حكم لها ومقتضى (٣) فالخد يشارك الورد فى الحمرة نفسها ، وتجدها فى الموضعين بحقيقتها ، واللفظ

(١) يراد من هذا الفصل إثبات أن التشبيه تارة يكون فى نفس الصفة وتارة يكون فى مقتضاها وأن الذى فى نفس الصفة أصلى وحقيقى والذى فى مقتضاها فرع عنه ومترتب عليه .

(٢) الإضافة بيانية .

(٣) فالتشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر فى معنى بأداة ظاهرة أو مقدرة ، وقد قسمه عبد القاهر إلى قسمين : تشبيه غير تمثيلى ، وهو ما كان وجه الشبه فيه ظاهر الاشتراك بين الطرفين ، بحيث لا يحتاج إلى تأول وصرف عن الظاهر ، وتشبيه تمثيلى وهو ما لا يكون وجه الشبه فيه ظاهر الاشتراك بين الطرفين ، يحتاج إلى تأول وصرف عن الظاهر .

والتشبيه غير التمثيلى يكون فى حالين :

أولهما أن يكون وجه الشبه حسياً ، كتشبيه الخد بالورد فى الحمرة ، وتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور .

فإن وجه الشبه مركب من اللون والشكل الحاصل من اجتماع أجرام صغيرة بيضاء المستديرة غير متلاصقة على شكل مثلث ذى قدر مخصوص .

وكذلك قول ابن المعتز :

كأن عيون النرجس الغض حولنا مـــداهن در حشوهن عقيق

فالمداهن جمع مدهن : وهو قارورة الدهن ، وإضافة عيون إلى النرجس من إضافة المشبه به إلى المشبه إن أريد من النرجس الزهر ، فإن أريد به النبات كانت العيون استعارة للزهر .

. . . .

ووجه الشبه فيه مركب من اللون والشكل الحاصل من اجتماع أجرام صغيرة بيضاء مستديرة متلاصقة على شكل دائرة تحيط بدائرة أخرى حمراء والمشبه به هنا خيالى لا وجود له فى الخارج .. إلى غير هذا من الشواهد التى أطال فيها عبد القاهر ..

والثانى أن يكون وجه الشبه عقلياً حقيقيا، أى ثابتاً متقرراً فى ذات الموصوف، وهو الكيفيات النفسية من الأخلاق والغرائز ونحوهما، كتشبيه الرجل بالأسد فى الشجاعة، وبالذئب فى لؤم الخلق، وما إلى هذا من الأخلاق والغرائز، ومنه قول الشاعر :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

وإنما لم يحتج التشبيه غير التمثيلى إلى التأول لأن الاشتراك وقع فى صفة المشبه به نفسها وحقيقة جنسها، فهى موجودة فى المشبه وجودها فى المشبه به .

أما التشبيه التمثيلى فيكون فى وجه الشبه العقلى غير الحقيقى أى غير المتقرر فى ذات الموصوف، كقولهم « حجة كالشمس فى الظهور »، فالمشبه مفرد عقلى لأن المراد به معنى الكلام المستدل به لا نفس الكلام المسموع، والمشبه به مفرد حسى، ووصفه وهو الظهور من خواص المحسوسات لأن معناه ألا يوجد مانع للبصر من الرؤية، وهذا لا يشترك فيه المشبه لأنه عقلى، فلا بد فيه من التأول بإرادة لازم الظهور، وهو عدم المانع من الأدراك مطلقاً، وهذا هو وجه الشبه فى الحقيقة، وهو عقلى غير حقيقى، أما الأول المؤول فهو وجه الشبه فى الظاهر .

وهذا التأول يقع على ثلاث مراتب :

فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه، حتى ليكاد يداخل القسم الأول الذى ليس فى شىء من التأول، كالمثال السابق .

. . . .

ومنه ما يحتاج إلى قدر من التأمل . كقولهم « ألفاظه كالعسل فى الحلاوة ، وكالنسيم فى الرقة ، وكالماء فى السلاسة » فالمشبه مفرد والمشبه به متعددة، وأوصافه لا يشترك فيها المشبه ، فلابد فيها من التأول بإرادة لازمها من قبول النفس للشيء وحسن وقعه فيها ، لأنه هو الذى يشترك بين الطرفين، وهو وجه عقلى غير حقيقى .

ومنه مايدق ويغمض حتى يحتاج إلى فضل روية ، كما قيل : أن فاطمة بنت الخرشب سئلت أى بنيها أفضل ؟ فقالت : هم كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها فوجه الشبه به هو الاستدارة مع استواء الأجزاء ، وهو غير موجود فى المشبه ، فيجب التأول فيه بإرادة لازمه وهو التناسب التام وعدم إمكان المفاضلة ، لأنه هو الذى يشترك بين الطرفين وهو وجه عقلى غير حقيقى .

ولم يبين عبد القاهر وجه تفاوت تلك الأمثلة فى الحاجة إلى التأول ، ولعله لأن المثال الأول لا يحتاج فى التأول إلى أكثر من حمل المقيد على المطلق فلم يخرج الوجه الظاهر فيه عن جنسه ، والمثال الثانى وجه اللزوم فيه لا لبس فيه وإن لم يكن قريباً كالأول ، والمثال الثالث الشبه فيه لبس لأن الوجه الظاهر يمكن إرادته إذا أريد تناسبهم فى الشكل ، ولكن المراد تناسبهم فى الشرف ، وهو يحتاج إلى دقة وفضل وتأمل .

وقد ذكر عبد القاهر أن التشبيه يكثر فى شعر ابن المعتز ، ويقل فيه التمثيل ، ولهذا يقولون : إن ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها، ولا يقولون إنه حسن الأمثال ، ومن تشبيهاته قوله :

قم يا صديقى نصطبح بسواد قد كاد يبدو الصبح أو هو بادى

. . . .

وأرى الثريا فى السماء كأنها قد تبدت من ثياب حداد

فالمشبه الثريا تلوح فى سواد الليل والمشبه به قدم بيضاء ظهرت من ثياب سوداء ، ووجه الشبه ظهور صورة شىء أبيض يقرب أن يكون مثلثاً من شىء أسود منبسط ، ومنها قول ابن المعتز أيضاً :

قد انقضت دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيد

يتلو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لأكل عنقود

ثم ذكر أن صالح بن عبد القدوس بعكس ابن المعتز ، فهو كثير الأمثال فى شعره (ص ٢٧ وما بعدها أسرار — التمثيل) .

وخلاصة آراء عبد القاهر فى التشبيه هى :

تكلم عبد القاهر على التشبيه وأنه إما ظاهر أو خفى ، ومثل لهذين النوعين وذكر درجات خفاء وجه الشبه . . والتشبيه الحقيق عنده ما كان الوجه فيه ظاهراً .

وفرق بين التشبيه والتمثيل فجعل وجه الشبه فى التمثيل محتاجا إلى التأول بأن يكون عقلياً ، وجعل الوجه فى التشبيه أعم من ذلك بأنه يحتاج إلى تأول مع أنه غير عقلى ، أو بأن كان ظاهراً يحتاج إلى شىء من التأول .

وقسم الشبه العقلى إلى ما انتزع من شىء واحد وما انتزع من أشياء متعددة ممتزجة ، ومثل لهذين الضربين ، وفرق بينهما كما فرق بين التشبيه المركب والمتعدد، وعاد للفرق بينهما بعد ذلك بقليل وأطنب فيه ، ثم ذكر أن للشبه وجهين: أن يكون لأمر يرجع إلى نفسه ، وأن يكون لأمر لا يرجع إلى نفسه ، وبين ذلك وذكر مزيداً من التقرير للوجه الثانى ، ومثل له وبين أنواعه، وذكر شرطه من أنه لا بد فيه من جملة صريحة أو ما فى حكمها، وقد =

يشارك العسل فى الحلاوة لامن حيث جنسها بل من جهة حكم وأمر تقتضيه وهو ما يجده الذائق فى نفسه من اللذة ، والحالة التى تحصل فى النفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل إلى الطبع ويقع منه بالمرافقة ، فلما(١) كان كذلك احتيج لامحالة - إذا شبه اللفظ بالعسل فى الحلاوة - أن يبين أن هذا التشبيه ليس من جهة الحلاوة نفسها وجنسها ، ولكن من مقتضى لها ، وصفة

= يحتاج إلى أكثر من جملة فلا يلاحظ فيها ترتيب أو أجزاء ، بل تلاحظ الجمل متحدة ممتزجة تؤدى غرضاً واحداً بعكس التشبيهات المتعددة التى يلاحظ كل منها على الانفراد الخ .

ثم تكلم عن أسباب بلاغة التمثيل ومثل لذلك .

وفى الفصل الذى يليه ذكر سبباً آخر لبلاغة التمثيل ، وهو أنه يحوجك إلى طلبه بالفكرة وفرق بين التمثيل والتعقيد فى الإحواج إلى الفكرة ، وتكلم على بعد الفكرة فى التمثيل وروعتها ، وأن تقريب التمثيل للشبه بين المختلفات هو سر بلاغته ، بل كثيراً مايرتفع الأمر فى ذلك ، حتى يجعل الشىء من الأفعال سبباً لضده .

ثم قسم التشبيه إلى غريب وغير غريب ، وبين سبب الغرابة . وأطنب فى معنى التفصيل الذى هو أحد أسباب الغرابة .

وتكلم على التفصيل الجارى فى هيئة الحركات والسكون ، وأعاد التفصيل لوجوه الخلاف بين التشبيه المتعدد والمركب ، وأطنب فى الموازنة بين التمثيل والتشبيه .

ووضح الفروق بين الاستعارة والتمثيل ، ثم أخذ ينبه إلى ضرورة معرفة أساليب البيان العربى واستقصاء دقائقها .

(١) أى لما كان وجه التشبيه ليس ما عبروا عنه من الحلاوة الخ بل هو شىء لازم لذلك .

تتجدد فى النفس بسببها ، وأن القصد أن يخبر بأن السامع يجد عند وقوع هذا اللفظ فى سمعه حالة فى نفسه شبيهة بالحالة التى يجدها الذائق للحلاوة من العسل حتى لو تمثلت الحالتان للعيون لكانتا تريان على صورة واحدة، ولوجدتا من التناسب على حد الحمرة من الخد والحمرة من الورد .

وليس ههنا عبارة أخص بهذا البيان من التأول ؟ لأن حقيقة قولنا « تأولت الشيء » أنك تطلب ما يؤول إليه من الحقيقة(١) أو الموضع الذى يؤول إليه من العقل(٢) لأن أولت وتأولت « فعلت وتفعلت من آل الأمر إلى كذا يؤول إذا انتهى إليه ، والمآل : المرجع ، وليس قول من جعل أولت وتأولت « من أول » بشيء لأن ما فاؤه وعينه من موضع واحد(٣) ككوكب وددن(٤) لا يصرف(٥) منه فعل ، و « أول » أفعل بدلالة قولنا « أول منه » كقولنا «أسبق منه وأقدم » فالواو الأولى والثانية عين وليس هذا موضع الكلام فى ذلك فيستقصى .

وأما الضرب الأول فإذا كان المثبت من الشبه(٦) فى الفرع من جنس المثبت فى الأصل كان أصلا بنفسه « وكان ظاهر أمره وباطنه واحداً.وكان حاصل جمعك بين الورد والخد أنك وجدت فى هذا وذاك حمرة ، والجنس لاتتغير حقيقته بأن يوجد فى شيئين ، وإنما يتصور فيه التفاوت بالكثرة

---

(١) وهذا فى الحقيقة والمجاز ومن هنا بيانية .

(٢) وهذا كما هنا ، يعنى أنك تطلب الحقيقة إذا كان المتأول مجازاً، والموضع حيث لا مجاز .

(٣) أى نوع واحد من الحروف .

(٤) هو اللعب واللهو .

(٥) أى لا يؤخذ ولا يشتق منه .

(٦) فى نسخة : المشبه .

والقلة والضعف والقوة ، نحو أن حمرة هذا الشيء أكثر وأشد من حمرة ذاك(١) .

وإذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول ، وأن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه . . ويزيد ذلك بيانا(٢) أن مدار التشبيه على أنه يقتضي ضرباً من الاشتراك في مقتضى(٣) الصفة ، كما أن الصفة نفسها مقدمة في الوهم(٤) على مقتضاها فالحلاوة أو لا ثم إنها تقتضي أن يكون الشيئان من الاتفاق والاشتراك في الوصف بحيث يجوز أن يتوهم أن أحدهما الآخر .

وهكذا تراه في العرف والعقول ، فإن العقلاء يؤكدون أبداً أمر المشابهة بأن يقولوا : لا يمكنك أن تفرق بينهما ولو رأيت هذا بعد أن رأيت ذاك لم تعلم أنك رأيت شيئاً غير الأول ، حتى(٥) تستدل بأمر خارج عن الصورة .

ومعلوم أن هذه القضية(٦) إنما توجد على الإطلاق والوجود الحقيقي في الضرب الأول . . وأما الضرب الثاني فإنما يجيء فيه على سبيل التقدير والتنزيل ، فأما ألا نجد فصلا(٧) بين ما يقتضيه العسل في نفس الذائق ،

---

(١) يؤخذ من ذلك كله أن التشبيه أصل في التمثيل .

(٢) هذا شروع في ذكر أدلة على أن الأول أصل والثاني فرع .

(٣) أي لازم . (٤) أي الذهن .

(٥) هي غاية للمنفي .

(٦) وهي الاتفاق والاشتراك في الوصف أي اتفاق الطرفين في وجه الشبه . (٧) أي فرقا .

وما يحصل باللفظ المرضى والكلام المقبول فى نفس السامع ، فما لا يمكن ادعاؤه إلا على نوع من المقاربة أو المجازفة ، فأما على التحقيق والقطع فلا.
فالمشابهات المتأولة التى ينتزعها للعقل من الشىء للشىء لا تكون فى حد المشابهات الأصلية الظاهرة ، بل الشبه العقلى كاد الشىء به يكون شبيها بالمشبه به(١) .

(٢) أى قارب أن يكون كذلك ولم يكن كذلك فعلا ، ويلاحظ أن هذا الفصل مقصود به بيان أن التشبيه أقوى فى وجه الشبه من التمثيل .

فصـــل

ثم إن هذا الشبه العقلي(١) :

ربما انتزع من شيء واحد كما مضى من انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل .

وربما انتزع من عدة أمور(٢) يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد(٣) ، لا سبيل الشيئين يجمع بينهما ، وتحفظ صورتهما(٤) ومثال ذلك قوله عزوجل: « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً(٥) » الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو(٦) أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ، ويكد جنبيه ، فهو(٧) كما ترى مقتضى أمور مجموعة،

---

(١) أي وجه الشبه العقلي في التمثيل ، وهذا تقدمة لتقسيم هذا الوجه إلى مفرد ومتعدد ومركب . و« ثم » عطف على قوله « فالمشبهات المتأولة » في آخر الفصل السابق .

(٢) أي اثنين فأكثر .

(٣) وهذا هو التشبيه المركب .

(٤) وهو التشبيه المتعدد .

(٥) جيء هنا بمثل ، وهو القصة العجيبة ، ليفيد أنه قصة تشبه بأخرى بحيث يحويان أمراً عجيباً ووصفاً مستغرباً .

(٦) أي أحوال الحمار وأتى به مفرداً مذكراً باعتبار الخبر .

(٧) أي الوجه .

ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض .

بيان ذلك أنه احتيج إلى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل ، وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهو الأسفار التى فيها أمارات تدل على العلوم ، وأن يثلث ذلك(١) بجهل الحمار مافيها حتى يحصل الشبه المقصود . ثم إنه(٢) لا يحصل من كل واحد من هذه الأمور على الانفراد ، ولا يتصور أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه(٣) من غير أن يقف الأول على الثانى ويدخل الثانى فى الأول ، لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار ، ثم لا يتعلق أيضا بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار ، ثم لا يتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره ، فما لم تجعله كالخيط الممدود ولم يمزج حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ فى مزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منها على الانفراد ، بل تبطل صورها المفردة التى كانت قبل المزاج وتحدث صورة خاصة غير اللواتى عهدت ، ويحصل مذاقها(٤) ، حتى لو فرضت حصولها لك فى تلك الأشياء من غير امتزاج فرضت مالا يكون — لم يتم(٥) المقصود ، ولم تحصل النتيجة المطلوبة ، وهى الذم بالشقاء فى شىء يتعلق به غرض جليل ، وفائدة شريفة ، مع حرمان ذلك الغرض ، وعدم الوصول إلى تلك الفائدة ، واستصحاب(٦) ما يتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة ، من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سبباً إلى نيل شىء من تلك المنافع والنعم .

---

(١) ثلثهم أى كملهم ثلاثة .
(٢) أى الشبه (وهو وجه التشبيه) . (٣) كما فى المتعدد .
(٤) أى أثر هذا التركيب كله ، وثمرة هذا الامتزاج التام .
(٥) جواب « فما لم تجعله كالخيط » .
(٦) عطف على الذم أو الشقاء .

ومثال ما يجيء فيه التشبيه معقوداً على أمرين إلا أنهما لا يتشابكان هذا التشابك قولهم : « هو يصفو ويكدر ويمر(١) ويحلو ، ويشج ويأسو، ويسرج ويلجم » لأنك وإن كنت أردت أن تجمع له الصفتين فليست إحداهما ممتزجة بالأخرى ، لأنك لو قلت : هو «يصفو» ولم تتعرض لذكر الكدر أو قلت «يحلو» ولم يسبق ذكر « يمر » وجدت المعنى فى تشبيهك له بالماء فى الصفاء وبالعسل فى الحلاوة بحاله وعلى حقيقته . وليس كذلك الامر فى الآية ، لأنك لو قلت كالحمار يحمل أسفاراً(٢) ولم تعتبر أن يكون جهل الحمار مقروناً بحمله ، وأن يكون(٣) متعدياً إلى ما تعدى إليه الحمار، لم يتحصل لك المغزى منه ، وكذلك لو قلت : هو كالحمار فى أنه يجهل الأسفار ولم تشترط أن يكون حمله الأسفار مقروناً بجهله لها لكان كذلك لو ذكرت الحمل والجهل مطلقين ولم يحمل لهما المفعول والمخصوص الذى هو الأسفار فقلت هو كالحمار فى أنه يحمل ويجهل، وقعت من التشبيه المقصود فى الآية بأبعد البعد . والنكتة أن التشبيه بالحمل للأسفار إنما كان بشرط أن يقترن به الجهل ولم يكن الوصف بالصفاء والتشبيه بالماء فيه(٤) بشرط أن يقترن به الكدر ، ولذلك لو قلت يصفو ولا يكدر لم تزدد فى صميم التشبيه وحقيقته شيئاً وإنما استدمت الصفة كقولك يصفو أبداً وعلى كل حال .

---

(١) هذا استعارة والاستعارة مبنية على التشبيه فهى فى حكمه .

(٢) لو حذف « أسفاراً » لكان أليق بالسياق .

(٣) أى الجهل .

(٤) أى فى الصفاء .

فصــــل(١)

اعلم أن الشبه اذا انتزع من الوصف(٢)، لم يخل من وجهين :

أحدهما : أن يكون لأمر يرجع إلى نفسه .

والآخر : أن يكون لأمر(٣) لا يرجع إلى نفسه .

فالأول : ما مضى فى نحو تشبيه الكلام بالعسل فى الحلاوة(٤)، وذلك أن وجه التشبيه(٥) هناك، أن كل واحد منهما يوجب فى النفس لذة وحالة محمودة ويصادف منها قبولا ، وهذا حكم واجب للحلاوة من حيث هى حلاوة او للعسل من حيث هو عسل .

وأما الثانى : وهو ماينتزع منه التشبيه(٦) لأمر لايرجع إلى نفسه(٧)، فمثاله أن يتعدى الفعل إلى شىء مخصوص يكون له(٨) من أجله(٩) حكم خاص

---

(١) هو فى بيان وجه انقسام التمثيل إلى مفرد ومركب .

(٢) وهو وجه الشبه الظاهرى .

(٣) أى منتزعا لأمر .

(٤) ذكر هذا على طريقة وجه الشبه لأنهم قد يذكرون مكانه ما يستتبعه ويقولون إن الأرجح أن يكون المذكور وجه الشبه ووجوده فى المشبه على طريق التخييل أو أنه مجاز عنه من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم .

(٥) أى وجه الشبه .

(٦) المراد : الشبه .

(٧) أى نفس الوصف الذى هو وجه الشبه الظاهرى وهو وصف فى المعنى ، وإن لم يكن وصفاً فى الاصطلاح .

(٨) أى الفعل .

(٩) أى من أجل هذا الشىء المخصوص .

نحو(١) كونه واقعاً فى موقعه وعلى الصواب ، أو واقعاً غير موقعه كقولهم « هو القابض على الماء والراقم فى الماء(٢) ، فالشبه ههنا منتزع مما بين القبض والماء ، وليس بمنتزع من القبض نفسه ، وذلك أن فائدة قبض اليد على الشىء أن يحصل فيها ، فإذا كان الشىء مما لا يتماسك ففعلك القبض فى اليد لغو ، وكذلك القصد فى الرقم أن يبقى أثر فى الشىء ، وإذا فعلته فيما لا يقبله كان فعلك كلا فعل ، وكذلك قولهم « يضرب فى حديد بارد(٣) وينفخ فى غير فحم(٤) » .

وإذا ثبت هذا فكل شبه كان هـــذا سبيله ، فإنك لا تجد بين المعنى المذكور(٥) وبين المشبه(٦) إذا أفردته ملابسة ألبتة ، ألا تراك تضرب الرقم فى الماء والقبض عليه لأمور(٧) لا شبهة بينهما وبينها ألبتة من حيث ها رقم وقبض .

وإذ قد عرفت هذا ، فالحمل فى الآية من هذا القبيل أيضاً ، لأنه تضمن الشبه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل(٨) بل لأمرين آخرين(٩) :

---

(١) بيان للفعل.

(٢) يرى عبد القاهر أنه تمثيل مركب ، والمتأخرون أنه تشبيه مقيد وهذا اصطلاح لهم لا يقول به عبد القاهر .

(٣) أى هو كمن يضرب .

(٤) قال أبو تمام (١ : ٣٤ العقد الفريد) .

لم يألكم مالك صفحا ومغفرة   لو كان ينفخ قين الحى فى فحم

(٥) وهو الشبه الذى يشبه من أجله .

(٦) أى الذى يشبه بشىء من أجل إشراكه فى وجه الشبه .

(٧) كالخائب فى سعيه ونحو ذلك .

(٨) أى وحده .   (٩) أى معه .

أحدهما : تعديه إلى الأسفار ، والآخر : اقتران الجهل للأسفار به ، وإن كان الأمر كذلك كان قطعك الحمل عن هذين الأمرين فى البعد عن الغرض كقطعك القبض والرقم عن الماء فى استحالة أن يعقل منهما ما يعقل بعد تعديهما إلى الماء بوجه من الوجوه . فاعرفه .

فإن قلت(١) : ففى اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على حال(٢) ، وذلك أن الحافظ للشىء بقلبه(٣) يشبه الحامل للشىء على ظهره(٤) ، وعلى ذلك يقال : حملة الحديث وحملة العلم كما جاء فى الأثر : « يحمل هذا العلم من كل خاف عدوله(٥) » ، « ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »(٦) .

فالجواب : أن الأمر وإن كان كذلك فإن هذا الشبه لم يقصد ههنا ، وإنما قصد ما يوجبه تعدى الحمل إلى الأسفار مع اقتران الجهل بها به ، وهو العناء بلا منفعة .

يبين ذلك : أنك قد تقول للرجل يحمل فى كمه أبداً دفاتر علم وهو بليد لا يفهم أو كسلان لا يتعلم : إن كان يحمل كتب العلم فالحمار أيضاً قد يحمل تريد أن تبطل دعواه أن له فى حمله فائدة وأن تسوى بينه وبين الحمار فى فقد الفائدة مما يحمل ، فالحمل ههنا نفسه موجود فى المشبه بالحمار ، ثم التشبيه لا ينصرف إليه من حيث هو حمل ، وإنما ينصرف إلى ما ذكرت لك من

---

(١) يقصد من هذا الرد على من يقول : يصح أن يكون ما فى الآية من التشبيه المتعدد الوجه أو من التشبيه المفرد .

(٢) أى على اعتبار ، بتنزيل المعنوى منزلة الحسى .

(٣) وهذا حمل معنوى . (٤) وهذا حمل حسى .

(٥) رواه ابن منده ، وتتمته : ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، والخلف : كل من يجىء بعد ما سبقه .

(٦) حديث آخر رواه الترمذى .

عدم الجدوى والفائدة ، وإنما يتصور أن يكون الشبه راجعاً إلى الحمل من حيث هو حمل حيث يوصف الرجل مثلا بكثرة الحفظ للوظائف[١] أو جهد النفس فى الأشغال المتراكمة ، وذلك خارج عن الغرض مما نحن فيه .

ومن هذا الباب قولهم « أخذ القوس باريها[٢] » ، وذلك أن المعنى على وقوع الأخذ فى موقعه ووجوده من أهله ، فلست تشبه من حيث الأخذ نفسه وجنسه ، ولكن من حيث الحكم الحاصل له بوقوعه من بارى القوس على القوس .

وكذلك قولهم « ما زال يفتل منه[٣] فى الذروة والغارب[٤] » ، الشبه مأخوذ (مما) بين الفتل وما تعدى إليه من الذروة والغارب ولو أفردته[٥] لم تجد شبهاً بينه وبين ما يضرب هذا الكلام مثلا له ، لأنه[٦] يضرب[٧] فى الفعل أو القول يصرف به الإنسان عن الامتناع إلى الإجابة ، وعن الاباء عليك فى مرادك إلى موافقتك والمصير إلى ما تريد منه . وهذا لا يوجد فى الفتل من حيث هو فتل ، وإنما يوجد فى الفتل إذا وقع فى الشعر من ذروة البعير وغاربه .

واعلم أن هذا الشبه حكمه[٨] واحد ، سواء أخذته مما بين الفعل والمفعول

---

(١) جمع وظيفة وهو ما يرتبه الانسان ويلزم نفسه القيام به .

(٢) يضرب لمن يسند إليه أمر هو جدير به .

(٣) الضمير للبعير وهو استعارة تمثيلية .

(٤) أى حتى بلغ منه ما أراد .

(٥) أى الفتل .

(٦) أى هذا الكلام .

(٧) أى يضرب مثلا .

(٨) أى من حيث التركيب .

الصريح أو ما يجرى مجرى المفعول . فالمفعول كالقوس فى قولك « أخذ القوس باريها » ، وما يجرى مجرى المفعول الجار مع المجرور كقولك « كالرقم فى الماء . وهو كمن يخط فى الماء » ، وكذلك الحال كقولهم[١] : « كالحادى وليس له بعير[٢] » ، فقولك : وليس له بعير » . جملة من الحال[٣] قد احتاج الشبه إليها لأنه مأخوذ مما بين المعنى الذى هو الحدو وبين هذه الحال كما كان مأخوذاً (مما) بين الرقم والماء وما بين الفتل والذروة والغارب . وقد تجد بك حاجة إلى مفعول وإلى الجار مع المجرور كقولك : وهل يجمع السيفان فى الغمد؟ وأنت كمن يجمع السيفين فى غمد[٤] ، ألا ترى أن الجمع فيه لا يغنى بتعديه إلى السيفين حتى يشترط كونه جمعاً لهما فى الغمد؟ فمجموع ذلك كله يحصل الغرض.

وهكذا نحو قول العامة : « هو كناثر الجوز على القبة[٥] » وقولهم « كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد[٦] » لأن الصيد مفعول و« فى عريسة » جار مع المجرور .

---

(١) يضرب لمن يتعظم بما لا يملك شبه حاله بحال ذلك الحادى ، بجامع الهيئة الحاصلة من إنسان يعمل عملا غير مفيد له .

(٢) يقول عبد الرحمن الأهوزى فى معلم أزرى بشعره :

ويزعم أنه نقـــاد شعرى   هو الحـــادى وليس له بعير

(٣) وقد تكون صحة الكلام جملة حال من الحادى .

(٤) قال أبو ذؤيب الهذلى :

تريدين كيما تجمعينى وخالدا   وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد؟

يضرب مثلا لمن يحاول المستحيل .

(٥) فى الأصل : هو كثير الجور على إلفه ، وهو تحريف .

(٦) شطر بيت للطرماح وصدره : ياطىء السهل والأجبال موعدكم ، وهو مثل يضرب لمن يطلب الشىء فى مكان يعسر عليه أخذه منه ، والأجبال جمع جبل والمراد بها أجأ وسلمى .

فإذا ثبت هذا ظهر منه أنه لا بد لك فى هذا الضرب من الشبه من جملة صريحة أو حكم الجملة : فالجملة الصريحة قولك : أخذ القوس باريها . وحكم الجملة أن تقول : هذا منك كالرقم فى المـــاء ، والقبض على المـاء ، فتأتى بالمصدر ، أو تقول : كالراقم فى الماء وكالقابض على الماء فتأتى باسم الفاعل. وذاك أن المصدر واسم الفاعل ليسا بجملتين صريحاً ، ولكن حكم الجملة قائم فيهما وهو أنك أعملتهما عمـــل الفعل ، ألا ترى أنك عديتهما على حسب ما تعدى الفعل ؟ . وخصائص هذا النوع من التمثيل أكثر من أن تضبط وقد وقفتك على الطريقة .

فهذا أحد الوجوه التى يكون الشبه العقلى بها حاصلا لك من جملة من الكلام وأظنه من أقوى الأسباب والعلل فيه .

وعلى الجملة : فينبغى أن تعلم أن المثل الحقيق والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلا ـ لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ـ ماتجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر . ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل : إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس(١) ، : كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى فى هذه الآية عشر جمل إذا فصلت : وهى وإن كان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها

---

(١) يونس آية ١٤ ـ شبه الله عز وجل حال الدنيا فى سحرها وفتنتها وإغرائها بحالة النبات يرويه الماء فيورق ويصير ناضراً ثم يصبح هشيما ، والوجه هيئة منتزعة من حصول شيء يترتب عليه منافع كثيرة ويحصل السرور به ، ثم يزول بسرعة ، وهو مركب خيالى .

جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة ، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإبراد شطر من شطر ، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان ، أخل ذلك بالمغزى من التشبيه .

ولا ينبغى أن تعد الجمل فى هذا النحو بعدد التشبيهات التى يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التى كل واحد منها منفرد بنفسه ، بل بعدد جمل تنسق ثانية منها على أولة ، وثالثة على ثانية ، وهكذا فإن ما كان من هذا الجنس[1] لم تترتب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما . ألا ترى أنك إذا قلت زيد كالأسد بأساً والبحر جوداً والسيف مضاء والبدر بهاء ، لم يجب عليك أن تحفظ فى هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً ، بل لو بدأت بالبدر تشبيه به فى الحسن وأخرت تشبيهه بالأسد فى الشجاعة كان المعنى بحاله[2] ؟ ، وقوله[3] :

٨٨ — النشر مسك والوجوه دنا ... نير وأطراف الأكف عنم[4]

إنما يجب حفظ هذا الترتيب فيها لأجل الشعر فأما أن تكون هذه الجمل متداخلة كتداخل الجمل فى الآية وواجباً فيها أن يكون لها نسق مخصوص كالنسق فى الأشياء إذا رتبت ترتيباً مخصوصاً كان لمجموعها صورة خاصة فلا .

---

(١) أى المتعدد . (٢) أى دون تغيير .

(٣) أى المرقش الأكبر (١١١ المفضليات - ٦ : ١١٩ الحيوان - ١٣ الشعر والشعراء لابن قتيبة) .

(٤) النشر : الرائحة الطيبة . العنم مثل قلم ثمر أحمر يشبه البنان المخضوب به والمعنى على وصفها بالجمال ووصف مظاهر جمال محبوبته وحسنها .

وقد يجىء الشىء من هذا القبيل يتوهم فيه أن إحدى الجملتين أو الجمل تنفرد وتستعمل بنفسها تشبيهاً وتمثيلا، ثم لا يكون كذلك عندحسن التأمل مثال ذلك قوله(١) :

٨٩ — كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

هذا مثل فى أن يظهر للمضطر إلى الشىء الشديد الحاجة إليه أمارة وجوده ثم يفوته ويبقى لذلك بحسرة وزيادة ترح .

وقد يمكن أن يقال : إن قولك « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » تشبيه مستقل بنفسه لا حاجة به إلى ما بعده من تمام البيت فى إفادة المقصود الذى هو ظهور أمر مطمع لمن هو شديد الحاجة ، إلا أنه وإن كان كذلك فإن حقنا أن ننظر فى مغزى المتكلم فى تشبيهه ونحن نعلم أن المغزى أن يصل ابتداء مطمعاً بانتهاء مؤيس وذلك يقتضى وقوف الجملة الأولى على ما بعدها من تمام البيت ووزان هذا أن الشرط والجزاء جملتان ، ولكنا نقول : إن حكمهما حكم جملة واحدة من حيث دخل فى الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد فى امتناع أن تحصل به الفائدة فلو قلت « إن تأتنى » ، وسكت لم يفد ، كما لا يفيد ، إذا قلت « زيد » وسكت ، فلم تذكر اسماً آخر ولا فعلا ، ولا كان منويا فى النفس معلوماً من دليل الحال .

ثم إن الأمر وإن كان كذلك فقد يجوز أن يخرج الكلام عن الجزاء فتقول : « يأتينى » ، فتعود الجملة على الإفادة لإغنائك لها عن أن ترتبط بأخرى وإزالتك المعنى الذى أوجب فقرها إلى صاحبة لها ، إلا أن الغرض

---

(١) أى كثير (٧١ و ٢/١٦٦ زهر الآداب) . تجلت : انكشفت . أقشعت : تبددت أو ذهبت .

الأول يبطل ، والمعنى يتبدل ، فكذلك الاقتصار على الجملة التى هى « أبرقت قوما عطاشا غمامة » يخرج عن غرض الشاعر .

فإن قلت : فهذا يلزمك فى قولك « هو يصفو ويكدر » ، وذلك أن الاقتصار على أحد الأمرين يبطل غرض القائل ، وقصده أن يصف الرجل بأنه يجمع الصفتين وأن الصفاء لا يدوم .

فالجواب : أن بين الموضعين فرقا وإن كان يغمض قليلا ، وهو أن الغرض فى البيت أن يثبت ابتداء مطمعاً مؤنسا أدى إلى انتهاء مؤيس ، موحش ، وكون الشىء ابتداء لآخر هو له انتهاء معنى زائد على الجمع بين الأمرين ، والوصف بأن كل واحد منهما يوجد فى المقصود ، وليس لك فى قولك : يصفو ويكدر ، أكثر من الجمع بين الوصفين .

ونظير هذا أن تقول : هو كالصفو بعد الكدر فى حصول معنى يجب معه ربط أحد الوصفين الآخر فى الذكر ويتعين به الغرض ، حتى لو قلت يكدر ثم يصفو فجئت بثم التى توجب الثانى[1] مرتبا على الأول وأن أحدهما مبتدأ والآخر بعده ، صرت بالجملة إلى حد ما نحن عليه من الارتباط ، ووجوب أن يتعلق الحكم بمجموعها ويوجد الشبه إن شبهت مما بينهما على التشابك والتداخل ، دون التباين والتزايل .

ومن الواضح فى كون الشبه معلقا بمجموع الجملتين حتى لا يقع فى الوهم تميز إحداهما على الأخرى قوله[2] « بلغنى أنك تقدم رجلا وتؤخر

---

(١) أى كون الثانى مرتبا .

(٢) هو يزيد الوليد ، وكان قد كتب إلى مروان بن محمد يطالبه بالبيعة، فجاءه كتاب غير صريح فيما يريد .

أخرى فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام » ، وذلك أن المقصود من هذا الكلام التردد بين الأمرين وترجيح الرأى فيهما ، ولا يتصور التردد والترجيح فى الشىء الواحد ، فلو جهدت وهمك أن تتصور لقولك « تقدم رجلا » معنى وفائدة ما لم تقل « وتؤخر أخرى » أو تنوه فى قلبك ، كلفت نفسك شططاً (١) .

وذكر أبو أحمد العسكرى(٢) أن هذا النحو من الكلام يسمى المماثلة(٣) وهذه التسمية توهم أنه شىء غير المراد بالمثل والتمثيل ، وليس الأمر كذلك ، كيف وأنت تقول : « مثلك مثل من يقدم رجلا ويؤخر أخرى » ووزان هذا أنك تقول : زيد الأسد ، فيكون تشبيها على الحقيقة وإن كنت لم تصرح بحرف التشبيه ، ومثله أنك تقول : أنت ترقم على الماء ، وتضرب فى حديد بارد(٤) وتنفخ فى غير فحم ، فلا تذكر ما يدل صريحا على أنك تشبه ، ولكنك تعلم أن المعنى على قولك : أنت كمن يرقم فى الماء وكمن يضرب فى حديد بارد وكمن ينفخ فى غير فحم ، وما أشبه ذلك مما تجىء فيه بمشبه به ظاهر تقع هذه الأفعال فى صفة اسمه أو صلته .

---

(١) هذا المثال وما أشبهه تمثيل جىء به على حد الاستعارة كما يرى عبد القاهر .

(٢) هو الحسن بن عبد الله العسكرى أستاذ أبى هلال العسكرى ، توفى ٣٨٢ هـ .

(٣) وكذلك سماه أبو بكر الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » ص ٧٨ ط ١٣٤٨ هـ بتحقيق خفاجى .

(٤) يقول الشاعر (٢/٢٢ الكامل للمبرد ط التجارية) :

هيهات تضرب فى حديد بارد   إن كنت تطمع فى نوال سعيد

واعلم أن المثل قد يضرب بجمل لابد فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبهاً به ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة ، إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة .

بيان هذا أن قول النبي ﷺ « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة[(١)] » ، لابد فيه من المحافظة على ذكر المشبه به الذي هو الإبل . فلو قلت : « الناس لا تجد فيهم راحلة » أو « لا تجد في الناس راحلة » ، كان ظاهر التعسف . وههنا ما هو أشد اقتضاء للمحافظة على ذكر ما تعلق الجملة به وتسند إليه ، وذلك مثل قوله عز وجل : إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » الآية ، لو أردت أن تحذف الماء الذي هو المشبه به وتنقل الكلام إلى المشبه الذي هو الحياة أردت مالا تحصل منه على كلام يعقل ، لأن الأفعال المذكورة المحدث بها عن الماء لا يصح إجراؤها على الحياة ، فاحفظ هذا الأصل ، فإنك تحتاج إليه وخصوصاً في الاستعارة على ما يجيء القول فيه إن شاء الله تعالى .

والجملة إذا جاءت بعد المشبه به لم تخل من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يكون المشبه به معبراً عنه بلفظ موصول وتكون الجملة صلة كقولك : أنت الذي من شأنه كيت وكيت[(٢)] ، كقوله تعالى : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله » .

---

(١) ورد في مسلم عن ابن عمر : تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة .

(٢) أي أنت كالذي هذا شأنه ، كيت وكيت مبتدأ مؤخر مبني على فتح الجزءين ، وهو كناية عن حديث من الأحاديث ، ولابد من تكراره .

والثانى : أن يكون المشبه به نكرة تقع الجملة صفة له كقولنا : أنت كرجل من أمره كذا وكذا ، وقول النبى ﷺ « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » ، وأشباه ذلك .

والثالث : أن تجىء الجملة مبتدأة(١) ، وذلك إذا كان المشبه به معرفة ، ولم يكن هناك الذى كقوله تعالى : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً »(٢) .

---

(١) أى مستأنفة .

(٢) شبه حال الذين اتخذوا الأصنام أندادا وهى أضعف شىء بحال العنكبوت اتخذت من خيوطها بيتا يقيها الأعداء وهو واه ضعيف والوجه الهيئة الحاصلة من الاعتماد بما لا يحتمى به لضعفه .

فصـــل

فى مواقع التمثيل وتأثيره

واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه(١)، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة(٢)، وكسبها منقبة(٣)، ورفع من أقدارها، وشب(٤) من نارها، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار(٥)، لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا.

وإن كان(٦) مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبل فى النفوس وأعظم، وأهز للعطف. وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغر المواهب والمنائح(٧)، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

وإن كان ذما(٨) كان مسه أوجع، وميسمه(٩) ألذع، ووقعه أشد، وحده أحد.

---

(١) المعرض كمبرد : ثوب تجلى فيه العروس ليلة العرس.
(٢) الأبهة : العظمة.
(٣) أى مفخرة. (٤) أوقد.
(٥) أهاج. (٦) أى المعنى.
(٧) جمع منيحة وهى الناقة يجعل ان تمنح له وبرها ولبنها وولدها.
(٨) كقوله : كمثل الحمار يحمل أسفارا.
(٩) الميسم : آلة الكى.

وإن كان(١) حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر . وبيانه أبهر .

وإن كان افتخاراً كان شأوه(٢) أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد .

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم(٣) أسل ، ولغرب(٤) الغضب أفل ، وفى عقد العقود أنفث(٥) وعلى حسن الرجوع أبعث .

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغيابة ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ، ويشفى الغليل .

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه(٦) . وإن أردت أن تعرف ذلك وإن كان تقل الحاجة فيه إلى التعريف ، ويستغنى فى الوقوف عليه عن التوقيف(٧) فانظر إلى نحو قول البحترى(٨) .

٩٠ — دان على أيدى العفاة وشاسع ... عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوءه ... للعصبة السارين جد قريب

(١) كقول أبى العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

(٢) الشأو . السبق - ويقول ابن المقفع فى كتابه « الأدب الصغير » : - ص ٢٨ : إذا جعل الكلام مثلا كان ذلك أوضح للمنطق ، وأبين للمعنى ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث .

(٣) جمع سخيمة وهو الضغينة .

(٤) الغرب : الحد . (٥) النفث : النفخ مع ريق لحل العقدة .

(٦) أى ضروب الكلام . (٧) أى التعليم .

(٨) يمدح أبا الفضل إسماعيل بن إسحاق بن يعقوب بن نوبخت من قصيدة مطلعها :

=

وفكر فى حالك وحال المعنى معك وأنت فى البيت الأول لم تنته إلى الثانى ولم تتدبر نصرته إياه ، وتمثيله له فيما يملى على الإنسان عيناه ، ويؤدى إليه ناظراه ، ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه ، وتأملت طرفيه ، فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك ، وشدة تفاوتهما فى تمكن المعنى لديك ، وتحببه إليك ، ونبله فى نفسك ، وتوفيره لأنسك ، وتحكم لى بالصدق فيما قلت : والحق فيما ادعيت » .

وكذلك(١) فتعهد الفرق بين أن تقول : فلان يكد نفسه فى قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئاً : وتسكت . وبين أن تتلو الآية(٢) وتنشد نحو قول الشاعر(٣) :

٩١ — زوامل للأشعار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا ... بأوسافه أو راح ما فى الغرائر

= كم بالكثيب من اعتراض كثيب ... وقوام غصن فى الثياب رطيب
دمن لزينب قبل تشريد النوى ... من ذى الأراك نزينب ولعوب

والضريب : المثل والنظير ، وجد قريب أى بالغ غاية القرب . وعطف « الضريب » على « الند » عطف تفسير — وراجع ما قاله الشعراء فى هذا المعنى فى « الوساطة — طبعة العرفان ص ٢٠٤ و ٢٠٥ .

(١) أى وانظر كذلك فتعهد ، أو الفاء لتزيين اللفظ .

(٢) وهى : كمثل الحمار يحمل أسفارا .

(٣) هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصة يهجو قوما من رواة الشعر بأنهم لا يدرون شيئاً من نقده والزوامل : جمع زاملة وهى ما يحمل عليها من الإبل وغيرها ، والأباعر والأباعير : جمع أبعرة التى هى جمع بعير والوسق بالفتح والكسر : حمل البعير وجمعه أوساق ، والغرائر جمع غرارة وهى الجوالق ، معرب .

والفصل(١) بين أن تقول : « أرى قوماً لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر ، بل فى الأخلاق دقة ، وفى الكرم ضعف وقلة » ، وتقطع الكلام ، وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم : أما البيت فحسن . وأما الساكن فردىء .

وقول ابن لنكك (٢) :

٩٢ — فى شجر السرو منهم مثل ‏ ‏ ‏ ‏ له رواء وماله ثمر

وقول ابن الرومى :

٩٣ — فغدا كالخلاف يورق للعين ‏ ‏ ‏ ‏ ويأبى الاثمار كل الاباء (٣)

وقول الآخر(٤) :

٩٤ — فإن طرة راقتك فانظر فربما ‏ ‏ ‏ ‏ أمر مذاق العود والعود أخضر (٥)

وانظر إلى المعنى فى الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر ويفتر ثغره ويبتسم . وكيف تشتار(٦) الأرى من مذاقته ، كما ترى الحسن فى شارته(٧)

وأنشد قول ابن لنكك :

٩٥ — إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجاً(٨) ‏ ‏ ‏ ‏ رأيت صورته من أقبح الصور

---

(١) معطوف على « الفرق » سابقاً .

(٢) هو أبو الحسن محمد بن لنكك البصرى كان معاصراً للمتنبى وكثير الهجاء له : (٣) الخلاف : نوع من شجر الصفصاف .

(٤) خالد بن صفوان من بلغاء عصر بنى أمية وخطبائهم . والطرة الجبهة والهيئة الحسنة : أمر صار مراً .

(٥) راجع البيت فى نقد الشعر لقدامة ص ١٢٦ ، وراجعه فى ١ : ١٢٨ البيان وفى ص ٤٨٣ دلائل الإعجاز — تحقيق الخفاجى .

(٦) اشتار العسل . اجتناه .

(٧) الشارة : اللباس والهيئة . والأرى : الشهد .

(٨) أى قبيحاً .

و تبين المعنى ، واعرف مقداره ، ثم أنشد البيت بعده :

٩٦ - يهبك(١) كالشمس فى حسن ألم ترنا نفر منها إذا مالت إلى الضرر

وانظر كيف يزيد شرفه عندك ، وهكذا فتأمل بيت أبى تمام :

٩٧ - وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعا عن البيت الذى يليه ، والتمثيل الذى يؤديه ، واستقص فى تعرف قيمته ، وعلى وضوح معناه ، وحسن مزيته ، ثم أتبعه إياه :

٩٨ - لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود(٢)

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته ، وأظهر المكنون من حسنه وزينته ، وعطرك بعرف عوده ، وأراك النضرة فى عوده(٣) ، وطلع عليك من مطلع سعوده ، واستكمل فضله فى النفس ونبله ، واستحق التقديم كله ، إلا بالبيت الأخير ، وما فيه من التمثيل والتصوير .

وكذلك فرق فى بيت المتنبى :

٩٩ - ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا(٤)

لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك : إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ويخيل إليه فى الصواب أنه خطأ ، هل كنت تجد هذه الروعة ؟ وهل كان يبلغ من وقم الجاهل(٥) ووقذه وقمعه وردعه ،

---

(١) وفى رواية : وهبه .

(٢) العرف : الرائحة الطيبة ، والمراد تمثيل هيئة الفضيلة مع الحسود بهيئة العود مع النار . (٣) العود : ما به القوام ، وقد تكون : فى همودة .

(٤) قبله قوله :

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمد الداء العضالا ؟

والبيت ند لقول الحكيم : النفس الكريمة ترى الأشياء حسنة . (٥) وقم الرجل : قهره وأذله ، والوقذ الضرب بغير محدد يكون أطول ألماً وتعذيباً

والتهجين له والكشف عن نقصه . ما بلغ التمثيل فى البيت وينتهى إلى حيث انتهى(١) .

وإن أردت اعتبار ذلك فى الفن الذى هو أكرم وأشرف ، فقابل بين أن تقول : إن الذى يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره ، - وتقتصر - وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء فى الخبر من أن النبى ﷺ قال « مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضىء للناس ويحرق نفسه » ، ويروى « مثل الفتيلة تضىء للناس وتحرق نفسها(٢) .

وكذا فوازن بين قولك للرجل وأنت تعظه « إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تغر نفسك ، وتمسك ، وبين أن تقول فى أثره :

١٠٠ - إنك لا تجنى من الشوك العنب(٣) وإنما تحصد ما تزرع ، وأشباه ذلك

وكذا بين أن تقول : لا تكلم الجاهل بما لا يعرفه ونحوه وبين أن تقول : لا تنثر الدر قدام الخنازير(٤) أو لا تجعل الدر فى أفواه الكلاب . وتنشد نحو قول الشافعى رحمه الله :

---

(١) وكذلك قول المتنبى :

ومن الخير بطء سيبك عنى أسرع السحب فى المسير الجهام

(٢) قال خالد الكاتب فى هذا المعنى :

صرت كأنى ذبالة نصبت تضىء للناس وهى تحترق

ونسب صاحب زهر الآداب البيت للعباس بن الأحنف ، وهو موجود فى ديوان العباس ص ١٩٧ تحقيق عاتكة الخزرجى ، وهو مأخوذ من كليلة ودمنة عن حكمة هندية .

(٣) بيت من مشطور الرجز لابن عبد ربه الأندلسى (٤ : ٦ العقد الفريد)

(٤) ينسب للمسيح : قوله لا تطرح اللؤلؤ إلى الخنزير .

١٠١- أأشر دراً بين سارحة الغنم وأنثر منظوما لراعيـة النعم

وكذا بين أن تقول : الدنيا لا تدوم ولا تبقى : وبين أن تقول : « هى ظل زائل ، وعارية تسترد ، ووديعة تسترجع » وتذكر قول النبى ﷺ : « من فى الدنيا ضيف وما فى يديه عارية ، والضعيف مرتحل والعارية مؤداة ، وتنشد قول لبيد(١) :

١٠٢ — وما المال والأهلون إلا ودائع
ولا بد يوما أن ترد الودائع

وقول الآخر(٢) :

١٠٣ — إنما نعمة قوم متعة
وحياة المرء ثوب مستعار

فهذه جملة من القول تخبر عن صنيع التمثيل وتخبر عن حال المعنى معه(٣).

---

(١) جاهلى مشهور من أصحاب المعلقات عاش فى الإسلام طويلا .

(٢) هو الأفوه الأودى أحد حكماء العرب (٥٩ الشعر والشعراء) .

(٣) ذكر عبد القاهر أن التمثيل يقع على وجهين :

أولهما : أن يجىء فى أعقاب المعانى ، وهو ما يذكر فيه المشبه به بعد كلام بين به أحوال المشبه ، كقول البحترى :

دان على أيدى العفاة وشاسع عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوؤه للعصبة السارين جد قريب

شبه الممدوح فى قرب نفعه وعلو منزلته فى الندى عن نظرائه بالقمر فى دنو ضوئه وعلو مكانه ، ووجه الشبه اجتماع قرب النفع وبعد المنزلة =

. . . .

= والتمثيل فى هذا الوجه يجىء على حد التشبيه الاصطلاحى ، لأنه يذكر فيه المشبه والمشبه به .

وثانيهما : ما يبرز المعنى فيه باختصار فى ثوبه وينقل من صورته الأصلية إلى صورته ، وهو التمثيل الذى يجىء على حد الاستعارة ، كما تقول للمتردد فى أمر : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى — وهذا من الاستعارة التصريحية ، وقد يجىء من الاستعارة المكنية ، مثل قول سعد بن ناشب :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

شبه العزم بشىء مبصر يلقى أمام العينين بجامع كمال العناية فيهما ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بإثبات لازمه للمشبه ، وهو الإلقاء بين العينين ، وكذلك قول العباس بن الأحنف :

قلبى إلى ما ضرنى داعى يكثر أسقامى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوى إذا كان عدوى بين أضلاعى

وهو من الحديث الشريف : أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك .

وقد يجىء التمثيل على غير هذين الوجهين ، نحو كلام كالعسل فى الحلاوة ، وقول صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه

وقد يمكن إلحاقه بالوجه الأول ، لأن حال المشبه وإن لم يفصل صراحة مفهوم ضمنا . فكأنه قيل : كلام جميل مقبول كالعسل فى الحلاوة .

على أن دخول الوجه الثانى فى التمثيل ينافى ما سبق لعبد القاهر من جعل التمثيل قسما من التشبيه . وقد يكون لعبد القاهر العذر بأنه كان فى بدء تدوين

. . . .

البلاغة ، فلم تكن أصولها قد تقررت كما تقررت بعده ، وحينئذ لا يكون التمثيل أخص مطلقا من التشبيه كما ذكر أولا ، بل يكون بينهما العموم والخصوص الوجهى .

ويذكر عبد القاهر فى تأثير التمثيل أنه إذا كان المقصود منه مدحا كان أبهى وأعظم . كما فى بيتى البحترى السابقين :

دان على أيدى العفاة وشاسع عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوؤه للعصبة السارين جد قريب

وإذا كان المقصود منه ذما كان مسه أوجع ، ووقعه أشد ، فلو أنك قلت — فلان يكد نفسه فى قراءة الكتب ولا يعى منها شيئاً — وسكت ، لم يكن كما تتبعه بقولك : كالحمار يحمل أسفاراً — أو بقول مروان بن أبى حفصة فى ذم رواة الشعر الذين لا يفرقون بين جيده ورديئه مع كثرة حفظهم :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما فى الغرائر

شبه الرواة فى تعبهم فى حفظ الأشعار مع جهلها بالزوامل التى تحمل الأوساق وتجهل ما فيه ، ووجه الشبه التعب فى استصحاب الشىء مع جهله .

وإذا كان المقصود منه وعظا كان أشفى للصدر ، وأبلغ فى التنبيه مثل قول الشافعى :

أأنثر درا بين سارحة الغنم وأنشد منظوما لراعية النعم

وهذا من الاستعارة التمثيلية ، شبه فيه من يكلم الجاهل بما لا يفهمه من المواعظ والحكم بمن ينثر درا بين الغنم السارحة أو النعم الراعية ، ووجه الشبه وضع الشىء فى غير موضعه ، ثم استعير المشبه به للمشبه . =

فأما القول فى العلة والسبب : لم كان للتمثيل هذا التأثير ؟ وبيان جهته ومأتاه ، وما الذى أوجبه واقتضاه ، فغيرها ، وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا ، كل منها يقتضى أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل ، ويشرف ويكمل.

فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها إياه إلى شىء آخر هى بشأنه أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر ، إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا : « ليس الخبر كالمعاينة(١) ولا الظن

= وإذا كان المقصود منه حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، كقول أبى ذؤيب الهذلى يحتج على محبوبته فى محاولتها أن تجمع بينه وبين خالد ابن أخته فى عشقها :

تريدين كيما تجمعينى وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد ؟

وإذا كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، كقول المتنبى :

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شيمى

أنا الثريا وذان الشيب والهرم

شبه حاله مع العيب والنقصان بحال الثريا مع الشيب والهرم ، ووجه الشبه التنزه عن العيب فى الطرفين .

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه ، تجد المعنى مع التمثيل أبلغ وأعمق ، وأحلى وأرق ، وأروع وأعجب.

(١) فى الحديث : « يرحم الله أخى موسى ما الخبر كالمعاينة ، لقد أخبره الله تعالى بفتنة قومه فعرف أن ما أخبره به حق وأنه على ذلك متمسك =

كاليقين، فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس، أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة.

وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه تقدم الإلف، كما قيل(١) :

١٠٤ — ما الحب إلا للحبيب الأول

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والروية ، فهو إذن أمس بها رحماً ، وأقوى لديها ذمما ، وأقدم لها صحبة ، وآكد عندها حرمة ، وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض ، وبالفكرة في القلب ، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع ، وعلى حد الضرورة ، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف عنه الحجاب ويقول : ها هو ذا ، فأبصره تجده على ما وصفت.

فإن قلت : إن الأنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنما يكون لزوال الريب والشك في الأكثر أفتقول : إن التمثيل إنما أنس به لأنه يصحح المذكور والصفة السابقة ، ويثبت أن كونها جائز ووجودها صحيح غير مستحيل ، حتى لا يكون تمثيل إلا كذلك ؟

فالجواب : أن المعاني التي يجيء التمثيل في عقبها على ضربين : غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناع واستحالة وجوده ، وذلك نحو قوله(٢) :

١٠٥ — فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام وفاتهم إلى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه أصل بنفسه : وجنس برأسه ، وهذا

= بما في يده ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت ».

(١) قاله أبو تمام وصدره : نقل فؤادك حيث شئت من الهوى . وقد ورد البيت في « دلائل الإعجاز » ص ٤٢٦ تحقيق خفاجي .

(٢) أي المتنبي .

أمر غريب وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس فى الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس ، وبالمدعى له حاجة أن يصحح دعواه فى جواز وجوده على الجملة ، إلى أن يجىء إلى وجوده فى الممدوح، فإذا قال: «فإن المسك بعض دم الغزال» فقد احتج لدعواه، وأبان أن لما ادعاه أصلا فى الوجود ، وبرأ نفسه من صفة الكذب ، وباعدها من سفه المقدم على غير بصيرة ، والمتوسع فى الدعوى من غير بينة ،وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته ، حتى لا يعد فى جنسه إذ لا يوجد فى الدم شىء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه لا ما قل ولا ما كثر ، ولا فى المسك شىء من الأوصاف التى كان لها الدم دما ألبتة .

والضرب الثانى : ألا يكون المعنى الممثل غريباً نادراً يحتاج فى دعوى كونه على الجملة إلى بينة وحجة وإثبات . نظير ذلك أن ينفى عن فعل من الأفعال التى يفعلها الإنسان الفائدة ويدعى أنه لا يحصل منه على طائل ، ثم يمثله فى ذلك بالقابض على الماء والراقم فيه ، فالذى مثلت ليس بمنكر مستبعد ، إذ لا ينكر خطأ الإنسان فى فعله أو ظنه وأمله وطلبه وألا ترى أن المغزى من قوله[1] :

١٠٦ — فأصبحت من ليلى الغداة كقابض
على المــاء خانتــه فروج الأصابع

أنه قد خاب فى ظنه أنه يتمتع بها ويسعد بوصلها ، وليس بمنكر ولا عجيب ولا ممتنع فى الوجوه ، خارج من المعروف المعهود ، أن يخيب ظن الإنسان فى أشباه هذا من الأمور ، حتى يستشهد على إمكانه ، وتقام البينة على صدق المدعى لوجدانه[2] .

(١) أى مجنون ليلى ، والفروج : جمع فرج وهو الخلل بين الشيئين .
(٢) أى وجوده .

وإذا ثبت أن المعانى الممثلة تكون على هذين الضربين فإن فائدة التمثيل، وسبب الأنس فى الضرب الأول بين لائح(١)، لأنه يفيد فيه الصحة وينفى الريب والشك، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف وتهجم المنكر وتهكم المعترض، وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى ويبصر، ويعلم كونه على ماأثبته عليه — موازنة ظاهرة صحيحة.

وأما الضرب الثانى فإن التمثيل وإن كان لا يفيد فيه هذا الضرب من الفائدة فهو يفيد أمراً آخر يجرى مجراه، وذلك أن الوصف كما يحتاج إلى إقامة الحجة على صحة وجوده فى نفسه، وزيادة التثبيت والتقرير فى ذاته وأصله، فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه فى القوة والضعف والزيادة والنقصان.

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر أولا إلى التشبيه الصريح الذى ليس بتمثيل كقياس الشىء على الشىء فى اللون مثلا «كحنك الغراب»(٢) نريد أن تعرف مقدار الشدة لا أن تعرف نفس السواد على الإطلاق.

وإذا تقرر هذا الأصل فإن الأوصاف التى ترد السامع فيها بالتمثيل من العقل إلى العيان والحس(٣) وهى فى نفسها معروفة مشهورة صحيحة لاتحتاج

---

(١) أى ظاهر واضح، ولمعاذ العقيلى كما فى (معجم الشعراء ص ٣٠٥ طبعة القدسى): كقابض على الماء خانته فروج الأصابع.

(٢) حنك الغراب وحلكه منقاره أو السواد منه.

(٣) من مثل التشبيه البليغ التى ترد السامع إلى المشاهدة والبيان ما يروى عن قتيبة بن مسلم أنه أشرف على سمرقند فرأى منها منظراً فى نهاية الحسن تحار فيه العيون، فقال لأصحابه شبهوها، فلم يأتوا بشىء فقال: «كأنها السماء فى الخضرة، وكأن قصورها النجوم الزاهرة، وكأن أنهارها المجرة»: فاستحسنوا هذا التشبيه جدا، وتعجبوا من صدقه (٢١٧ لطائف المعارف =

إلى الدلالة على أنها هل هي ممكنة موجودة أم لا؟ فإنها وإن غنيت من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات ، فإنها تفتقر إليه من جهة المقدار، لأن مقاديرها في العقل تختلف وتتفاوت ، فقد يقال في الفعل إنه من حال الفائدة على حدود مختلفة في المبالغة والتوسط ، فإذا رجعت إلى ما تبصر وتحس عرفت ذلك بحقيقته وكما يوزن بالقسطاس ، فالشاعر لما قال: كقابض على الماء خانته فروج الأصابع، أراك رؤية لاتشك معها ولا ترتاب أنه بلغ في خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصى المبالغ ، وانتهى فيه إلى أبعد الغايات ، حتى لم يحظ لا بما قل ولا ما كثر .

فهذا هو الجواب ، ونحن بنوع من التسهيل والتسامح نقع (١) على أن الأنس الحاصل بانتقالك في الشيء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب .

فأما إذا رجعنا إلى التحقيق ، فإنا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله « قال بلى ولكن ليطمئن قلبي»(٢) ، والشواهد في ذلك كثيرة والأمر فيه ظاهر ، ولولا أن الأمر كذلك لما كان لنحو قول أبي تمام :

١٠٧ — وطول مقام المرء في الحي مخلق
لديباجتيـــه فاغترب تتجـــدد

= للثعالبي تحقيق الصيرفي وآخر) .

(١) أي نوافق وعلى هذا يكون ذلك الجواب جدليا .

(٢) لابن حزم في هذا المعنى :

لئن أصبحت مرتحلا بجسمي فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم

فإنى رأيت الشمس زيدت محبة
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد(١)

معنى «وذلك»: أن هذا التجدد(٢) لا معنى له إن كانت الرؤية لا تفيد أنساً من حيث هى رؤية وكان الأنس لنفيها الشك والريب. أو لوقوع العلم بأمر زائد لم يعلم من قبل:

وإذا كان الأمر كذلك فأنت إذا قلت للرجل: «أنت مضيع للحزم فى سعيك ومخطىء وجه الرشاد، وطالب لما لا تناله، إذا كان الطلب على هذه الصفة ومن هذه الجهة، ثم عقبته بقولك: «هل يحصل فى كف القابض على الماء شىء مما يقبض عليه»، فلو تركنا حديث تعريف المقدار فى الشدة والمبالغة ونفى الفائدة من أصلها جانباً، بقى لنا ما تقتضيه الرؤية للموصوف على ما وصف عليه من الحالة المتجددة مع العلم بصدق الصفة، يبين ذلك أنه لو كان الرجل مثلا على طرف نهر فى وقت مخاطبة صاحبه، وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شىء، فادخل يده فى الماء وقال: «انظر هل حصل فى كفى من الماء شىء فكذلك أنت فى أمرك»، كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل. ولو أن رجلا أراد أن يضرب لك مثلا فى تنافى الشيئين فقال: هذا وذاك هل يجتمعان»؟ وأشار إلى ماء ونار حاضرين، وجدت لتمثيله من التأثير ما لم تجد إذا أخبرك بالقول فقال: هل يجتمع الماء والنار؟ وذلك الذى تفعل المشاهدة من التحريك للنفس، والذى يجب بها من تمكن المعنى فى القلب، إذا كانت مستفادة من العيان، ومتصرفة حيث تتصرف العينان، وإلا فلا حاجة بنا فى أن الماء والنار لا يجتمعان، إلى ما يؤكده من رجوع إلى مشاهدة، واستيثاق بتجربة.

---

(١) أخلاق الثوب: أبلاه. الديباجتان: الخدان. السرمد: الدائم. والبيت الأول فى دلائل الإعجاز ص ٤٣٨ تحقيق الخفاجى.
(٢) المراد أن هذا التمثيل أى تجدد المعنى بالتمثيل.

وما يدلك على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنساً وإن لم يكن بك حاجة إلى تصحيح المعنى، أو بيان لقدار المبالغة فيه، أنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التي تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لا تدع فى النفوس (١) منزعا، نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالطول: يوم كأطول ما يتوهم وكأنه لا آخر له، وما شاكل ذلك من نحو قوله (٢):

١٠٨ — فى ليل صول تناهى العرض والطول
كأنما ليله بالحشر موصول

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله (٣):

(١) الصواب فى القوس. والمنزع بفتح الميم والزاى النزوع إلى الغاية والجمع منازع، وبكسر الميم: الشهم الذى ينتزع به وكذا الشديد النزع.

(٢) هو حندج بن حندج المرى من أبيات قالها وهو فى الغزو، وبعده:

لا فارق الصبح كفى إن ظفرت به	وإن بدت غرة منه وتحجيل
لساهر طال فى صول تململه	كأنه حية بالسوط مقتول
متى أرى الصبح قد لاحت مخايله	والليل قد مزقت عنه السرابيل
ليل تحير ما ينحط فى جهة	كأنه فوق متن الأرض مشكول
ما أقدر الله أن يدنى على شحط	من داره الحزن ممن داره صول

٢: ٣٦٢ الحماسة لأبى تمام، ١: ٩٩ الأمالى.

وصول بالضم: بلدة بقرب باب الأبواب على بحر القزوين.

(٣) هو شبرمة بن الطفيل. ونسبه الجاحظ فى الحيوان (٦: ٥٥) لابن الطثرية.

وتمامه: دم الزق عنا واصطفاق المزاهر. وكذلك نسبه لابن الطثرية ابن قتيبة فى «الشعر والشعراء» ص ٧٤. ورواية الحماسة: ويوم شديد الحر قصر طوله.

١٠٩ — ويوم كظل الرمح(١) قصر طوله

على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى فى المبالغة من هذا ، فظل الرمح على كل حال متناه تدرك العين نهايته وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له .

وكذلك تقول : يوم كأقصر مايتصور ، وكأنه ساعة ، وكلمح البصر ، و «كلا ولا(٢)» . فنجد هذا مع كونه تمثيلا لا يؤنسك إيناس قولهم : أيام

= ومثله لمجنون ليلى :

ويوم كظل الرمح قصرت ظله   بليلى فلهانى وما كنت لاهيا

قال الجاحظ : فأما قولهم : منينا بيوم كظل الرمح . فإنهم لا يرون منه الطول فقط ولكنهم يرون مع الطول أنه ضيق غير واسع .

(١) لما كان ظل الرمح أطول من غيره جعل الغاية فى الطول ٣ : ٣٢٩ العكبرى .

(٢) كناية عن سرعة الانقضاء ، قال أبو برهان المغربى :

وأسرع فى العين من لحظة   وأقصر فى السمع من لا ولا

وفى «نهج البلاغة» : فسرحت إليه جيشاً كثيفاً من المسلمين ، فلما بلغه ذلك شمر هارباً ، ونكص نادماً، فلحقوه ببعض الطريق ، وقد طفلت الشمس للإياب ، «فاقتتلوا شيئاً كلا ولا» . وفى كلام جرير :

وهاجد موماة بعثت إلى السرى   وللنوم أحلى عنده من جنى النحل

يكون نزول الركب فيها كلا ولا   غشاشاً ولا يدنون رحلا إلى رحل

والهاجد : الساهر . والموماة : الفلاة . وبعثت : أيقظت ، والغشاش : العجلة . ولا يدنون : أى لأنهم من عجلتهم يحطون عند كل ناقة رحلها ، وفى كلام أبى نواس إذ يقول : =

كأباهيم(١) القطا . وقو ابن المعتز :

١١٠ — بدلت من يوم كظل حصاة ليلا كظل الرمح غير مواتى(٢)

= تركت قلبى قليلا من القليل أقلا
يكاد لا يتجزأ أقل فى اللفظ من لا

وقال الصاحب بن عباد : بأيام تحاكى ظل الرمح طولا ، وليال كابهام القطاة قصراً . ونوم كلا ولا قلة . وقيل لمعاوية : أخبرنا عنكم وعن بنى هاشم فقال : بنو هاشم أشرف واحداً (عبد المطلب) ونحن أشرف عدداً ، فما كان إلا كلا ولا وحتى جاءوا بواحدة بذت الأولين والآخرين (يريد رسول الله) .

(١) وقال جرير :

وبوم كابهام القطاة محبب إلى صباه غالب لى باطله

قال الزجاج : أخذه جرير من قول الآخر :

ظللنا عند دار أبى نعيم بيوم مثل سالفة الذباب

ثم قال : =

وهذا نهاية الإفراط والخروج عن حدود التشبيه :

ونظيره فى الإفراط وفى ضد المعنى قول أبى تمام :

تحمل عنه الصبر يوم تحملوا وعادت صباه فى الصبا وهى شمأل
بيوم كطول الدهر فى عرض مثله ووجدى من هذا وهذاك أطول

ولأعرابى فى حبيبة له : ما كانت أيامى معها إلا كأباهيم القطا قصرا (٣٤ أخبار النساء لابن قيم الجوزية) ولمحمد بن هاشم كما فى (الإبانة ص١٢) :

سهرت ليلى فنوم العين متبول كأن ليلى بيوم الحشر موصول

(٢) راجع ديوان ابن المعتز طبع بيروت (٢ : ٣٤) . وظل الرمح : =

وقول آخر(١) :

١١١ — ظللنا عند باب أبي نعيم بيوم مثل سالفــه الذباب

وكذا تقول : فلان إذا هم بالشيء لم يزل ذاك عن ذكره(٢) وقلبه ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه ، ولم يشغله شيء عنه ، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن ، ثم لا ترى فى نفسك له هزة ، ولا تصادف لما تسمعه أريحية ، وإنما تسمع حديثاً ساذجاً وخبراً غفلا ، حتى إذا قلت :

= مثل فى الطول . وظل الحصاة : مثل فى القصر . . . ويريدون أنه مع الطول ضيق غير واسع .

وأحسن جرير فى تشبيه قصر اليوم بقوله :

ويوم كإبهـــام القطاة محبب إلى صباه غالب لى باطـــله

فيالك يوما خيره قبل شره تغيب واشيه وأقصر باطله

رواه الأصمعى أمام خلف فقال خلف : ويله ما منفعة خير يؤول إلى شر ، فقال الأصمعى :

هكذا قرأت على أبي عمرو بن العلاء . فقال لى خلف : صدقت وكذلك قال جرير ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا ما سمع ، قلت : فكيف كان يجب أن يقول : فقال : كان الأولى أن يقول : خيره دون شره ، فاروه هكذا ، فقد كانت الرواة قديما تصلح من أشعار القدماء ، فافعل ذاك ، فقد كان ابن مقبل يقول : إنا لنرسل القوافى عوجا حتى تأتينا بها الرواة وقد أقامتها — ١٦١ و ١٦٢ الجمان فى تشبيهات القرآن .

(١) السالفة : ناصية مقدم العنق .

(٢) الذكر بالضم : التذكر ، تقول هو منى على ذكر ، وقيل المضموم مخصوص بالقلب والمكسور باللسان .

١١٢ ـ إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب ذكر العواقب جانباً(١)

امتلأت نفسك سروراً وأدركتك طربة ـ كما يقول القاضي أبو الحسن(٢) لاتملك دفعها عنك(٣) . ولا تقل إن ذلك لمكان الإيجاز فإنه وإن كان يوجب شيئاً منه فليس الأصل له بل لأن أراك العزم واقفاً بين العينين ، وفتح إلى مكان المعقول من قلبك باباً من العين .

وهنا ـ إذا تأملنا ـ مذهب آخر في بيان السبب الموجب لذلك(٤) هو ألطف مأخذا ، وأمكن في التحقيق ، وأولى بأن يحيط بأطراف الباب وهو أن لتصور الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله ، والتقاط ذلك له من غير محلته واجتلابه إليه من النيق(٥) البعيد باباً آخر من الظرف واللطف ، ومذهباً من مذاهب الإحسان ، لا يخفى موضعه من العقل ، وأحضر شاهد

---

(١) البيت لسعد بن ناشب العنبري وكان من صعاليك العرب وهو مذكور كما في الحماسة في شطر قصيدتين إحداهما بائية والأخرى رائية ، فمن الأولى :

سأغسل عني العار بالسيف جالبا على قضاء الله ما كان جالباً

إلى أن قال :

إذ هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانباً

ومن الثانية :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجي ذي الأسر

والأسر : القوة

(٢) أبو الحسن هو علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى عام ٣٩٢ هـ صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » .

(٣) فيها استعارة بالكناية مبنية على تمثيل .

(٤) أي لتأثير التمثيل .

(٥) هو أرفع مكان في الجبل .

لك على هذا : أن تنظر إلى تشبيه المشاهدات بعضها ببعض ، فإن التشبيهات سواء كانت عامية مشتركة ، أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل ، تراها لا يقع بها اعتداد . ولا يكون لها موقع من السامعين ولا تهز ولا تحرك ، حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين في الجنس ، فتشبيه العين بالنرجس عامي مشترك معروف في أجيال الناس جار في جميع العادات ، وأنت تنظر إلى بعد مابين العينين وبينه من حيث الجنس ، وتشبيه الثريا بما شبهت به من عنقود الكرم المنور(١) ، واللجام المفضض(٢) ، والوشاح المفصل(٣) وأشباه ذلك — خاصي ، والتباين بين المشبه والمشبه به في الجنس على ما لا يخفى .

وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد ، كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين، ومؤتلفين

---

(١) كقوله :

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى
كعنقود ملاحية حين نورا

(٢) كقوله :

كأن الثريا في أواخر ليلها ‏ ‏ ‏ تفتح نور أو لجام مفضض

(٣) كقول امرىء القيس :

إذا الثريا في السماء تعرضت ‏ ‏ ‏ تعرض أثناء الوشاح المفصل

والوشاح بالضم والكسر : كرسان بكسر الكاف من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما — وأديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها ، وهو المراد هنا .

مختلفين ، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض ، وفى خلقة الإنسان وخلال الروض .

وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة ، وتتبعت هذه اللمحة(١) ، ولذلك تجد تشبيه البنفسج فى قوله(٢) :

١١٣ — ولازوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها

أوائل النار فى أطراف كبريت

أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع وأجدر ، من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ، لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غض يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف ، بلهب نار مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف(٣) ؟ ومبنى الطباع وموضوع الجبلة ، على أن الشىء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر ، فسواء فى إثارة التعجب . وإخراجك إلى روعة المستغرب ، وجودك الشىء فى مكان ليس من أمكنته ، ووجود شىء لم يوجد ولم يعرف من أصله فى ذاته وصفته ، ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شبهاً فى شىء من المتلونات ، لم تجد له هذه الغرابة ، ولم ينل من الحسن هذا الحظ .

---

(١) اللمحة واحدة اللمح وهى اختلاس النظر .

(٢) أى ابن المعتز ونسبهما ابن حلكان لأبى القاسم على بن إسحق بن خلف المعروف بالزاهى وكان وصافاً محسناً وله مدائح فى سيف الدولة ، وتوفى سنة ٣٥٢ هـ ، وقد أخذهما من أبيات ابن المعتز ، ونسبهما فى المطول : لأبى العتاهية ، وهما فى معاهد التنصيص : لابن الرومى المتوفى عام ٢٨٣ هـ

(٣) لون بين السواد والحمرة .

وإذا ثبت هذا الأصل وهو أن تصوير الشبه ، بين المختلفين فى الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ، ويثير الكامن من الاستظراف ، فإن التمثيل أخص شىء بهذا الشأن ، وأسبق جار فى هذا الرهان ، وهذا الصنيع صناعته التى هو الإمام فيها ، والبادىء لها والهادى إلى كيفيتها ، وأمره فى ذلك أنك إذا قصدت ذكر طرائفه ، وعد محاسنه فى هذا المعنى ، والبدع التى يخترعها بحذقه والتأليفات التى يصل إليها برفقه ، ازدحمت عليك وغمرت جانبيك ، فلم تدر أيها تذكر ، ولا عن أيها تعبر ، كما قال(١) :

١١٤ ـ إذا أتاها طالب يستامها   تكاثرت فى عينه كرامها

وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ويجمع ما بين المشئم والمعرق ، وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبهاً فى الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة فى الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين ، كما يقال فى الممدوح : هو حياة لأوليائه ، موت لأعدائه ، ويجعل الشىء من جهة ماء ومن أخرى ناراً كما قال(٢) :

١١٥ ـ أنا نار فى مرتقى نظر الحاسد   ماء جار مع الإخوان

وكما يجعل الشىء حلواً مراً ، وصاباً عسلا ، وقبيحاً حسناً كما قال(٣) :

---

(١) هو لأحد الأعراب الرجاز فى مدح إبله .

(٢) هو أبو على محمد بن الحسين بن مقلة وزير المقتدر توفى سنة ٣٢٨ وقبله :

لست ذا ذلة إذا عضنى الدهر   ولا شامخاً إذا واتانى

(٣) هو المتنبى يمدح القائد على بن أحمد المزنى الخراسانى من قصيدة مطلعها :

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدرك أو محارب لا ينام =

١٦١ - حسن فى عيون أعدائه أقـ ـبح من ضيفه رأته السوام(١)

ويجعل الشيء أسود أبيض فى حال كنحو قوله(٢) :

١١٧ - له منظر فى العين أبيض ناصع .. ولكنه فى القلب أسود أسفع

ويجعل للشيء كالمقلوب إلى حقيقة ضده كما قال(٣) :

= وقبله :

يتداوى من كثرة المال بالإقلال جودا كأن مالا سقام

(١) حسن خبر لمحذوف أى هو وفى عيون متعلق بأقبح الذى هو خبر ثان . والسوام الماشية أى : هو أقبح فى عيون أعدائه من ضيفه فى عيون ماله الراعى ويصح أن يكون « وعيون » متعلقاً بحسن . أى حسن الصورة فى عيونهم قبيح الفعل بهم .

(٢) هو أبو تمام من قصيدة يمدح بها أباسعيد محمد بن يوسف الثغرى ومطلعها :

أما إنه لولا الخليط المودع ... وربع خلا منه مصيف ومربع

إلى أن قال :

غدا الهم مختطاً بفودى خطة ... طريق الردى منها إلى النفس مهيع

هو الزور يجفى والمعاشر يجتوى ... وذو الإلف يقلى والجديد يرقع

والأسفع : الأسود المشرب بحمرة ، والاسم السفعة ..

(٣) أى أبو تمام فى مدح أبى سعيد أيضاً من قصيدة مطلعها :

إن عهـداً لو تعلمين ذميا ... أن تناما عن ليلتى أو تنيما

كنت أرعى البدور حتى إذا ما ... فارقونى أمسيت أرعى النجوما

وقبله : أصبحت روضة الشباب ... هشيما وغدت ريحه البليل سموما

شعلة فى المفارق استودعتنى ... فى صميم الفؤاد ثكلا صميما

تستثير الهموم ما اكتن منها ... صعدا وهى تستثير الهموما =

١١٨ - غرة بهمة ألا إنما كنـ ـت أغر أيام كنت بهيما[١]

ويجعل الشيء قريباً بعيداً معاً كقوله :[٢]

١١٩ - دان على أيدى العفاة وشاسع عن كل ند فى الندى وضريب

وحاضراً وغائباً كما قال :

١٢٠ - أيا غائباً حاضراً فى الفؤاد سلام على الحاضر الغائب

ومشرقاً مغرباً كقوله :

١٢١ - له إليـكم نفس مشرقة إن غاب عنكم مغرباً بدنه

وسائر مقيما كما يجيء فى وصف الشعر الحسن الذى يتداوله الرواة وتتهاداه الألسن كما قال القاضى أبو الحسن[٣] :

١٢٢ - وجـوابة الأفق موقوفة تسير ولم تبرح الحضرة

وهل يخفى تقريبه المتباعدين ، وتوفيقه بين المختلفين ، وأنت تجد إصابة الرجل فى الحجة وحسن تخليصه للكلام وقد مثلت تارة بالهناء.[٤]

= دقة فى الحياة تدعى جلالا مثل ما سمى اللديغ سليما

حلمتنى زعمتم وأرانى قبل هذا التحليم كنت حليما

والغرة : هى البياض فى جبهة الفرس . والبهمة كالظلمة وزناً ومعنى والبهيم الذى لا شية فيه من غير لونه ، ومنه ليل بهيم إذا كان لاضوء فيه ، يصف الشيب بأنه غرة كالظلمة فى قبحها وكراهة الحسان لها ، وأنه إنما كان أغر فى الوقت الذى كان شعره أسود بهيما وهو وقت الشباب .

(١) راجع ديوان أبى تمام ٣/٢٢٣ و ٢٢٤ — وانظر البيتين فى حماسة الشجرى ٨١٩ ، وفى ديوان المعانى للعسكرى ٢/١٥٧ .

(٢) أى البحترى .

(٣) الجرجانى صاحب « الوساطة » المتوفى عام ٣٩٢ﻫ .

(٤) الهناء بالكسر : القطران . والنقب كصرد : الجرب .

ومعالجة الإبل الجربى به ، وأخرى بحز القصاب[١] اللحم ، وإعماله السكين فى تقطيعه وتفريقه ، فى قولهم : « يضع الهناء موضع النقب[٢] ، (وهو الجرب) ، ويصيب الحز » ويطبق المفصل[٣] .

فانظر هل ترى مزيداً فى التناكر والتنافر ، على ما بين طلا القطران ، وجنس القول والبيان ، ثم كرر النظر وتأمل كيف حصل الائتلاف ، وكيف جاء مع أحدهما إلى الآخر ما يأنس إليه العقل ويحمده الطبع . حتى إنك لربما وجدت لهذا المثل إذا أورد عليك فى أثناء الفصول ، وحين تبين الفاضل فى البيان من المفضول — قبولا ولا ما تجد عند فوح المسك ونشر الغالية[٤] وقد وقع ذكر الحز والتطبيق منك موقع ما ينفى الحزازات عن القلب ، ويزيل إطباق الوحشة عن النفس .

وتكلف القول فى أن للتمثيل فى هذا المعنى المدى الذى لا يجارى إليه ، والباع الذى لا يطاول فيه ، كالاحتجاج للضروريات وكفى دليلا على تصرفه

---

(١) أى الجزار .

(٢) شطر بيت لدريد بن الصمة فى الخنساء حين خرجت فهنأت أذوادا لها جربى ثم نضت عنها ثيابها واغتسلت ودريد يراها وهى لا تراه ، فقال :

حيوا تماضر وأربعوا صبحى وقفوا فإن وقوفكم حسبى

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طـــالى أينق جرب

متبذلا تبـــدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب

(٣) فى المثل : إنك لتصيب الحز وتطبق المفصل — يضرب لمن لا يتعب فى العمل ثم يظفر بالمراد ، والتطبيق : إصابة المفصل وهو طبق (بفتحتين) العظمين أى ملتقاهما فيفصل بينهما .

(٤) النشر : الرائحة الطيبة ، والغالية : طيب معروف .

فيه باليد الصناع(١) ، وإيفائه على غايات الابتداع ، أنه يريك العدم وجوداً والوجود عدما ، والميت حيا والحى ميتا . أعنى جعلهم الرجل إذا بقى له ذكر جميل وثناء حسن بعد موته كأنه لم يمت ، وجعل الذكر حياة له كما قال(٢) :

١٢٣ — « ذكر الفتى عمره الثانى »

وحكمهم على الخامل الساقط القدر ، الجاهل الدنىء ، بالموت . وتصييرهم إياه حين لم يكن ما يؤثر عنه ويعرف به كأنه خارج عن الوجود إلى العدم أو كأنه لم يدخل فى الوجود .

ولطيفة أخرى له فى هذا المعنى(٣) ، هى إذا نظرت أعجب ، والتعجب بها أحق ومنها أوجب ، وذلك جعل الموت نفسه حياة مستأنفة ، حتى يقال إنه بالموت استكمل الحياة فى قولهم : « فلان عاش حين مات » يراد الرجل تحمله النفس الأبية وكرم النفس والأنفة من العار على أن يسخو بنفسه

---

(١) رجل صناع بفتح الصاد وتخفيف النون أى حاذق ماهر .

(٢) هو المتنبى يمدح أبا شجاع فاتكا وهو شطر بيت نصه :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته
ما فاته وفضول العيش أشغال

وقد أخذه شوقى فى شعره فقال :

فاحفظ لنفسك بعد عمرك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثان

وقبله :

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوان

(٣) أى الجمع بين المختلفين ، أو فى جعل الموت حياة .

فى الجود والبأس ، ففعل مافعل كعب بن(١) مامة فى الأتيان(٢) على نفسه ، أو مايفعله الشجاع المذكور من القتال دون حريمه والصبر فى مواطن الإباء والتصميم فى قتال الأعداء ، حتى يكون له يوم لا يزال يذكر ، وحديث يعاد على مر الدهور ويشهر ، كما قال ابن نباتة(٣) :

١٢٤ — بأبى وأمى كل ذى نفس تعاف الضيم مرة(٤)
ترضى بأن يرد الردى فيميتها ويعيش ذكره

وإنه ليأتيك من الشىء الواحد بأشياء عدة ، ويشتق من الأصل الواحد أغصاناً فى كل غصن ثمر على حدة : نحو أن الزند بإيرائه يعطيك منه الجواد والذكى الفطن وشبه النجح فى الأمور والظفر بالمراد ، وبإصلاده(٥) شبه البخيل الذى لا يعطيك شيئاً ، والبليد الذى لا يكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى ، وشبه من يخيب سعيه ونحو ذلك .

---

(١) هو كعب بن مامة الإيادى أحد أجواد العرب فى الجاهلية آثر رفيقه على نفسه بالماء فمات عطشا ، وفى شعر جرير يقول فى مدح عمر بن عبد العزيز :

وما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا

وابن سعدى هو أوس بن حارثة بن لأم الطائى وكان سيدا مقداما جوادا

(٢) صحتها : فى الإيثار على نفسه .

(٣) هو ابن نباتة السعدى شاعر سيف الدولة الحمدانى (٣٣٧ - ٤٠٥ هـ) ، وهو غير ابن نباتة الخطيب ، وابن نباتة المصرى الشاعر (٧٧٦ هـ) .

(٤) مرة بكسر الميم على تقدير مضاف أى ذات مرة أى قوة ، وبالضم : ضد حلوة .

(٥) ورى الزند وأورى إذا أخرج ناره ، وأصلد إذا صوت ولم تخرج منه النار .

ويعطيك(١) من القمر الشهرة فى الرجل والنباهة والعز والرفعة . ويعطيك الكمال عن النقصان والنقصان بعد الكمال . كقولهم : « هلال نما فعاد بدراً » ، يراد بلوغ النجل الكريم المبلغ الذى يشبه أصله من الفضل والعقل وسائر معانى الشرف كما قال أبو تمام(٢) :

١٢٥ - لهفى على تلك الشواهد منهما ... لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لغدا سكونهما حجى وصباهما ... كرما وتلك الأريحية نائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه ... أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

وهذا المثل بعينه يضرب مثلا فى ارتفاع الرجل فى الشرف والعز من طبقة إلى أعلى منها كما قال البحترى :

١٢٦ — شرف تزيد بالعراق إلى الذى
عهدوه بالبيضاء أو ببلنجر(٣)
مثل الهلال بدا فلم يبرح به ... صوغ الليالى فيه حتى أقمرا

ويعطيك شبه الإنسان فى نشأته ونمائه إلى أن يبلغ حد التمام ، ثم تراجعه إذا انقضت مدة الشباب ، كما قال(٤) :

---

(١) معطوف على قوله يأتيك من الشيء الواحد سابقا .

(٢) فى رثاء ولدين لعبد الله بن طاهر .

(٣) البيضاء وبلنجر قريتان ببلاد الخزر قرب باب الأبواب على بحر الخزر (بحر قزوين) ، تزيد بالعراق . أى ابتدأت زيادته فيه ثم لازال يمتد إلى الذى عهده إلخ .

(٤) هو أبو الحسن بن أبى البغل من شعراء القرن الرابع وكتابه ، وينسبان لمحمد بن يزداد بن سويد وزير المأمون (٤٢٤ معجم الشعراء للمرزبانى) .

١٢٧ - المرء مثل هلال حين تبصره   يبدو ضئيلا ضعيفاً ثم يتسق(١)
يزداد حتى إذا ما تم أعقبه   كر الجديدين نقصاً ثم ينمحق

وكذلك يتفرع من حالتى تمامه ونقصانه فروع لطيفة فمن ذلك قول ابن بابك(٢) :

١٢٨ - وأعرت شطر الملك شطر كماله   والبدر فى شطر المسافة يكمل

قاله فى الأستاذ أبى على(٣) وقد استوزره فخر الدولة بعد وفاة الصاحب(٤) وأبا العباس الضبى(٥) وخلع عليهما . وقول أبى بكر الخوارزمى(٦) :

١٢٩ — أراك إذا أيسرت خيمت عندنا
مقيما وإن أعسرت زرت لماما
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه   أغب وإن زاد الضياء أقاما

المعنى لطيف . وإن كانت العبارة لم تساعده على الوجه الذى يجب، فإن الإغباب أن يتخلل وقتى الحضور وقت يخلو منه . وإنما يصلح لأن يراد أن القمر إذا نقص نوره لم يوال الطلوع كل ليلة بل يظهر فى بعض الليالى

---

(١) اتسق الأمر انتظم ، والقمر : كمل نوره وتم .
(٢) أبو القاسم عبد الصمد بن منصور توفى عام ٤١٠ هـ .
(٣) هو أبو على الحسن بن أحمد .
(٤) الصاحب بن عباد الوزير المتوفى عام ٣٨٥ هـ .
(٥) عطف على الضمير المنصوب فى استوزره .
(٦) من أشهر كتاب القرن الرابع وقريع البديع توفى عام ٣٨٣ هـ وينسب البيتان لإبراهيم بن العباس الصولى — ٢٤٧ هـ) — ص ١٨٧ الطرائف الأدبية .

ويمتنع من الظهور فى بعض ، وليس الأمر كذلك لأنه على نقصانه يظهر كل ليلة حتى يكون السرار ، وقال ابن بابك فى نحوه :

١٣٠ — كذا البدر يسفر فى تمه   فإن خاف نقص المحاق انتقب

وهكذا ينظر إلى مقابلته الشمس واستمداده من نورها وإلى كون ذلك سبب زيادته ونقصه وامتلائه من النور والائتلاق ، وحصوله فى المحاق ، وتفاوت حاله فى ذلك فيصاغ منه أمثال ، ويبين أشباه ومقاييس ، فمن لطيف ذلك قول ابن نباتة :

١٣١ - قد سمعنا بالغر من آل ساسا   ن ويونان فى العصور الخوالى
والملوك الألى إذا ضاع ذكر   وجدوا فى سوائر الأمثـــال
مكرمات إذا البليغ تعاطى   وصفها لم يجده فى الأقوال
وإذا نحن لم نضفها إلى مد   حك كانت نهاية فى الكمال
إن جمعناهما أضر بها الجمـ   ـع وضاعت فيه ضياع المحال
فهو كالشمس بعدها يملأ البد   ر وفى قربها محاق الهلال

وغير ذلك من أحواله كنحو ماخرج من الشبه من بعده وارتفاعه وقرب ضوئه وشعاعه ، فى نحو مامضى من قول البحترى : دان على أيدى العفاة : البيتين : ومن ظهوره بكل مكان ، ورؤيته فى كل موضع كقوله (١) :

١٣٢ — كالبدر من حيث التفت رأيته   يهدى إلى عينيك نوراً ثاقبا

فى أمثال كذلك تكثر . ولم أعرض لما يشبه به من حيث المنظر

---

(١) أى أبى الطيب المتنبى .

وما تدركه العين نحو تشبيه الشيء : بتقويس الهلال ودقته(١) ، والوجه بنوره وبهجته ، وإنما في ذكر ما كان تمثيلا وكان الشبه فيه معنويا(٢) .

---

(١) كالآية الكريمة : والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم .

(٢) ذكر عبدالقاهر هنا في هذا الموضع أن لتأثير التمثيل أسباب ثلاثة :
أولها : نقله النفس من العقلي إلى الحسي ومن النظري إلى الضروري .
وثانيها : جمعه بين الأمور المختلفة المتنافرة .
وثالثها : حاجته إلى الفكر .

١ — فالسبب الأول في تأثيره يجيء من ناحية تقوية المعنى وتوكيده في النفس ، فيوجب لها أنساً به ، وثقة واطمئناناً إليه ، وذلك يرجع إلى أمرين :

أولهما أن الحسي والضروري أقوى من العقلي والنظري .

وثانيهما أن العلم الحسي والضروي أسبق حصولا في النفس من العقلي والنظري ، فهي لهما أشد ألفة ، وأقدم صحبة ، فإذا نقلتها من العلمين الأولين إلى العلمين الأخيرين كنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم ، وهذا أدعى إلى قبولها ، فقد يكون المعنى الممثل بديعا غريبا يمكن أن يشك فيه ويدعى امتناعه ، فيستعان بالتمثيل بذلك على دفع الشك فيه ، كقول المتنبي في سيف الدولة :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ذكر أن سيف الدولة يفوق الأنام حتى كأنه جنس آخر فوقهم ، وهذا غريب يشك فيه ، فمثله في هذا بالمسك ، فإن أصله دم ولكنه خرج منه حتى صار جنسا آخر .

. . . .

وقد يكون المعنى الممثل غير بديع ولا غريب ، فلا يفيد التمثيل إزالة الشك ، وإنما يفيد فائدة أخرى تجرى مجراها فى اجتلاب الأنس ، وهى بيان المقدار ، كقول الشاعر :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض
على الماء خانته فروج الأصابع

ذكر أنه خاب فى ظنه أنه سيسعد بوصلها ، وهذا المعنى ليس غريباً حتى يحتاج إلى إقامة دليل على إمكانه ، ولكنه يحتاج إلى بيان مقداره ، والكشف عن مبلغه فى القوة والضعف ، فإن الأمور العقلية قد تختلف مقاديرها ، فإذا مثلت بالمحسوس عرفت مرتبتها فى ذلك ، وقد تكون فائدة التمثيل بذلك مجرد الأنس بالمعنى الممثل ، وإن لم يكن أحد بحاجة إلى إزالة شك أو بيان مقدار ، كقول أبى تمام :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق
لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ذكر أن طول إقامة المرء بين قومه تجعلهم يملونه ، فإذا أقام بينهم حينا واغترب عنهم حينا لم يملوه ، ثم مثله فى هذا بحال الشمس حين تظهر نهاراً وتغيب ليلا ، ولو أنها ظهرت للناس دائماً ملوها ، فالتمثيل هنا فائدته الأنس بالمعنى الممثل ، لما تفعله المشاهدة من التحريك للنفس ، والتمكين فى القلب ، ولا يراد هنا دفع شك فيه أو بيان مقداره ، لأنه ليس موضعا لشك ، وليس فى حاجة إلى بيان مقدار . وللتمثيل بالمحسوس فضله فى ذلك على غيره وإن كان أكثر منه مبالغة فى المعنى ، كما قال حندج المرى :

. . . .

في ليل صول تناهى العرض والطول

كأنما ليله بالحشر موصول

ففيه ما ترى من المبالغة فى وصف طول الليل ، ولكنه ليس فيه من الروعة ما فى قول شبرمة بن الطفيل :

ويوم كظل الرمح قصر طوله

دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

وسبب روعته مافيه من تمثيل المعقول بالمحسوس ، وإن كان ظل الرمح متناهياً لا يفيد من المبالغة ما يفيده البيت الأول .

٢ — والسبب الثانى فى تأثيره يجىء من ناحية الطرافة والغرابة ، وذلك أن تأخذ الشبه للشىء من غير جنسه واجتلابه له من غير مظنته لما فيه من الطرافة والغرابة ، مما لا يخفى موضعه من العقل ، وهذا السبب يجىء فى التشبيه غير التمثيلى أيضاً بخلاف الأول ، فتشبيه فاكهة بأخرى فى اللون والطعم لا يعتد به لقرب ما بين الطرفين ، بخلاف تشبيه العين بالنرجس لبعد ما بين الطرفين ، ولكن هذا السبب أقوى تأثيراً فى التمثيل وله القدح المعلى فى الجمع بين المختلفات ، وإذا أردت ذكر طرائفه فيه ازدحمت عليك ، وانثالت لديك :

فمنها أنه يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثلة ، بأن يكون المشبه عقليا والمشبه به حسياً ، فيجمع بين هذا السبب والسبب الأول ، كما فى قوله تعالى (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) شبه اعتقاد الإيمان بالتمسك بالحبل المتين ووجه الشبه أمن الهلاك وتيقن النجاة .

. . . .

ومنها أنه ينطق الأخرس ، أى يثبت الحديث والنطق لغير الناطق ، كقول نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهـــله
ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

شبه الحقائب الممتلئة بعطايا الممدوح بالرجل المادح ، ووجه الشبه الدلالة على الكرم ، ثم حذف المشبه به على طريق الاستعارة بالكناية .

ومنها أنه يريك اجتماع الأضداد بأن يشبه الشىء بأمرين متضادين ، أو بأن يكون الشىء متصفا بصفة على الحقيقة فتثبت له ضدها بالتمثيل ، فالأول كقول ابن مقلة :

أنا نار فى مرتقى نظر الحا سد ماء جار مع الإخوان

شبه نفسه مع أعدائه بالنار بجامع الإيلام ، ومع إخوانه بالماء بجامع اللطف . والثانى كقول المتنبى :

حسن فى عيون أعدائه أقـ بح من ضيفه رأته السوام

والشاهد فى قوله — أقبح — فقد أثبت له القبح على سبيل التمثيل وهو حسن فى الحقيقة ، فشبهه بشىء قبيح بجامع الكراهية ، ثم حذف المشبه به وأثبت لازمه للمشبه وهو القبح على سبيل الاستعارة بالكناية ، والمراد أنه حسن المنظر فى عيونهم ، ولكنه قبيح فى نفوسهم لكراهتهم له ، وفى قوله — من ضيفه رأته السوام — استتباع ، لأنه مدحه بالحسن والشجاعة على وجه استتبع مدحه بالكرم .

. . . .

ومنها أنه يريك العدم وجوداً والوجود عدما ، والميت حياً والحي ميتا ، كما تقول — فلان موجود وإن كان معدوما ، حي وإن غيبه القبر — جعلت ذكره بعد موته وجوداً وحياة له .

ومنها أنه يجعل الموت حياة مستأنفة — كما تقول في ميت عظيم — كان موته حياة له ، إنه عاش حين مات .

ومنها أنه يمكن به تشبيه أشياء مختلفة بشيء واحد ، أي يأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة ، كالقمر يشبه به من جهة الكمال بعد النقصان ، كقول أبي تمام في رثاء طفلين لعبد الله بن طاهر :

لهفي على تلك الشواهد منهما   لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لغدا سكونهما حجى وصباهما   حلما وتلك الأريحية نائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه   أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

ويشبه به في كماله بعد النقص ثم نقصه بعد الكمال ، كقول أبي الحسن أحمد بن أبي البغل :

المرء مثل هلال حين تبصره   يبدو ضئيلا ضعيفا ثم يتسق
يزداد حتى إذا ما تم أعقبه   كر الجديدين نقصا ثم ينمحق

ويشبه به من جهة كماله في نصف شهره ، كقول ابن بابك في مدح أبي علي وزير فخر الدولة ، وكان قد استوزره مع أبي العباس الضبي ، وجعلهما شريكين في الوزارة :

ورآك للتشريف أهلا فاجتبى   بوفاته ملك يقول ويفعل

. . . .

فأعرت شطر الملك شطر كماله   والبدر فى شطر المسافة يكمل

ويشبه به من جهة أنه إذا كان قليل النور قل ظهوره ليلا أول الشهر وآخره ، وإذا امتلأ طال مكثه .

٣ — والسبب الثالث فى تأثيره يجىء من ناحية اللذة العقلية ، لأنه يحتاج إلى إعمال الفكر ، والشىء إذا نيل بعد طلبه والتعب يكون موقعه أعظم فى النفس من المنساق إليها بلا تعب ، وهذا السبب مرتبط بالسبب الثانى ومرتب عليه ، لأن التمثيل إنما يحتاج إلى إعمال فكر إذا كان تقرير الشبه بين الأشياء المتباعدة ، بخلاف المتقاربة فى الجنس لظهور الشبه بينها وقرب مأخذه ، وتفضيل التمثيل من هذه الناحية لا يستلزم مدح التعقيد والتعمية فى الكلام ، من جهة أن هذا يحوج إلى إعمال الفكر أيضاً ، لأن إعمال الفكر فيما معنا من جهة دقة المعنى فى ذاته ، بخلاف إعمال الفكر فى التعقيد ، فإنه من جهة سوء نظم الكلام ، وكذلك لا ينافى تفضيل التمثيل من هذه الناحية قول البلغاء : إن الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى سمعك ، لأنهم يريدون بهذا تجنيب الكلام من التعقيد ونحوه مما يخل بالدلالة ويحول دون بلوغ المقصود ، ولا يريدون أن خير الكلام ما كان غفلا ساذجا مثل الذى يتراجعه الصبيان ، ويتداوله العامة .

ومن دقيق التمثيل قول المتنبى فى رثاء أم سيف الدولة :

فلو كان النساء كمن فقدنا   لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فخر للهلال

ذكر أن النساء لو كن مثلها فى الفضل لكن أفضل من الرجال ، ولم تمنع =

. . . .

= أنوثتهن فضلهن عليهم ، كما لم تمنع أنوثة الشمس من فضلها على الهلال بعموم نفعها دونه .

فهذه هي أسباب تأثير التمثيل : ، وبها كان التمثيل كله نوعا من التشبيه ممتازاً ، وفناً منه بديعاً .

أما التشبيه غير التمثيلي فمنه الغريب النادر ، ومنه القريب المبتذل ، وكل من السبب الثاني والثالث لتأثير التمثيل من أسباب غرابة التشبيه ، فالقريب المبتذل خاص بالتشبيه دون التمثيل ، لأن التمثيل أولى بالجمع بين المختلفات بخلاف التشبيه (راجع ص٤٥ ومابعدها أسرار التمثيل للصعيدي ط ١٩٥٥).

فصـــل آخر

وإن كان مما مضى(١) إلا أن الأسلوب غيره ، وهو(٢) أن المعنى إذا أتاك ممثلا فهو فى الأكثر ينجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له ، والهمة فى طلبه ، وما كان منه ألطف ، كان امتناعه عليك أكثر ، وإباؤه أظهر ، واحتجاجه أشد .

ومن المركوز فى الطبع أن الشىء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه . ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالمزية أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف ، وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال(٣) :

١٣٣ - وهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة إليه ، وتقدم المطالبة من النفس به .

فإن قلت : فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً فى فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس ، ألا تراهم قالوا : إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك .

فالجواب أنى(٤) ، لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب وإنما أردت القدر الذى يحتاج إليه فى نحو قوله(٥) .

---

(١) أى مكملا لبلاغة التمثيل . (٢) أى الفصل .

(٣) أى القطامى الشاعر الأموى المشهور (توفى عام ١٠١ هـ) . النبذ : للطرح . الغلة : شدة العطش .

(٤) هذا السؤال والجواب هو نفس كلام الآمدى فى الموازنة ص١٢٦ طبعة صبيح . (٥) هو المتنبى .

١٣٤ - فإن تفق الأنام وأنت منهم
فإن المسك بعض دم الغزال

وقوله(١) :

١٣٥ - وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

وقوله(٢) :

١٣٦ - رأيتك فى الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم فى محال

وقول النابغة(٣) :

١٣٧ - فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله(٤) :

١٣٨ - فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول البحترى :

١٣٩ - ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم
وللسيف حد حين يسطو ورونق(٥)

---

(١) المتنبى فى عزاء سيف الدولة .
(٢) هو المتنبى أيضاً من القصيدة السابقة .
(٣) هو زياد بن معاوية الذبيانى أبو أمامة من قصيدة يعتذر فيها للنعمان بن المنذر .
(٤) هو النابغة أيضاً فى إحدى اعتذارياته للنعمان بن المنذر .
(٥) يمدح محمد بن على القمى ومطلعها : =

١٤٠ - وقول امرىء القيس(١) :

* بمنجرد قيد الأوابد هيكل *

وقوله(٢) :

١٤١ - ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب
جذع البصيرة قارح الإقدام(٣)

فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعانى كالجوهر فى الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه ، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن

= أو كل دار منك عين ترقرق وقلب على طول التذكر يخفق
على دمنة منها لا دمانة النقا محاسن أيام تحب وتعشق

(١) من معلقته وصدره : وقد أغتدى والطير فى وكناتها .

والمنجرد من الخيل : الأجرد قصير شعر الجلد وهو ممدوح فيها والأوابد جمع آبدة وهى من الوحوش والطيور التى تقيم فى مكان لا تظعن منه صيفا ولا شتاء ، ويستعار للفرس الجواد .

(٢) هو قطرى بن الفجاءة ، وكان زعيم الخوارج قتل سنة ٧٨ هجرية وهو من قصيدة مطلعها :

لا يركنن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفا لحمام

(٣) جذع البصير يريد أنه فتى فى التجربة والرأى والاستبصار ، قارح الإقدام : أى متناه فيه ... والمعنى أن إقدامه إقدام قارح وبصيرته بصيرة جذع . والقارح من الإبل : ماله ناب . لم أصب : أى لم أوجد ولم ألف على هذا المنوال . وراجع البيت فى الوساطة طبعة العرفان ص ٢٠٢ ، وهو لقطرى .

عليه ، ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له فى الوصول إليه ، فما كل أحد يفلح فى شق الصدفة ، ويكون فى ذلك من أهل المعرفة ، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له وكان :

١٤٢ — من النفر البيض الذين إذا اعتزوا
وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا(١)

أو كما قال(٢) :

١٤٣ — تفتح أبواب الملوك لوجهه بغير حجاب دونه أو تملق

وأما التعقيد فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه من غير الطريق كقوله(٣) :

---

(١) هذا البيت من قصيدة لأبى ربيس — بضم الراء — التغلبى عباد بن طرفة يمدح بها أسيلم بن الأحنف الأسدى من سادات أهل الشام ومطلعها :

أسيلم ذاكم لا خفى بمكانه لعين ترجى أو لأذن تسمع
ألا أيها الركب المخبون هل لكم بسيد أهل الشام تحبوا وترجعوا

وراجع البيت فى الكامل (للمبرد ١ : ٨٥ طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة) والقعقعة : صوت الحديد ونحوه — يخبر بجلالهم بأن مثلهم لا يرد عن أبواب الملوك .. والبيت أيضاً فى البيان للجاحظ (١ : ١٥٠ ، ٣ : ١٧٤ تعليق السندوبى) وفى العقد الفريد (٣ : ٤٢٣) .

(٢) هو جرير فى قصيدة فى رثاء الفرزدق . وقيل : إن البيت لابن هرمة الشاعر .

(٣) أى المتنبى من قصيدة يمدح بها القاضى أحمد بن عبد الله الأنطاكى مطلعها : —
=

١٤٤ـ ولذا اسم أغطية العيون جفونها   من أنها عمل السيوف عوامل(١)

وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله، وكدك بسوء الدلالة، وأودع المعنى لك في قالب غير مستو ولا مملس، بل خشن مضرس، حتى إذا رمت إخراجه منك عسر عليك، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن(٢).

= لك يا منازل في القلوب منازل   أقفرت أنت وهن منك أواهل

والمعنى: إنما سميت أغطية العيون جفوناً لأنها شملت أحداقا تعمل عمل السيوف - ٣: ٣٥٢ العكبري شرح ديوان المتنبي.

وقد جاء هذا المعنى بلا تعقيد في بيت لأحد الشعراء المعاصرين قال:

بين السيوف وعينيها مناسبة   من أجلها قيل للأغماد أجفان

وقد أخذه من بيت المتنبي الذي سبق به إلى المعنى.

وما كتبه عبد القاهر عن التعقيد هنا هو ماذهب إليه صاحب الوساطة (ص ٢٥ طبعة العرفان)، وهو مأخوذ من الجاحظ في «البيان والتبيين»، من كلمة لبشر بن المعتمر: إياك والتوعر فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك (١: ١٠٥ البيان) وقد كتب الآمدي عن ذلك (١٨٢ موازنة صبيح)، وهذه الفكرة عن التعقيد تخالف فكرة قدامة عنه (١٠٤ نقد الشعر) التي تأثر فيها بأرسطو، وخلاصتها أن التعقيد والإغلاق والمعاظلة والتقعير سواء، وهو استعمال الوحشي وشدة تعليق الكلام بعضه ببعضه حتى يستبهم المعنى.

(١) في بيت المتنبي: لذا جار ومجرور خبر مقدم واسم مبتدأ مؤخر وجفون مفعول باسم لأنه مصدر بمعنى التسمية ويصح أن يكون اسم مبتدأ خبره جملة «من أنها الخ».

وقد روى «جفون» بالرفع على أنها فاعل لاسم.

والبيت جاء في دلائل الإعجاز ص ١١٩ تحقيق الخفاجي.

هذا - وإنما يزيدك الطلب فرحاً بالمعنى وأنساً به وسروراً بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلا . وأما إذا كنت معه كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج الخرز، فالأمر بالضد مما بدأت به . ولذلك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدى عليك ، ويؤرقك ثم لا يروق لك ، وما سبيله إلا سبيل البخيل الذى يدعوه لؤم فى نفسه ، وفساد فى حسه ، إلى ألا يرضى بضعته فى بخله ، وحرمان فضله ، حتى يأبى التواضع ولين القول ، فيتيه ، ويشمخ بأنفه ، ويسوم المتعرض له بابا ثانياً(١) من الاحتمال تناهياً فى سخفه ، أو كالذى لا يؤنسك من خيره فى أول الأمر فتستريح إلى اليأس ، لكنه يطمعك ويسحب(٢) على المواعيد الكاذبة ، حتى إذا طال العناد وكثر الجهد تكشف عن غير طائل : وحصلت منه على ندم لتعبك فى غير حاصل ، وذلك مثل ما تجده لأبى تمام من تعسفه فى اللفظ وذهابه به فى نحو من التركيب لا يهتدى النحو إلى إصلاحه . وإغراب فى الترتيب يعمى الإعراب فى طريقه ، ويضل فى تعريفه ، كقوله :

١٤٥ - ثانيه فى كبد السماء ولم يكن
لاثنين ثان إذ هما فى الغـــار(٣)

وقوله :

---

(١) والباب الأول هو احتمال بخله . (٢) بمعنى أو يسير .

(٣) ثان صحتها ثانيا خبر يكن، وفى تقديم المضاف إليه على المضاف وقرنه بالكاف بلا داع ، والأصل : ولم يكن كثانى - والمعنى : الأفشين القائد التركى ثانى اثنين صلبا بأمر المعتصم ولم يكن ثانى اثنين إذ هما فى الغار والمعنى ركيك ، والأسلوب معقد مما لا طائل تحته ، والبيت ورد فى دلائل الإعجاز ص ١١٩ تحقيق الخفاجى .

١٤٦ — يدى لمن شاء رهن من يذق جرعا
من راحتيك درى ما الصاب والعسل(١)

ولو كان الجنس الذى يوصف من المعانى باللطافة ويعد فى وسائط(٢) العقود لا يحوجك إلى الفكر ولا يحرك من حرصك على طلبه بمنع جانبه، وببعض الإدلال عليك، وإعطائك الوصل بعد الصد، والقرب بعد البعد، لكان « باقلى حار » وبيت معنى هو عين القلادة، وواسطة العقد(٣) واحداً، ولسقط تفاضل السامعين فى الفهم والتصور والتبين، وكان كل من روى

(١) أبو تمام فى المعتصم أيضاً من قصيدة طويلة.
وقبل البيت:
كأن أمواله والبذل يمحقها نهب تعسفه التبذير والنفل
والتعقيد فى البيت بالتعليق بلا موجب، على تقدير « ما » استفهامية، وبحذف صدر الصلة بلا طول على تقديرها موصولة.
وقال صاحب الوساطة: حذف عمدة الكلام وأخل بالنظم فهو إنما أراد يدى لمن شاء رهن (إن كان) لم يذق فحذف (إن كان) فأفسد الترتيب وأحال الكلام عن وجهه، ومثل ذلك فى الموازنة. والصاب: شجر مر والبيت مذكور فى الدلائل ص ١١٩ تحقيق الخفاجى.
(٢) الوسائط جمع واسطة، وهى: ما كان من الجوهر فى وسط العقد وأجوده.
(٣) الباقلى ويمد: الفول، أى لكان نداء بائع الفول بهذه الكلمة (باقلى حار) وبيت شعر حسن الأسلوب والرصف — متساويين لا تفاضل بينهما.

الشعر عالماً به ، وكل من حفظه - إذا كان يعرف اللغة على الجملة - ناقداً فى تمييز جيده من رديئه ، وكان قول من قال :

١٤٧ - زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر(١)

وقول ابن الرومى :

١٤٨ - قلت لمن قال لى عرضت على الأخـ
ـفش ما قلتـــه فما حمـــده
قصرت بالشعر حين تعـــرضه على مبين العمى إذا انتقـــده
ما قال شعـراً ولا رواه فـلا تعلبه كانـ ، لا ولا أسده(٢)
فإن يقـــل إننى رويت فـكالد فتر جهلا بـكل ما اعتقـــده

وما أشبه ذلك،دعوى(٣ غير مسموعة ، ولا مؤهلة القبول، فإنما أرادوا بقولهم : « ما كان معناه إلى قلبك ، أسبق من لفظه إلى سمعك(٤ »أن يجتهد

---

(١) البيت هو لمروان بن أبى حفصة (٨٩:٢ الكامل للمبرد) . والبيت فى الدلائل تحقيق الخفاجى ص ٢٥٥ .

(٢) يهجو ابن الرومى أبا الحسن على بن سليمان بن الفضل المعروف بالأخفش الأصغر النحوى غلام المبرد وكان شاباً مترفا ومليحاً مستظرفاً ، وكان يعبث بابن الرومى فيأتيه سحراً فيقرع الباب فيقال له من فيقول قولوا له مرة بن حنظلة فيتطير لقوله ويقيم الأيام لايخرج من داره، واتصل بابن الرومى أن رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعن فيها فهجاه بهذه القصيدة ، وثعلب المراد به الإمام النحوى الكوفى ثعلب المتوفى عام ٢٩١هـ.

(٣) خبر لقوله : وكان قول من قال الخ .

(٤) ٨٩ و ٩١ : ١ البيان والتبيين .

المتكلم فى ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما أخل بالدلالة . وعاق دون الإبانة ، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غفلا مثل ما يتراجعه(١) الصبيان ، ويتكلم به العامة فى السوق .

هذا ، وليس إذا كان للكلام فى غاية البيان ، وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح ، أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً ، فإن المعانى الشريفة اللطيفة لابد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق . أفلست تحتاج فى الوقوف على الغرض من قوله : « كالبدر أفرط فى العلو » ، إلى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه ، ووجه المجاز فى كونه دانياً شاسعاً وترقم ذلك فى قلبك ، ثم تعود إلى ما يعرض البيت الثانى عليك من حال البدر ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى وترد البصر من هذه إلى تلك ، وتنظر إليه كيف شرط فى العلو الإفراط ليشاكل قوله « شاسع » ، لأن الشسوع هو الشديد من البعد ، ثم قابله بما لا يشاكله من مراعاة التناهى فى القرب فقال (جد قريب)(٢) ، فهذا هو الذى أردت بالحاجة إلى الفكر ، وبأن المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منه فى طلبه واجتهاد فى نيله ؟ .

هذا(٣) ـ وإن توقفت فى حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر فى تحصيله ، فهل تشك فى أن الشاعر الذى أداه إليك ، ونشر بزه(٤) لديك ، قد تحمل فيه المشقة الشديدة ، وقطع إليه الشقة البعيدة ، وأنه لم يصل إلى دره حتى غاص ، وأنه لم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص ؟ ؟ ، ومعلوم أن الشىء إذا علم أنه لم ينل فى أصله إلا بعد التعب ، ولم يدرك

---

(١) أى يردده . (٢) مشاكلة لقوله (دان) .

(٣) أى افهم هذا أو التقدير : هذا ظاهر إن سلمت ، وإن توقفت الخ وكذلك الأمر فى قوله سابقاً : « هذا وليس إذا كان الكلام » .

(٤) البز نوع من الثياب من كتان أو قطن .

إلا باحتمال النصب . كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه ، وأخذ الناس بتفخيمه ، ما يكون(١) لمباشرة الجهد فيه ، وملاقاة الكرب دونه ، وإذا عثرت بالهوينى على كنز من الذهب لم تخرجك سهولة وجوده إلى أن تنسى جملة أنه الذى كد الطالب ، وحمل المتاعب ، حتى إن لم تكن فيك طبيعة من الجود تتحكم عليك ، ومحبة للشاء تستخرج النفيس من يديك ، كان من أقوى حجج الضن(٢) الذى يخامر الانسان أن تقول : « إن لم يكدنى فقد كدّ غيرى » ، كما يقول الوارث للمال المجموع عفواً إذا ليم على بخله به ، وفرط شحه عليه : « إن لم يكن كسبى وكدى ، فهو كسب والدى وجدى ، ولئن لم ألق فيه عناء لقد عانى سلفى فيه الشدائد ، ولقوا فى جمعه الأمرين(٣) ، أأضيع ما ثمروه وأفرق ما جمعوه ؟ وأكون كالهادم لما أنفقت الأعمار فى بنائه ، والمبيد لما قصرت الهمم على إنمائه ؟ » .

وإنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب(٤) ، ما يعطى البحترى ، ويبلغ فى هذا مبلغه ، فإنه ليروض لك المهر الأرن(٥) رياضة الماهر ، حتى يعنق(٦) من تحتك إعناق القارح(٧) ، المذلل ، وينزع من شماس الصعب الجامح ، حتى

(١) ما : اسم كان ، وللعلم : خبرها ، ومن الدعاء بيان لما مقدم عليها .

(٢) أى البخل .

(٣) الأمران : الهرم والمرض ، ولقى منه الأمرين أى الشدائد والشرور .

(٤) قال أبو هلال (٤٧ الصناعتين طبعة صبيح) فى البلاغة : هى تقريب المعنى البعيد بأن يعمد إلى المعنى اللطيف فيكشفه حتى يفهمه السامع من غير فكر فيه :

(٥) الأرن : المرح البطر .

(٦) أى يسرع .　　　　(٧) القارح : ما قرح نابه ، أى طلع .

شماس الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد المطيع ، ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره فى قلة الحاجة إلى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله :

١٤٩ - فؤادى منك ملآن وسرى فيك إعلان(١)

وقوله(٢) :

١٥٠ - عن أى ثغر تبتسم (وبأى طرف تحتكم)

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد ، حتى قل نشاطه لها واعتناؤه بها ، إلا لأنه لم يفهم معانيها ، كما فهم معانى النوع النازل الذى انحط(٣) له إليه ؟ أتراك تستجيز أن تقول : إن قوله(٤) :

١٥١ منى(٥) النفس فى أسماء لو تستطيعها

من جنس المعقد الذى لا يحمد ، وإن هذه الضعيفة الأسر ، الواصلة إلى القلوب من غير فكر ، أولى بالحمد وأحق بالفضل .

هذا والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر

---

(١) للبحترى فى مدح الفتح بن خاقان الوزير المقتول مع المتوكل عام ٢٤٧ﻫ .

(٢) البحترى فى مدح المتوكل . (٣) أى البحترى .

(٤) أى البحترى أيضاً . وما كتبه عبد القاهر هنا عن البحترى متأثر فيه بالجرجانى فى الوساطة (ص ٣٠ طبعة العرفان) .

(٥) مطلع قصيدة من جيد قصائده فى مدح المتوكل يقول فيها :

منى النفس فى أسماء لو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها

وقد راعنى منها الصدود وإنما تصد لشيب فى عذارى يروعها

ومما أثر عن المتوكل أنه قال : ما زال يقول : عهاعها ، حتى كدنا نقىء » وهذا هو معنى كلام عبد القاهر من أن المتوكل لم يفهم معانيها .

على الجملة، بل لأن صاحبه يعثر فكرك فى متصرفه(١)، ويشيك(٢) طريقك إلى المعنى، ويوعر مذهبه نحوه، بل ربما قسم فكرك، وشعب ظنك، حتى لا تدرى من أين تتوصل وكيف تطلب؟

وأما الملخص(٣) فيفتح لفكرتك الطريق المستوى ويمهده، وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار، وأوقد فيه الأنوار(٤)، حتى تسلكه سلوك المتبين لوجهته، وتقطعه قطع الواثق بالنجح فى طيته، فترد الشريعة(٥) زرقاء، والروضة غناء فتنال الرى، وتقطف الزهر الجنى(٦)، وهل شىء أحلى من الفكرة إذا استمرت وصادفت نهجاً مستقيما، ومذهباً قويماً، وطريقة تنقاد، وتبينت لها الغاية فيما ترتاد؟ فقد قيل: قرة العين، وسعة الصدر، وروح القلب، وطيب النفس، من أربعة أمور: الاستبانة للحجة، والأنس بالأحبة، والثقة بالعدة، والمعاينة للغاية، وقال الجاحظ(٧) فى أثناء فصل يذكر فيه ما فى الفكر والنظر من الفضيلة: وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة، ولذة السبع بلطع الدم(٨) وأكل اللحم، من سرور الظفر

(١) أى بالتعقيد اللفظى.

(٢) أشاك الطريق أدخل الشوك فيه. وهذا بالتعقيد المعنوى.

(٣) أى الكلام الملخص المرتب الألفاظ الواضح الدلالة، ويصح أن يكون اسم فاعل: أى البليغ الملخص الموضح للكلام.

(٤) بإقامة القرائن والعلائق التى تبين المراد من الكلام.

(٥) الطية الجهة التى تقصد إليها، والشريعة: منهل الماء.

(٦) الرى راجع للشريعة، والزهر راجع للروضة.

(٧) راجع ١ : ٢٥٠ الحيوان.

(٨) بالفتح ما تأكله دابة والجمع علف بضمتين، وفى المصباح العلوفة بزنة حلوبة: ما يعلف من الغنم وغيرها، تطلق على الواحدة والجمع. ولطع الدم: شربه أو لحسه.

بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه .

وبعد فإذا مدت الحلبات(١) لجرى الجياد ، ونصبت الأهداف لتعرف فضل الرماة فى الإبعاد والسداد ، فرهان العقول التى تستبق ، ونضالها الذى تمتحن قواها فى تعاطيه ، هو الفكر والرواية والقياس والاستنباط .

ولن يبعد المدى فى ذلك(٢) ، ولا يدق المرمى ، إلا بما تقدم من تقرير الشبه بين الأشياء المختلفة ، فإن الأشياء المشتركة فى الجنس المتفقة فى النوع ، تستغنى بثبوت الشبه بينها ، وقيام الاتفاق فيها ، عن تعمل وتأمل فى إيجاب ذلك لها ، وتثبيته فيها وإنما(٣) لصنعة تستدعى جودة القريحة والحذق ، الذى يلطف ويدق ، فى أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات فى ربقة(٤) ، ويعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة ، وما شرفت صنعة ، ولا ذكر بالفضيلة عمل ، إلا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى مالا يحتاج إليه غيرهما ، ويحتكمان على من زاولهما ، والطالب لهما من هذا المعنى(٥) مالا يحتكم ما عداهما ، ولا يقتضيان ذلك إلا من جهة إيجاد الائتلاف فى المختلفات ، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التى تنسب إلى الدقة ، فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافاً فى الشكل والهيئة ، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتم ، والائتلاف أبين ، كان شأنها أعجب ، والحذق لمصورها أوجب .

وإذا كان ثابتاً موجوداً ، ومعلوماً معهوداً ، من حال الصور المصنوعة

---

(١) جمع حلبة بالسكون وهو ميدان السباق .
(٢) أى فى إعمال الفكر .
(٣) أى محاولة تقرير الشبه بين المختلفين فى الجنس .
(٤) الربقة : الحبل فى العنق .
(٥) هو لطف النظر ودقة الفكر .

والأشكال المؤلفة ، فاعلم أنها القضية في التمثيل ، واعمل عليها ، واعتقد صحة ما ذكرت لك من أخذ الشبه للشيء مما يخالفه في الجنس ، وينفصل عنه من حيث ظاهر الحال حتى يكون(١) هذا شخصاً يملأ المكان وذاك معنى لا يتعدى الأفهام والأذهان ، وحتى إن هذا إنسان يعقل ، وذاك جماد أو موات لا يتصف بأنه يعلم أو يجهل ، وهذا نور شمس يبدو في السماء ويطلع وذاك معنى كلام يوعى ويسمع ، وهذا روح يحيا به الجسد . وذاك فضل ومكرمة تؤثر وتحمد ، كما قال(٢) :

١٥٢ — إن المكارم أرواح يكون لها
آل المهلب دون الناس أجساداً(٣)

وهذا مقال متعصب منكر للفضل حسود ، وذاك نار تلتهب في عود ، وهذا خلاف وذاك ورق خلاف كما قال ابن الرومي :

١٥٣ — بذل الوعد للأخلاء سمحاً
وأبى بعد ذاك بذل العطاء

فغدا كالخلاف(٤) يورق للعين ويأبى الإثمار كل الإباء

وهذا رجل يروم العدو تصغيره والازدراء به فيأبى فضله إلا ظهوراً ، وقدره إلا سمواً . وذاك شهاب من نار تصوب وهي تعلو ، وتخفض وهي ترتفع . كما قال أيضاً(٥) :

---

(١) أي غاية في الانفصال ، وهذا أي المشبه أو المشبه به وذاك العكس .

(٢) هو عمر بن لجأ في مدح آل المهلب (الشعر والشعراء - طبقات الشعراء لابن سلام) - وينسب أيضاً للمغيرة التميمي (ص٣٦٩ معجم الشعراء) .

(٣) راجع البيت في الحماسة ٢ : ٣٤٨ تعليق الرافعي .

(٤) الخلاف : شجر الصفصاف .

(٥) هو ابن الرومي يخاطب بعض أعدائه الذين كانوا يحرضون عليه =

١٤٤ — ثم حاولت بالمثيقيل تصغيـ ـرى فما زدتنى سوى التعظيم

كالذى طأطأ الشهاب ليخفى وهو أدنى له إلى التضريم

وأخذ هذا المعنى من كلام فى حكم الهند(١) وهو: إن الرجل ذا المروءة والفضل ليكون خامل المنزلة غامض الأمر فما تبرح به مروءته وعقله حتى يستبين ويعرف كالشعلة من النار التى يصوبها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعا.

هذا هو الموجب للفضيلة والداعى إلى الاستحسان، والشفيع الذى أحظى التمثيل عند السامعين، واستدعى له الشغف والولوع من قلوب العقلاء الراجحين، ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للتمثيل، ولم تتصادف هذه الأشياء المتعادية على حكم المشبه، إلا أنه لم يراع ما يحضر العين، ولكن ما يستحضر العقل، ولم يعن بما تنال الرؤية، بل بما تعلق الروية، ولم ينظر إلى الأشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة، ثم على حسب دقة المسلك إلى ما استخرج من الشبه ولطف المذهب وبعد التصعد إلى ما حصل من الوفاق استحق مدركه(٢) ذلك المدح، واستوجب التقديم، واقتضاك العقل أن تنوه بذكره، وتقضى بالجنى فى نتائج فكره، نعم وعلى حسب المراتب فى ذلك، وأعطيته فى بعض منزلة الحاذق الصنع والملهم المؤيد، والألمعى المحدث الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة حتى يصير إماماً ويكون من بعده تبعاً له وعيالا عليه، وحتى تعرف

= وهو محمد بن يعقوب الملقب مثقالا الشاعر الهجاء الخبيث اللسان ليهجوه المثيقيل تصغير مثقال، وأخذ هذا المعنى من كلام عبد الله بن عروة لابنه (البيان ٢:١٣٤٥): ألم تر إلى بنى أمية وما يظهرون من عيب (على) والله لكأنما يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء.

(١) من كليلة ودمنة لابن المقفع.

(٢) اسم فاعل ويصح أن يكون على صيغه اسم المفعول.

تلك الصنعة بالنسبة إليه ، فيقال صنعة فلان وعمل فلان . ووضعته في بعض موضع المتعلم الذكى والمقتدى المصيب فى اقتدائه الذى يحسن التشبه بمن أخذ عنه ، ويجيد حكاية العمل الذى استفاد ، ويجتهد أن يزداد .

واعلم أنى لست أقول لك إنك متى ألفت الشىء ببعيد عنه فى الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنت ، ولكن أقوله بعد تقييد وبعد شرط ، وهو أن تصيب بين المختلفين فى الجنس ، وفى ظاهر الأمر شبها صحيحاً معقولا(١) ، وتجد الملاءمة والتأليف السوى بينهما مذهباً وإليهما سبيلا ، وحتى يكون ائتلافهما الذى يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس ، فى وضوح اختلافهما من حيث العين والحس . فأما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور ، فلا لأنك تكون فى ذلك بمنزلة الصانع الأخرق يضع فى تأليفه وصوغة الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه ، حتى تخرج الصورة مضطربة وتجىء فيها نتو ويكون للعين عنها من تفاوتها نبو ، وإنما قيل شبهت ، ولا تعنى فى كونك مشبهاً أن تذكر حرف التشبيه أو تستعير ، إنما تكون مشبهاً بالحقيقة بأن ترى الشبه وتبينه ، ولا يمكنك بيان ما لا يكون ، وتمثيل ما لا تتمثله الأوهام والظنون .

ولم أرد بقولى : «إن الحذق فى إيجاد الائتلاف بين المختلفات فى الأجناس» أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل فى العقل . وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق فى المعانى بالغائص على الدر . ووزان ذلك أن القطع التى يجىء من مجموعها صورة الشنف(٢) والخاتم أو غيرهما من الصور المركبة من أجزاء مختلفة الشكل لو لم يكن بينها تناسب أمكن ذلك

---

(١) هذا شرط لحسن التأليف والجمع بين المختلفين .

(٢) الشنف بفتح الشين : القرط الأعلى .

التناسب أن يلائم بينها الملاءمة المخصوصة ، ويوصل الوصل الخاص ، لم يكن ليحصل لك من تأليفها الصورة المقصودة .

ألا ترى أنك لو جئت بأجزاء مخالفة لها فى الشكل ثم أردتها على أن تصير إلى الصورة التى كانت من تلك الأول طلبت ما يستحيل ، فإنما استحقت الأجرة على الغوص وإخراج الدر . لا أن الدر كان بك ، واكتسى شرفه من جهتك ، ولكن لما كان الوصول إليه صعباً وطلبه عسيراً ثم رزقت ذلك ، وجب أن يجزل لك ويكبر صنيعك .

ألا ترى أن التشبيه الصريح(١) إذا وقع بين شيئين متباعدين فى الجنس ثم لطف وحسن لم يكن ذلك اللطف وذلك الحسن إلا لاتفاق كان ثابتاً بين المشبه والمشبه به من الجهة التى شبهت ، إلا أنه كان خفياً لا ينجلى إلا بعد التأنق فى استحضار الصور وتذكرها وعرض بعضها على بعض، والتقاط النكتة المقصود منها ، وتجريدها من سائر ما يتصل بها ، نحو أن يشبه الشىء بالشىء فى هيئة الحركة فتطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة ، مجردة من الجسم وسائر ما فيه من اللون وغيره من الأوصاف ، كما فعل ابن المعتز فى تشبيه البرق حيث قال(٢) :

١٥٥ — وكأن البرق مصحف قار فانطباقا مرة وانفتاحا

لم ينظر من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التى تجدها العين له من انبساط يعقبه انقباض ، وانتشار يتلوه انضمام ، ثم فلى نفسه

---

(١) أى الواقع فى المحسوسات .

(٢) أى ابن المعتز من قصيدة يمدح بها أباه المعتز بالله ويقول فى مطلعها :

عرف الديار فحيا وناحا بعد ما كان صحا واستراحا

قار : مخفف قارىء . وتحرك المصحف فى حالة الانطباق إلى جهة العلو ، وفى حالة الانفتاح إلى جهة السفل .

عن هيئات الحركات لينظر أيها أشبه ، فأصاب ذلك فيما يفعله القارىء من الحركة الخاصة فى المصحف إذا جعل يفتحه مرة ويطبقه أخرى ، ولم يكن إعجاب هذا التشبيه لك وإيناسه إياك لأن الشيئين مختلفان فى الجنس أشد الاختلاف فقط بل لأن حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتمه . فبمجموع الأمرين — شدة ائتلاف فى شدة اختلاف — حلا وحسن وراق وفتن .

ويدخل فى هذا الموضوع والحكاية المعروفة فى حديث عدى بن الرقاع :(١) قال جرير : أنشدنى عدى :

١٥٦ — عرف الديار توهماً فاعتادها

فلما بلغ إلى قوله :

١٥٧ — تزجى أغن كأن إبرة روقه (٢)

رحمته ، وقلت : قد وقع ، ما عساه يقول وهو أعرابى جلف جاف ؟ فلما قال:

١٥٨ — قلم أصاب من الدواة مدادها

استحالت الرحمة حسداً فهل كانت الرحمة فى الأولى ، والحسد فى الثانية ، إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالا يحضر له فى أول الفكر وبديهة الخاطر وفى القريب من محل الظن ، شبه(٣) ، وحين أتم التشبيه وأداه ، صادفه

---

(١) هو عدى بن الرقاع العاملى الشاعر الأموى المشهور .

(٢) الإزجاء .السوق ، والأغن : ذو الغنة ، وهى صوت يتردد بين اللهاة والانف ، والروق : القرن ، وابرته : رأسه ، وتكو سوداء .

(٣) فاعل للفعل « يحضر » .

قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف . وعثر على خبء مكانه غير معروف؟
وعلى ذلك استحسنوا قول الخليل(١) ، فى انقباض كف البخيل(٢) :

١٥٩ — كفاك لم تخلقا للندى   ولم يك بخلهما بدعه
فكف عن الخير مقبوضة   كما انقضت مائة سبعة
وكف ثلاثة آلافها   وتسع مئيها لها شرعة

وذلك أنه أراك شكلا واحداً فى اليدين ، مع اختلاف العددين ومع اختلاف المرتبتين فى العدد أيضا ، لأن أحدهما من مرتبة العشرات والآحاد والآخر من مرتبه المئين والألوف . فلما حصل الاتفاق كأشد ما يكون فى شكل اليد مع الاختلاف كأبلغ مايوجد فى المقدار والمرتبة من العدد كان التشبيه بديعاً . قال المرزبانى(٣) : وهذا مما أبدع فيه الخليل لأنه وصف انقباض اليدين بحالين من الحساب مختلفين فى العدد متشاكلين فى الصورة ، وقوله هذا إجمال ما فصلته .

ومما ينظر إلى هذا الفصل ويداخله ويرجع إليه حين توصيله ، الجنس الذى يراد فيه كون الشىء من الأفعال سبباً لضده(٤) كقولنا : أحسن من حيث قصد الإساءة ، ونفع من حيث أراد الضر . إذا لم يقنع التشاغل بالعبارة الظاهرة ، والطريقة المعروفة ، وصور فى نفس الإساءة الإحسان ، وفى البخل الجود ، وفى المنع العطاء ، وفى موجب الذم موجب الحمد ، وفى

---

(١) الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٠ هـ) من أئمة العربية، ومن أعلامها الخالدين
(٢) الأبيات فى اللسان برواية أخرى ، وقد رويت فى العقد الفريد (٤ : ٢٢٤) ، وفى أدب الكتاب للصولى ص ٢٤١ .
(٣) صاحب الموشح ومعجم الشعراء توفى عام ٣٨٤ هـ .
(٤) المتقدمون يسمون مثل ذلك : التلطف .

الحالة التى حقها أن تعد له على الرجل حكم ما يعتد له ، والفعل الذى هو بصفة ما يعاب وينكر ، صفة ما يقبل المنة ويشكر ، فيدل ذلك بما يكون فيه من الوفاق الحسن مع الخلاف البين على حذق شاعره ، وعلى جودة طبعه وحدة خاطره ، وعلو مصعده وبعد غوصه . إذا لم يفسده بسوء العبارة ، ولم يخطئه التوفيق فى تلخيص الدلالة ، وكشف تمام الكشف عن سرر المعنى وسره ، بحسن البيان وسحره . مثال ما كان من الشعر بهذه الصفة قول أبى العتاهية(١) :

١٦٠ — جزى البخيل على صالحة　　عنى لخفته على ظهرى
أعلى وأكرم عن يديه يدى　　فعلت ونزه قدره قدرى
ورزقت من جدواه عافية　　ألا يضيق لشكره صدرى
وغنيت خلواً من تفضله　　أحنو عليه بأحسن العذر
ما فاتنى خير امرىء وضعت　　عنى يداه مؤونة الشكر
(وظفرت منه بخير مكرمة　　من بخله من حيث لا يدرى)

ومن اللطيف مما يشبه هذا قول الآخر(٢) :

١٦١ — أعتقنى سوء ما صنعت من الر
ق فيابردها على كبدى
فصرت عبداً للسوء فيك وما　　أحسن سوء قبلى إلى أحد(٣)

---

(١) الشاعر العباسى الزاهد المتوفى عام ٢١١ هـ ، والأبيات فى الحماسة (٢ : ٢٣٢) وفى دلائل الإعجاز ص ٤٤٧ تحقيق خفاجى .

(٢) هو إبراهيم بن العباس الصولى ٢٤٧ هـ ، والبيتان وردا فى الدلائل (ص ٤٤٧ تحقيق خفاجى) ، وفى الطرائف الأدبية (ص ١٤٤ و ١٨٤) ونسبهما صاحب الطرائف الأدبية إلى إبراهيم بن العباس الصولى والبعض لابن الرومى .

(٣) قبلهما .

. . . .

= إن كان رزقي إليك فارم به   في ناظري حية على رصد

لو كنت حراً كما زعمت وقد   كدرتني بالمطال لم أعد

لكنني عدت ثم عدت فإن   عدت إلى مثلها إذن تعد

وفي : أعتقني سوء ما صنعت استعارة مكنية مبنية على تمثيل ، شبه السوء بالإحسان ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو أعتق.

تم الجزء الأول من كتاب « أسرار البلاغة »

ويليه الجزء الثاني

بعون الله تعالى وحمده

فهرست

الجزء الأول من كتاب « أسرار البلاغة » بتحقيق الخفاجى

الموضوع	الصفحة

للمحقق

- تفسير القرآن الحكيم .
- كتاب دلائل الإعجاز — شرح وتحقيق .
- السيرة النبوية
- أشعار عنترة .
- فحولة الشعراء .
- دراسات فى التصوف الإسلامى .
- فى مشكاة اليقين .
- شرح المعلقات السبع للزوزنى .